إحسان البني
الحضارة
بين التمدن والتقدم
Bibliotheca Alexandrina
0011 7839
دار علاء الدين
منشورات دار علاء الدين

الحضارة بين النعمة والنقمة

إحســـان البنـــي

الحضارة
بين النعمة والنقمة



منشورات دار علاء الدين

دمشق - الطبعة الأولى ٢٠٠٠
١٠٠٠ نسخة

التنضيد الضوئي: دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة.
الإخراج الفني: علاء هزاع شرف.

يطلب الكتاب على العنوان التالي :
دمشق ص.ب - ٣٠٥٩٨
هاتف : ٥٦١٧٠٧١
فاكس : ٥٦١٣٢٤١

مقدمة

الحضارة هي مجموعةُ من المنظومات المادية والفكرية المتشابكة التي تؤمن للإنسان مزيداً من الراحة والحد الأدنى من الشقاء في سبيل حياة أفضل، وبمعناها الواسع هي التقنيات والآليات وأساليب الحياة بما في ذلك أساليب الإدارة والتنظيم والقوانين والشرائع التي تساهم في بناء المجتمع وتوجيه قدراته نحو خير الجميع وخدمة المصلحة العامة. وبالتالي فان حضارة اليوم هي بالضرورة المحصلة التراكمية للحضارات التاريخية والجغرافية السابقة، مضافا إليها إنجازات الحضارة المعاصرة، مع الأخذ بعين الاعتبار ما تم حذفه من إبداعات حضارية سابقة نتيجة لعدم ملاءمته لظروف مرحلية معينة. وكأي شيء آخر في الوجود خاضع لقوانين التطور خضعت الحضارة أيضا لهذا الناموس الأبدي ومرت على غربال شريعة البقاء للأفضل، فاضمحلت منها النواتئ والشواذات الفكرية والعلمية، ولم يصمد حتى اليوم إلا المناسب للشروط والظروف الحياتية لبني البشر. فهل كانت هذه الحضارة بدون ثمن؟ وهل قطف الإنسان ثمارها مجانا؟ بالطبع لا. إلا إذا كنا سنخالف قانون حفظ الطاقة والمادة ونقول بأن هناك دائما عشاء مجانياً تمنحه الطبيعة بدون مقابل. وهنا نتساءل أيضا فيما إذا كانت سلبيات الحضارة هي الثمن الذي يجب على الإنسان تسديده حتى يتمتع بقطف ثمارها ؟ فهل كان الإنسان البدائي أكثر سعادة منا نحن سكان هذه الأرض في نهاية القرن العشرين ؟

إن الموضوع شيق ومثير. ورغم تعاريجه ودهاليزه المخيفة إلا أنه أغراني بالبحث في متاهاته المتشابكة نظرا لتداخلاته المباشرة وغير المباشرة في حياتنا اليومية وأساليب معاشنا وعلاقاتنا الاجتماعية. إني أشعر وأنا أرى إنسانا يتمزق بين رنين الهاتف والفاكس، ويتوزع لاهثا بين عواصم الدنيا وطائرات العالم، ويتسكع حائرا في صالات الترانزيت حاملا جواز سفره الطافح بآلاف الطوابع والأختام أشعر وكأن هذه

الحضارة كانت لعنة ساخطة عليه لا يكاد يستمتع بجزء من ثمارها حتى ترغمه على دفع ضريبة باهظة من أعصابه وتوتراته اليومية. ولكن ليس كل الناس رجال أعمال. نعم هذا صحيح ثم من قال أن الحضارة كانت قصرا على رجال الأعمال؟ فالطائرة التي لاتركبها يزعجك ضجيجها وتقلقك حوادثها وتلهب رئتيك غازاتها النفاثة المنتشرة في الهواء كمضخات المبيدات الحشرية في أيدي المزارعين. والرائي (التلفاز) الذي يحمل العالم كله ليضعه بين يديك وأنت على مائدة العشاء يضع إلى جانبه آلاف السلع الاستهلاكية التي قد لا تحتاجها لولم يذكرك بها في أعنف حملة دعائية لتشجيع الاستهلاك المحموم ويضع إلى جانبها عشرات الأخبار المزعجة عن الكوارث والحروب التي إن لم تصد شهيتك عن العشاء فإنها تترك لك سلسلة من الإحباطات النفسية التي تقض مضجعك وتحرمك من النوم الهانئ المريح. أما الهاتف الذي يصلك بكل الأصدقاء والأحبة ويقضي لك آلاف الحاجات الملحة دون أن تتحرك من مكانك يقطع عليك خلوتك أحيانا ويقتحم رنينه المزعج ساعات نومك الهادئ واستلقائك المريح حتى لتكاد أن تقذفه بعيدا عنك في أوج استيائك وغضبك.

الموضوع إذن جديٌ جداً وقد لفت انتباهي منذ بضع سنوات عندما كنت أنتقل بحكم عملي كجيولوجي تنقيب بين الحاضرة والبادية فأستمتع بهدوء البرية تارة وبثمار الحضارة تارة أخرى . ولكنني وجدت في مرحلة معينة من مراحل عملي أن الحياة البسيطة في البادية هي أفضل من حياة المدن مع كل ما فيها من مقتنيات حضارية. وهذا يفسر إلى حدٍ ما تلهف سكان المدن المكتظة على قضاء إجازاتهم السنوية وعطل أعيادهم في مناطق الغابات والبراري البكر بعيداً عن ضجيج المدن ووسائل التمدن. فهل أكون مخطئا في بحث هذا الموضوع على صفحات هذا الكتاب؟ وهل سيتبادر لذهن القارئ أني أقف في الصف المعادي للحضارة مع الداعين إلى حياة أكثر بساطة ودفئا.؟

إحسان البني

١ـ الإنسان الأول

كان الإنسان البدائي الأول يعتبر نفسه جزءا من الطبيعة المحيطة به. جزءا من ترابها وصخورها ومائها ونباتها وجميع كائناتها التي تتعايش معه في بيئة واحدة. إذ لم يكن وعيه الذاتي قد تمايز بعد بشكل واضح، وكان همه الأول والأخير هو جمع قوته اليومي لملء أفواه الصغار. إنها حاجة أساسية بالنسبة لجميع الكائنات الحية بما فيها الإنسان. وكان أن فضل الله الإنسان على باقي أجناس الكائنات الحية بالعقل، هذه المادة الرمادية الثمينة التي استوعبت الوعي واستثارت الفكر ونظمت المحاكمات المنطقية. وبواسطة هذا العقل استطاع الإنسان أن يصنع لنفسه بعض الأدوات الإضافية التي وسعت قدرته وإمكانياته المحدودة لتمد نطاق سيطرته على البيئة التي يعيش فيها والمخلوقات التي تساكنه في تلك البيئة[١]. وكانت أولى الأدوات البدائية تتألف من حجارة صوانية مشذبة ومنحوتة على أشكال مختلفة بحيث تؤدي الغرض المصنوعة لأجله فهي إما رأس حربة مثلثة الشكل، وإما رأس فأس قاطع أو أداة طحن وهرس او نصل سكين قاطعة، وكانت هذه الأدوات تميز فترة العصر الحجري الأول قبل ثلاثين ألف سنة تقريبا. أما مسكن الإنسان فكان لا يتعدى بضع أمتار مربعة تمتد في تجويف صخري على شكل كهف أومغارة جبلية يستطيع سد مدخلها بحجر مناسب ليأمن فيها على حياته وحياة صغاره فهل نستطيع أن نتنبأ يا ترى بطبيعة الهموم اليومية لمثل هذا الكائن التعيس[٢]؟

نستطيع أن نفترض دون أن نبتعد كثيرا عن محور الحقيقة بأن قلق الإنسان البدائي كان يتمركز حول خمسة هموم رئيسية :

١ـ **الغذاء:** ويؤمنه الصيد الذي كان يساهم فيه ويتعاون عليه جميع أفراد العائلة

---

[١] – ومن هذه النقطة بالذات بدأت مسيرة الحضارة.

[٢] – وهل نستطيع أ، نستنتج أن الحضارة كانت وليدة العقل والوعي؟.

والجيران، وكان يكفي أفراد العائلة بضعة أيام، يضاف إليه بعض أنواع البذور والفواكــــه الطبيعية.

٢ــ **الماء**: ويكفي لتأمينه السكن القريب من أحد مــــوارد الميــاه العذبــة المعروفــة كالينابيع والبحيرات والجداول.

٣ــ **الكساء**: الذي تؤمنه مخلفات الصيد من جلود الحيوانات وأوراق الأشجار.

٤ــ **الدواء**: الذي كان يعتمد على بعض أعشاب البريـــة وبعــض طقــوس الســحر التعويضية التي لا تجدي نفعا، ولكن بنية الإنسان الرياضية كانت تشكل العامل الرئيســـي في مقاومة المرض واعتلال الصحة .

٥ــ **الأمن**: وكان يرتكز على نقطتين أساسيتين أولاهما سكن حصين يمكـــن الدفـــاع عنه ضد الكواسر المفترسة ومطامع الإنسان الآخر، وثانيهما بنية الإنسان القويـــة القـــادرة على حماية البيت والصغار بالإضافة إلى فعالية الأسلحة المستعملة بالدفـــاع، أمـــا مســـألة التنقل والمواصلات فلم تكن تتعدى حدود استعمال الساقين والركض على المسالك الوعــرة والأرض الجرداء، وفي أفضل الحالات استعمال بعض جلود الحيوانات الغليظة في تغليــف القدمين لحمايتهما من قذى الأشواك والحجارة المسننة.

فهل كان الإنسان الأول بهمومه الخمسة تلك أسعد حالا وأهنأ بالاً منا نحن أبناء القــرن العشرين ؟

صحيح أنك لست مضطرا للركض لاهثا خلف جاموس بري لتصطاده حتى تملأ أفــواه الصغار. ويكفي أن ترفع سماعة الهاتف لتطلب من جــزار الحــي أن يــزودك بحــاجتك الأسبوعية من اللحم، ولكن الحضارة التي خففت عنك عبء الصيد زودتك بــهموم أكـــبر منها وهي الركض لاهثا وبسرعة أكبر لاصطياد عمل أقل تعبا وأكبر راتبا طالما أنه مـــا عاد بالخبز وحده يحيا الإنسان , وصحيح أنك لم تعد بحاجة للسكن في كهف آمن وحصيـن لكنك مضطر لدفع فاتورة الإيجار أو لدفع أضعاف هذه الفاتورة ثمنا لبيـــت يحتـــاج إلـــى صيانة وخدمات , وصحيح أنك لا تقوى الآن على العيش بأسلوب الإنسان البدائي ولكـــن من يستطيع أن ينكر بأن هموم حضارتنا المعاصرة ومتطلباتها المتشعبة هي أثقل عـــبءاً واكبر ضغطا على نفوسنا من الهموم الخمسة لأســلافنا القدماء ؟

ومن يستطيع أن يؤكد بأن إنسان العصر الحجري لم يكن ينام ملء عينيه عندما كـــان

يأوي إلى مغارته مساء ويغلق بابه عليه لا تزعجه فواتير الضرائب ولا تؤرقه كشوفات البنوك ولا انقطاع الماء في يوم صيف قائظ أو انقطاع الكهرباء وتوقف المكيفات والبرادات في ظروف مناخية صعبة . فهل كانت الحضارة لعنة على هذا الإنسان إضافة إلى إيجابياتها الممتعة ؟

وعندما اكتشف الإنسان الأول النار لأول مرة وقف تجاهها مندهشا حائرا لا يقوى على تفسير ظاهرتها , كانت هناك عاصفة مطرية يتلألأ فيها البرق ويزمجر الرعد وسقطت صاعقة ملتهبة من السماء على جذع شجرة جافة فاحترقت وامتدت النار إلى غيرها من الأشجار كما يحصل عادة في الطبيعة، ولاحظ الإنسان بخبرته المحدودة أن جميع حيوانات البرية لم تجرؤ على الاقتراب منها، بل ولت هاربة مذعورة فحاول الاستفادة من هذه الظاهرة لتعزيز أمنه المهدد، وجرب الاحتفاظ بقبس منها ليبقيها مشتعلة بصورة مستمرة على باب مغارته وحتى تبعد عنه أنياب الوحوش الكاسرة والضواري.

إن استئناس النار وتطويعها لخدمة الإنسان كان نقلة حضارية هامة حققت له بعض الأمن وساعدته على تناول اللحوم المطهية، ولكن الثمن الذي دفعه لقاء هذه النعمة الطيبة كان بعض الحروق المؤلمة التي أصابته وأولاده من جراء سوء استخدامها وصعوبة السيطرة عليها .

كان إنسان الكهوف يسكن المغاور الطبيعية ولم يكن يفكر بإحداثها في الجبال أو حفرها، وكل ما يتوجب عليه فعله كان إيجاد المغارة المناسبة في الموقع المناسب . وتدلنا الآثار التي نشاهدها في كهوف الإنسان البدائي على أن محاولات جادة كانت تبذل لإصلاح المغارة وتشذيب نتوءات حجارتها من الداخل حتى تستجيب لمتطلباته وراحته.

ولكن هل من الممكن دائما أيجاد مغارة مناسبة للسكن في أي وقت كان خصوصا مع ازدياد عدد العائلات البدائية ؟ و محدودية المكان ؟ مما يؤدي إلى صراعات غير محسوبة؟ إذن لم يكن هناك بد من حفر مغارات جديدة لا تزال آثارها موجودة حتى الآن على الجروف الجبلية المصطفة على أكتاف الوديان (كالكهوف الموجودة في أعلى وادي بردى قرب منطقة التكية على بعد ٣٥ كم غرب مدينة دمشق في سوريا) ولكن إنسان الكهوف كان يعاني من صعوبة جر فرائسه من السهول والوديان حيث يتوفر الماء وبالتالي الصيد إلى مواقع سكناه في الجبال مما كان يعرضه لكثير من هجمات الحيوانات

المفترسة والإنسان الآخر الطامع بغذائه لذلك فقد كان لابد له من أن يفكر ببناء بيت له في السهول حيث يتوفر الماء وتكثر الطرائد فبدأ ببناء أول البيوت الحجرية على شكل عدد من الصفوف الحجرية ترتفع لمستوى قامته على شكل دائرة أو مربع كان يسقفه ببعض غصون الأشجار وينفتح على مدخل خارجي يمكن تأمين إغلاقه في المساء بواسطة بعض جذوع الأشجار أو الحجارة وكانت هذه أول محاولة إنسانية لخوض مجال العمران وقد تفحصت بعضاً من أطلال تلك البيوت البدائية في أواسط الحرات (سهولُ من البازلت وهو حجرُ بركانيُ أسود ترصف به الطرق العامة) في المملكة العربية السعودية حيث ثبت سكن الإنسان الأول فيها فهل انتهت هواجس الإنسان عند هذا الحد ؟ وما هو الثمن الذي دفعه لقاء تلك النقلة الحضارية ؟ مزيد من الهموم وكثير من القلق فالبيت أصبح مكشوفا في العراء يمكن رؤيته من مسافات بعيدة وهو بالتالي أصبح عرضة لهجمات الإنسان الآخر الطامع في بيت آمن بعد أن كان متواريا في تلافيف الجبال محجوبا عن الأنظار . وبعد أن كان الكهف البدائي يمثل مأوى جاهزا طبيعيا لا يحتاج إلى جهد بشري كبير أصبح الآن يمثل عبءاً إنشائيا كبيرا وجهدا عضليا مزعجا، كما أن عملا إضافيا كبيرا يجب أن يبذل لتأمين الحماية والأمن لهذا البيت الذي غدا مطمحا للطامعين. وهكذا نجد أنه ما أن يستقر الإنسان في أيجاد حلول لمشاكله اليومية التي تحركها الغرائز الأساسية المعروفة وهي الحاجة إلى الغذاء والماء والكساء والدواء والأمن حتى تظهر له حاجات أخرى وهواجس جديدة تتطلبها مقتنياته المستحدثة مما يترتب عليه إشباع رغبات سابقة ومواجهة متطلبات جديدة .

وهكذا وبعد مئات الآلاف من السنين وتكاثر بني البشر لدرجة كادت أن تضيق عليهم الأرض رغم اتساعها مع ما يترتب على ذلك من حدة في الصراع على البقاء وتطور وتنوع وسائل الدفاع عن النفس مع تاريخ حافل بآلاف الحروب الطاحنة نجد أن الإنسان مازال تعيسا خائفا قلقا لم تستطع كل نقلاته الحضارية أن تخفف من عنائه وقلقه بل على العكس من ذلك تماما فقد ازداد بؤسه بقدر ما ازدادت متطلباته وإنجازاته وتنوعت إحباطاته يوما بعد يوم كلما تنوعت وتشابكت وسائل رفاهيته حتى أصبح يحن إلى تلك الحياة البسيطة التي عاشها أسلافه من بني البشر بين آكام الجبال وعلى أطراف الينابيع والأنهار في حضن أمه الطبيعة لينشد الهدوء والاطمئنان . فهل كانت نعمة الحضارة في

جوهرها نقمة مموهة ما أن يجرب الإنسان حلاوتها حتى تظهر لـــه مرارتـــها وتمـــد لـــه لسانها؟

قال لي أحد أصدقائي ذات مساء وقد استوت بنا جلسة هادئة في أحد المقاهي العامة:

-ما هي السعادة بنظرك ؟

قلت بعد فترة صمت وجيزة : - هي إزالة التوتر بالمفهوم العلمي

قال بسخرية : - وكيف تزيل هذا التوتر وهو يتراكم كل يوم من جميع الجهات حتـــى أصبح جزءا من حياتنا ؟

- حتى أكون صادقا معك ليست لدي وصفة جاهزة لإزالة التوتر فأنا أعـــاني مثلـــك وربما أكثر منك ولكني أعتقد أن إجازة قصيرة تقضيـــها لوحـــدك فـــي الجبـــال أو بيـــن الأحراش الجبلية قد تنجح في إزالة قسط كبير من توترك .

- وهل تظن بأن الازدحام الصاخب في المدينة هو أحد أسباب هذا التوتر؟

- ليس الازدحام الصاخب فحسب و إنما السباق اللاهث خلف السادة انه صراع البقـــاء الذي يفرض عليك البقاء متيقظا للحفاظ على ما لديك والبقاء مهرولاً في مضمارٍ كل مـــن فيه مصاب بحمى الهرولة وما حياة الإنسان إلا تفاعل مستمر بينه وبين البيئة المحيطة بـــه بما فيها الإنسان الآخر وغالبا ما تكون طاقة هذا التفاعل أكبر من إمكانية الإنســـان ومـــن هنا يحصل التوتر .

- أتدري ؟ إن الفكرة تروق لي وسوف أنفذها بأقرب وقت ممكن .

وبعد بضعة أشهر التقيت صدفة بصديقي المكتئب وقد أدهشني ما وجدته فيه من نشـــاط متجدد وفعالية شبابية كان صوته حيويا وروحه المعنوية عالية وقسماته نضرة وابتســـامته مشرقة و بادرني محييا وهو يهتف لقد نفذت نصيحتك الثمينة واعتدت على تكرارها كلمـــا سنحت لي الظروف بل وأكثر من ذلك فقد اهتديت إلى منطقة رائعة في الجبال فاشـــتريت فيها قطعة أرض وأنا اليوم أبني فيها منزلا متواضعا ولكن لـــن يكـــون فيـــه راديـــو ولا تلفزيون ولن أسمع فيه لا رنين هاتف ولا زمجرة الفاكس أو التليكس لـــن أســـمع فيـــه إلا تغريد العصافير والبلابل ونقيق الضفادع في الليل وخرير السواقي والشلالات ولـــن أشـــم فيه إلا رائحة الصنوبر و الدلب المفعمة بالأكسجين وعبير الأزهار الفواحة لقـــد قضيـــت أسبوعا هناك في بيت مؤجر وانتهت كوابيسي الليلية وقاطعت التلفاز ونشـــرات الأخبـــار

الموجعة والشوارع المزدحمة بالناس والغازات السامة وأبواق السيارات وصوت جارتنا المولولة عند كل صغيرة وكبيرة لقد شجعتني تلك الرحلة القصيرة على اكتشاف نفسي والركون إلى تأملاتي فقررت بناء بيت هناك ألجأ إليه كلما ضغطت علي ظروف الحياة.

قلت له: حسنا فعلت ويسعدني جدا أن أراك بهذه الروح الشبابية المتجددة فأجابني متحمسا: يسرني أن أستضيفك هناك عندما ينتهي بناء البيت وستقضي أياما رائعة في أحضان الغابات الطبيعية .

لم أكن في الواقع أجهل ما تعنيه لي الطبيعة بحكم عملي في فرق التنقيب الجيولوجي وكنت أعلم أن سبب اكتئابه عائد لضغوط النشاط التجاري الذي يقوم به يوميا، فهو رجل أعمال ناجح لا يكف عن العمل طالما بقيت عيناه مفتوحتان ،إنه بكل بساطة الطموح البشري لبناء المزيد والمزيد و اللهاث خلف المادة ظنا منه أنها هي الهدف وهي الغاية .

إذن الأمن هو الدافع: أمن الحاضر والمستقبل. وكلما كان افتقار الإنسان للأمن واضحاً وصريحاً كلما كان توتره عالياً ومزعجاً. ولكن الشعور بالقلق هو أمر نسبي , فقد لا تشعر بضعة ملايين من الدولارات إنسانا ما بالأمن لا في الحاضر ولا في المستقبل فتبقى وتيرة قلقه عالية وقد تشعره بضعة آلاف منها بالأمن والاكتفاء إذا توفرت لديه القناعة الكافية بأن ما لديه حاليا هو أفضل بكثير من ما لدى غيره من الناس. إذن فجوهر القضية هو موضوع قناعة أوتطلع وقضية مقارنة بالآخرين وهنا نجد أن مقارنة الذات بالآخر كانت دائماً وأبداً هي مصدر التعاسة والإحباط.

إن هذه الحمى المسعورة في الصراع على المادة والتطلع لمقتنيات الآخر تصيب كل الناس ولكن بدرجات متفاوتة تتفاوت معها درجات القناعة والرضى فهل حررت الحضارة كل ضغوط التوتر من أعصاب الإنسان؟

قبل ظهور الغسالة الكهربائية مثلاً كانت ربات البيوت يغسلن ملابس العائلة في أطباق كبيرة مرفوعة على النار منذ الصباح الباكر وحتى ساعة المغيب، وفي هذا العمل أي تعب وأي إرهاق تجتمع عليه كل نساء العائلة وحتى بعض الجيران وبعد اقتناء الغسالة الكهربائية أختصر وقت الغسيل إلى بضع ساعات في النهار تقوم فيها الغسالة بثلاثة أرباع العمل تاركة الجزء اليسير لربة البيت، وبعد ظهور الغسالة الآلية (الأوتوماتيك) أخذت الآلة على عاتقها كل العمل بما فيه مهمة التجفيف تاركة لسيدة المنزل وقتاً أطول

لممارسة أعمال أخرى من البيت. لا غبار على ذلك أبداً ولكن من يستطيع أن يؤكد لنا بأن دخول الغسالة الكهربائية إلى أحد بيوت الحي لم يكن مؤلماً للجارات التعيسات اللاتي أقمن الدنيا ولم يقعدنها على رؤوس أزواجهن حتى رضخوا للأمر الواقع واشتروا الآلة السحرية لتدليل شريكات المضاجع الهانئة؟ ومن يستطيع أن يؤكد أيضاً بأن الغسالة الكهربائية لم تكن بدون مشاكل ؟ فصيانة الآلة أولاً وخطر الماس الكهربائي ثانيا وحساسية المنظفات الصناعية وغير ذلك من الالتزامات المترتبة على استعمالها، وهذا لايعني أن نرمي بغسالاتنا ونعود للغسيل بالماعون يدوياً، ولكن للتذكير فقط بأن مشاكل الإنسان لا يمكن للحضارة ولا لغيرها أن تزيلها نهائيا، نحن نحاول حل بعض مشاكلنا المعاشة، ولكن ما أن نتوصل إلى حل معضلة ما حتى تبرز لنا مكانها معضلات، ويخيل إلي أن سعادة الإنسان تتعلق بصورة مباشرة بقدرته في الاعتماد على الذات في كل شيء أولا وبالقناعة والرضى ثانيا، ولو أن هذين الأمرين يبدوان في حكم الاستحالة.

إلا أن الاقتصاد في الاعتماد على الآخر قدر الإمكان يساهم فعلاً في تحرير الإنسان من سلبيات التبعية.

وإحباطاتها فأنت مثلاً تحتاج لكل المقتنيات الحضارية لتساير عصرك ولا تكون أقل من غيرك، وبالتالي فأنت تحتاج إذن لجميع فنيي الصيانة لتلك المقتنيات والذين لا يمكن أن يلبوا احتياجاتك أنى شئت ولا تتوفر لك خدماتهم في كل الأوقات، كذلك فان القناعة والرضى لا يتوفران في بيئة اجتماعية فعالة تضع أمامك كل يوم آلاف المقتنيات الحديثة وتضعك في سباق استهلاكي محموم مع باقي أفراد المجتمع، وتصور أنك تعيش في مجتمع زراعي شبه معزول لا يضعك في تماس مباشر مع المقتنيات الحضارية الحديثة ولا في مقارنة حسية مع الآخر الأفضل، إن جزءاً كبيراً من التوتر والإحباط لابد أن يزول، ولهذا السبب نجد أن المجتمعات الشبه منعزلة في الأرياف والبادية تتمتع بقسط كبير من راحة البال والاطمئنان وبنسبة أكبر من المعمرين الأصحاء، ومنذ أن بدأ الإنسان يغشى المجتمعات المزدحمة بالسكان والمدن المكتظة من أجل حياة أكثر دخلاً ورفاهاً بدأ يحتاج الآخر ويعتمد عليه بشكل أكبر، وبالتالي فقد بدأ التنازل التدريجي عن وجوده الحر وعن إرادته الخاصة لحساب إرادة الجماعة والمصلحة العامة والوجه الآخر لهذه المعادلة أن الإنسان تخلى عن أنانيته الذاتية في سبيل مصلحة الكل الذي يقدم له بالمقابل الحماية

والأمن والخدمات العامة، شيء مقابل شيء ولا عشاء مجاني في هذا الكون .

ولكن هل يستطيع الإنسان فعلاً أن يعيش وحيداً في هذا العالم كما عاش سلفه إنسان الكهوف؟ أي أن يعيش بذاته ولذاته؟ طبعا لا، فهو بطبيعته كائن اجتماعي ودود ولكنه أيضا لدود، ودود لإقامة صلات اجتماعية تؤنسه وتخفف عنه مخاوف العزلة والتفرد، ولدود بحكم عدوانيته الفطرية تجاه الآخر الذي يشاركه نفس الموارد والمناهل و يساكنه نفس الأرض. وتتفاوت هذه العدائية الفطرية من شخص إلى آخر ومن جماعة إلى أخرى حسب مفردات قوتها، وتبلغ عند بعض الناس درجة من القوة بحيث يتعذرعليك إقامة أي حوارٍ ودي معهم وإنك لتحس أحياناً وأنت تقابل بعضهم بأنه يتوجب عليك الاعتذار منهم لمجرد تواجدك معهم على سطح الأرض ومشاركتهم هواءها وماءها، ولتلك العدوانية المفرطة بواعث مرضية لا يجهلها علماء علم النفس، إن مجرد التواجد المشترك يثير عند البعض حساسية التنافس بمعنى أنت موجود، إذن أنت منافس محتمل وخصم مستقبلي حتى ولو لم يظهر منك ما يخيف أو يبعث على التوجس. ويتم إسقاط العدوانية الذاتية على الآخر، بمعنى طالما أنا موجود خائف وأخشى من الآخرين وأتمنى إزاحتهم لمزيد من الأمن والاطمئنان إذن يجب أن تكون لديهم نفس المشاعر تجاهي، وبذلك فان فكرة التعايش السلمي تعتبر فكرة مرعبة وخطيرة بالنسبة لهؤلاء والوجود بالنسبة لهم هو وجود قسري مبني على القوة الرادعة على مبدأ إما أنا وإما أنت ولا جسور اتصال أو تفاهم ولاحلول وسطية. وحتى على مستوى المجتمعات والدول فإنّ هذا المنطق قد يفرض نفسه عندما تستشعر بعض الدول في نفسها القوة الكافية فتفسر ببعض الشعارات المبتكرة عدوانيتها المرضية كالأمن الوقائي والضربة الإجهاضية وغيرها من المقولات المعروفة: أنت موجود إذن بجواري فأنت تحتاج مثلي للموارد الطبيعية وإذا ما قلَّتْ تلك الموارد لديك فسوف تحاول اقتناصها مني مع ما يترتب على ذلك من إزاحتي وتهديد أمني فلماذا أنتظر لأن يصل الأمر لهذا الحد ؟

لذلك فأنا أبادر إليك أولا معتمدا على قوتي الذاتية لأحذف وجودك الخطر قبل أن يهدد وجودي وأمني. وهذا مجرد دفاع شرعي عن النفس.

لو أن جميع المجتمعات البشرية اعتمدت على مثل هذا المنطق لما بقيت بقعة على سطح الأرض تنعم بالهدوء والاستقرار، ولكن موازين القوى تتحكم في مثل هذه الرغبات

العدوانية وتحد من إثارة الحروب فما من قوي إلا ويقابله أقوى.

الإنسان البدائي كان مخلوقا سعيدا. إلى أي حد من الدقة تعتبر هذه المقولة صحيحة؟ خاصة وأننا لم نعش أبدا في مجمل ظروفه الحياتية ؟ وكل ما نفعله هو مجموعة من الاستقراءات النظرية التي لا تتيح لنا الممارسة الفعلية لمثل تلك الظروف. لقد عاش بعض البحارة والمستكشفون والمغامرون الأوائل بعض تلك التجارب عندما غرقت سفنهم وجرفتهم التيارات البحرية إلى جزر عذراء لم تطأها قدم إنسان بعد وقضوا فيها مددا تطول أو تقصر وكتبوا بعض تجاربهم القاسية قبل أن يفارقوا الحياة وقد حولت بعض تلك التجارب إلى أعمال سينمائية وتلفزيونية، وقد كانت تلك التجارب القاسية بحق أنماطا مريرة من صراع البقاء لا يمكن لإنسان متحضر أن يتحملها فكيف يمكننا أن نتصور بأن الإنسان البدائي كان مخلوقا سعيداً ؟ ولكن هل يحق لنا مقارنة إنسان ولد ونشأ أساسا في مثل تلك الظروف بآخر عاش في ظروف حضارية مختلفة، ثم نقلته أحداث معينة قاهرة إلى بيئة بدائية مختلفة وأجبرته على العيش فيها ؟ لا، لا يحق لنا ولن تكون المقارنة عادلة ولا الاستقراء منصفاً، الإنسان البدائي لم يكن في يوم ما متحضراً، ثم أقحم في ظروف بدائية ، لم يكن يستعمل السيارة والتلفاز والغسالة الكهربائية والأدوية الطبية ثم حرم منها ، كان قد ولد وعاش وترعرع في تلك البيئة المحرومة من كل شيئ إلا ما تجود به الطبيعة وكيَّفَ نفسه أو كيفته ظروفه على هذا الأساس، ولذلك فانه لم يكن ليلاقي العناء الذي يصادفه إنساننا المعاصر الذي أقحمته ظروف معينة في بيئة بدائية معادية، ومن هذا المنطلق يجب أن نستقرئ فيما إذا كان الإنسان البدائي أكثر سعادة منا أم لا ؟، وإذا حصرنا مفهوم السعادة في تحقيق الرغبات الفطرية وإزالة الحرمان فلا أعتقد أنه كان مخلوقا تعيسا أبدا، كان إذا أحس بالجوع سارع إلى الصيد، وإذا أحس بالرغبة الجنسية سارع إلى امتلاك أول أنثى يصادفها، وإذا شعر بالميل لامتلاك شئ من ممتلكات غيره واستشعر بنفسه القوة على تحقيق ذلك فلم يكن يتردد في قتله واغتنام متاعه، ورغم أن تحقيق تلك الرغبات كان يتطلب منه جهداً كبيراً قد يدفع حياته ثمنا له، لكنه كان مؤهلا لخوض مثل المعارك حيث زودته الطبيعة ببنية عضلية جاهزة، فشريعة الغاب تحترم القوة وتمجدها وبدون تلك القوة لا يمكن لأي غريزة أساسية أن تتحقق .

لقد أثْرت الحضارة حياتنا وواقعنا بكثير من الوسائل البديلة لتحقيق الغايات إما عن

طريق التصعيد الحضاري وإما عن طريق التحقيق الجزئي غير المباشر، ولم يعد هاجس القوة العضلية هو المعيار الوحيد في الوصول إلى الأهداف المرجوة فاستبدلت القوة بالذكاء والمال والسطوة الحزبية أو القبلية وتكتل الأفراد لتحقيق غاية مشتركة .

وعندما أدرك الإنسان البدائي حاجته الماسة للآخر بدأت المجتمعات البشرية تتشكل في محاولة للتآزر ضد عدو مشترك، أو لتحقيق مصلحة مشتركة أو للتكامل النفعي بين الأفراد مع ظهور فكرة التخصصات الذي كان معاصرا لظهور البوادر الأولى للمجتمعات الزراعية وإحلالها محل عائلات الصيد وجمع الثمار، ولكن الجماعة التي ستؤمن للفرد الواحد الحماية والطعام كانت تجبره في نفس الوقت على التنازل الطوعي عن بعض غرائزه الفردية لصالح المجموع، وفي تلك المرحلة الخاصة من تطور المجتمعات البدائية بدأت براعم الأنظمة الاجتماعية بالظهور في سبيل تنظيم الحقوق والواجبات وتحقيق العدالة للجميع. من هنا أخذت الشرائع والقوانين الحضارية سمة الرادع البغيض والكف الإجباري لبعض الغرائز الأولية ومن هنا أيضا بدأت بوادر الصراع النفسي بين ماله وما عليه بين الرغبة المحرمة وحق الجماعة الذي يولد ضروب الحصر والإحباط وأصناف الألم والتوتر .

ونعود لسؤالنا الأول هل كان الإنسان البدائي سعيدا لنضعه في صيغة أخرى : هل كان الإنسان البدائي أكثر سعادة منا ؟

يحتمل أنه كان كذلك ولكن سعادته المرتبطة بأعلى درجة من الحرية الفردية لم يكن سببها تحرره من وطأة القوانين الاجتماعية الوضعية أو التحرر من عبء الحضارة والالتزامات وتعدد المقتنيات الحضارية بقدر ما كان مرتبطا بانسجامه مع ذاته من ناحية وانسجامه مع الطبيعة من طرف آخر، لم يكن يتوجب عليه الدخول في صراع نفسي بين ما يريده هو وما يفرضه عليه الآخرون، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار أن الأرض كانت أوسع من أن تضيق بسكانها والموارد الطبيعية كانت أكثر سخاء من حاجاته المتواضعة.

وكانت كلما تكاثرت المجتمعات البشرية وضاقت الأرض والموارد على أصحابها هاجرت فئة من تلك المجتمعات – وغالبا ما تكون الفئة الأضعف – إلى أراضٍ جديدة تفاديا لصراعات شرسة لا يمكن التنبؤ بنتائجها وحجم خسائرها ؛ وقد ظلت مثل تلك الهجرات قائمة حتى إلى عهد قريب كالهجرة الأوربية المعاصرة إلى كل من قارتي أمريكا

وأستراليا واستيطان أعداد هائلة منهم في كل من جنوب أفريقيا ونيوزيلندة. وعندما بدأت موارد الصيد وثمار الأشجار البكر بالنضوب فكر الإنسان باستصلاح الأرض وزراعتها وتدجين الحيوانات وتربيتها للاستعاضة عن المتناقص منها مع انتقال تدريجي من الملكية الجماعية (كالصيد المشاع والمراعي العامة) إلى الملكية الخاصة في الأرض وقطعان الماشية. وقد أضافت تلك النقلة الهامة في الملكية أعباء جمة على كاهل الإنسان من متطلبات العناية الزراعية والرعوية ومهمات الأمن بما في ذلك أنواع الحصر وضروب القلق والتوتر.

وكانت كلما شحت موارد الأرض وازداد عدد سكان العالم اشتد الصراع في سبيل البقاء، وأصبح أكثر ضراوة وعنفا مع ما يلازم ذلك من حروب وهموم حتى أصبح القلق اليومي والهواجس الدائمة هي السمة الطبيعية التي تلازم إنسان هذا العصر منذ ولادته وحتى انتهاء رحلة حياته.

عندما كان الإنسان وحيداً في البرية كان الموضوع الجنسي (أي المرأة) غير ملازم له بالضرورة فهو موضوع عرضي قد يقع بالصدفة المحضة، ويذهب بعد ذلك كل طرف في اتجاه مغاير للطرف الآخر، كما يحصل حاليا في بعض أجناس الحيوانات البرية المتوحشة ، إلا أن الأنثى البشرية سرعان ما أدركت بحكم بنيتها الفيزيولوجية الضعيفة أنها عاجزة عن مواجهة مثل هذه الحياة القاسية بعيداً عن الرجل، وأنها بحاجة لذكر قوي يحميها من أخطار الغابة وحيواناتها المفترسة، ولا يجب أن يبعث هذا في نفوس الرجال نزعات الزهو والاستعلاء لأن الذكر أيضا كان أكثر حاجة للأنثى من حاجتها إليه، إذ إنّ اقتصار الموضوع الجنسي على الفرص العرضية لم يكن يروقه تماماً، وإن استحواذ هذا الموضوع بصفة دائمة كان أدعى إلى الاطمئنان خاصة وأن الأطفال المشتركين والمحتاجين دائما للرعاية الأبوية والحماية الدائمة كان يشجعه على التعايش المشترك مع الأنثى رغم ما كان يلزمه مثل هذا التعايش من مسؤوليات عائلية وهموم إضافية. ونحن نرى اليوم كثيرا من أجناس الحيوانات على درجات متفاوتة من الحياة الاجتماعية كالذئاب والأسود والقردة وقطعان البقر والأيائل الوحشية. إلا أن انفراد الإنسان بسكن خاص مستقل وتأسيس العائلة كأصغر وحدة اجتماعية ساهم بصورة فعالة في بناء المجتمعات الزراعية التي توطنت ضفاف الأنهار وحول بحيرات المياه .

كانت مهمة الصيد وحماية البيت والصغار تقع على عاتق الرجل، وإعداد الطعام والعناية

بالأطفال بالإضافة إلى جمع الأحطاب والإبقاء على شعلة النار تقـــع علـــى عـــاتق الأنثـــى ، وعندما تكون فريسة الصيد كبيرة الحجم والـــوزن كثـــور البيســـون الأمريكـــي أوالجـــاموس الأفريقي فإن عدداً من الرجال كان ضرورياً للإطباق على الفريســـة. وعنـــد هـــذه الحاجـــة الحيوية بدأ الإنسان بالتطلع نحو إقامة صلات وعلاقات اجتماعية أوسع مع العائلات المجـــاورة في سبيل صيد أوفر للجميع، مما أدى إلى فرض أعراف خاصة تحقق الحد الأدنى من العدالـــة في توزيع الطرائد، وعند هذه المرحلة الهامة من التعـــاون الاجتمـــاعي بـــدأ الإنســـان فعـــلا بالاعتماد على الغير في كسب لقمة العيش ،ومن هنا أيضا بـــدأ مسلســـل المتـــاعب والـــهموم فالإنسان المستقل يوجه فعالياته الخاصة بناء على حاجاته الفردية المستقلة ومن خـــلال إرادتـــه الذاتية لايعتمد في ذلك على الآخر ولا يحسب له أي حساب، وبالتالي فقد كانت هموـمـــه ذاتيـــة بحتة يعرف مسبقا حجمها ويقدر ثقلها، أما وقد وضع جزءا من تحقيق حاجاته على الآخر فقـــد وضع أيضا جزءاً من سعادته تحت رحمة هذا الآخر. إن تنازلا تدريجيا غير مباشر عن جـــزء من الحرية الشخصية وكبت بعض الغرائز الفطرية مع ما يلازم ذلك من ضـــرورات الممالقـــة والنفاق بدأ يأخذ مكانه في حياة الإنسان، ولا نستطيع إنكار أن مثل تلك الآليات السلوكية يمكـــن أن تضيف للإنسان مزيداً من الصراع الداخلي بين ما يريده هو وبين ما يريده منه الآخـــرون . فالآخر هنا بالإضافة إلى كونه مساعدًا جيداً ومعيناً قوياً على الصيد الأوفـــر فـــهو فـــي نفـــس الوقت منافس غامض وخصم متوقع بسبب تواجده المستمر حصرًا وقلقـــاً دائمـــاً خاصـــةً وأن قوته البدنية التي تستثمر في الصيد يمكن أن تنقلب في الاتجاه المضاد إذا قلت المـــوارد أوشـــح الصيد.

وعندما تبرعمت أوائل المستعمرات البشرية حول الموارد المائية المتاحة كـــان لابـــد مـــن إقامة أولى المعايير المعترف بها كشرائع تنظيمية أولية تخدم توزيع حصص الطرائـــد وتنظيـــم الحقوق والواجبات.

ورغم أن كلمة (عدالة) لم تكن تعني شيئاً في ذلك الوقت لأن تعسف زعيم المجموعة وهـــو غالبا الرجل الأقوى فيها كان يفرغ تلك الكلمة من مضمونها، إلا أن الوضع حينئذ كان مقبـــولاً طالما يضمن الحد الأدنى من الحماية والأمن والغذاء ولو على حساب التنازل الجزئي والقسري عن بعض الغذاء وبعض الحرية. أما النساء فقد كن يقمن بالعناية بالصغار وإبقاء النار مشـــتعلة أمام أبواب الكهوف بالإضافة إلى مهمتهن الأساسية في الإنجاب والعناية بالمنزل.

وهكذا نرى أن المعاناة الأولى للإنسان بدأت عندما فكر الرجل في امتلاك الموضوع الجنسي ضمن إطار العائلة وذلك بدافع من الحب والأبوة وغريزة التملك. في البداية كان الإنسان مسؤولا عن نفسه فقط. وآنذاك كان يكفيه صيدُ متواضع (أرنب أوطير أوحتى غزال صغير) يأكل إن جاد الصيد ويجوع إن شح، ولكن عندما أصبح مسؤولا عن عائلة تتراوح بين شخصين وعشرة أشخاص كان لابد من تأمين صيد أوفر عدداً وأكبر حجماً، وقد ترتب على هذه المسألة المستجدة الحاجة الماسة لـذراع الآخر وتوزيع الطرائد والخضوع للرجل الأقوى، فهل كان الحب والمرأة بشكل عام هما الباعثان الرئيسيان على وجود وتنامي المجتمعات والحاجة الماسة للشرائع وبالتالي السببان الأساسيان في شقاء الإنسان ؟

إن الالتزامات الحضارية التي تخضع أي إنسان في أي مجتمع في سبيل التمتع بالخدمات الاجتماعية تفرض عليه بالضرورة القيود التالية :

١- الالتزام بالعمل الفردي والجماعي ودفع جزء من عائدات عمله لصالح المجتمع حتى يحصل بالمقابل على الحماية والأمن وخدمات الانتماء للمجموعة.

٢ - الانصياع الكامل لقوانين المنع والتحريم التي تضمن للآخرين الوقاية من عدوانيته الفردية ورغباته اللاسوية.

٣ - أن يقيم علاقات مودة مع باقي أفراد المجتمع ــ حتى وإن كانت غير صادقة ــ ليحظى هو وأسرته بمشاعر مماثلة من الآخرين وحتى لا يتعرض للنبذ الاجتماعي.

وهنا بدأ الإنسان يتعلم التزلف والنفاق مع ما يرافق تلك الآليات من صراع نفسي بين ما يشعر به الإنسان وبين ما يتوجب عليه الظهور به من مشاعر كاذبة (أي لعبة الأقنعة)، وحيث إن طاقة الإنسان النفسية والوجدانية محدودة فهو لن يستطيع القيام بتلك الالتزامات إلا إذا كانت على حساب طاقته الوجدانية المخصصة لعائلته وأفراد أسرته، وعندما تتحقق الزوجة من أنها وأولادها قد أبعدت إلى المرتبة الثانية من دائرة اهتمام الرجل وذلك بتحويل جزء كبير من طاقته إلى الوسط الخارجي (العمل، الأصدقاء، المبادرات الاجتماعية،) فإنها ستحاول استقطاب الزوج بشتى الوسائل المتاحة لها، وإعاقة الارتباط اللامشروط بالمجتمع، وذلك بتأكيدها على وحدة الأسرة وخصوصيتها واستقلالها ــ أي العودة للوراء من التجمع الأكبر إلى التجمع الأصغر وفي هذا السلوك عرقلة

لامقصودة للمسيرة الحضارية التي كانت ــ أي المرأة ــ هي ذاتها أحد أسباب نشوئها. وكثيرا ما نسمع تذمر بعض الزوجات من انغماس الزوج خارج البيت في مشاكل العمل والأصدقاء وانصرافه عن مواضيع بيته وأولاده، وكثيرا ما نسمع الزوج المنهك يقول بسأم شديد: ألا يصب هذا في النهاية في مصلحتكم، ولأجل من أعمل إن لم يكن لأجل عائلتي ؟

إذن فالمطلوب بالتالي هو توازن حكيم في صرف الطاقة بين العائلة والمجتمع، ولكن المرأة تدرك بحدسها الخاص بين الحين والحين أن إجازة عائلية قصيرة لمنطقة نائية خالية من قنوات الارتباط والاتصال كالهاتف والفاكس والتلفاز يمكن أن تعيد إليها زوجها وأولادها وتقوي أواصر الصداقة وروابط المحبة بينهم، هذا العزل المؤقت للعائلة بانسلاخها عن المجتمع يدل دلالة قاطعة على التعارض اللامنظور بين مفهوم العائلة ومفهوم المجتمع. فهذا الأخير يريد دمج العائلة في بنيته دمجا انصهارياً، بينما تتطلب مصالح الأسرة أن تكون لها خصوصية مميزة تدعم روابط أفرادها وتقوي تبادل المنافع العائلية وذلك بحذف الطاقة المبذولة منهم تجاه المجتمع وتحويلها إلى داخل الأسرة .

إن المجتمع يطالب الأسرة بأن تزوده بالفرد العامل المنتج و الأخلاقي في نفس الوقت مقابل التمتع بمزايا الانتماء والمواطنة وعدالة القانون والحماية والخدمات العامة الصحية والتعليمية، أما الأسرة فإنها تطالب المجتمع بتلك المزايا مقابل جزء من جهود أفرادها العاملين ولكن ليس على حساب علاقاتها الداخلية، هذا التعارض اللامرئي بين الأسرة والمجتمع تتفاوت حدته من أسرة لأخرى ومن مجتمع لآخر، ففي الأسر القروية والأسر الحرفية التي يعمل أفرادها بصورة عامة بالمهن المتوارثة تتضافر الروابط الأسرية مع الروابط الاقتصادية والمهنية لتدعم التلاحم الأسري تحت مظلة علاقات عائلية متميزة، بينما تضعف هذه العلاقات في الأسر المتنوعة المهن والأسر المتوطنة في المدن الكبرى حيث تستولي شبكة العلاقات الاجتماعية العامة بفعل المصالح الاقتصادية على جزء من الولاء الأسري لصالح الولاء الفردي للذات، والارتباط المنفعي بالوحدات الاجتماعية الأكبر من الأسرة كالنقابة والشركة والحزب والمؤسسة، ويلاحظ في بعض الدول المتقدمة ذات المدن الضخمة أن الروابط الأسرية قد اضمحلت للحد الأدنى بحيث أصبح الولاء الأول للمجتمع بينما تراجع الولاء الأسري للمرتبة الثانية، وفي المجتمع الشيوعي مثلا

والذي يعتبر أن الأسرة هي خلية صغيرة في جسد المجتمع الكبير، يعتقد أن وظيفتها يجب أن لا تتجاوز حدود إنتاج الأفراد العاملين لصالح المجتمع، وأن ولاء جميع الأفراد يجب أن يصب في بوتقة العائلة الكبيرة التي تدعى بالمجتمع الاشتراكي، هذا التقزيم المتعمد لدور العائلة كان يهدف لتعزيز الولاء للدولة الشيوعية بدعوى أنه لا يجوز توزيع الولاء وإفساد مفهوم المجتمع الاشتراكي لصالح الأنانية الفردية والعائلية. أما في المجتمع البدوي والزراعي فإن الروابط الأسرية الحميمة تلعب دوراً رئيسياً في تماسك المجتمع وحماية الفرد والحفاظ على مصالحه، لذلك فإننا نلاحظ أن الأفراد المنتمين إلى عائلات كبيرة وذات روابط أسرية قوية يجدون صعوبات كبيرة في الانتماء إلى المؤسسات الاجتماعية الأكبر كالتعاونيات والأحزاب والنوادي الثقافية والرياضية نظراً لأن معظم طاقاتهم الجسمية والنفسية، ومعظم أوقاتهم تكون موجهة إلى داخل الأسرة على شكل التزامات عائلية، وبالتالي فليس لديهم أية طاقات إضافية لتغذية أية علاقات خارجية.

وإذا عدنا إلى مفهوم السعادة القائل بأهمية تجنب الألم وخفض التوتر فإننا نلاحظ أن الإنسان وهو يحاول استكمال سعادته بامتلاك الموضوع الجنسي كان قد افترى على نفسه بتحمل توترات إضافية جديدة ومعاناة زائدة لم تكن لتعادل بأي حال من الأحوال كمية السعادة التي حصل عليها من تأسيس العائلة. إن الحياة التي كان يحياها وحيدا في مجاهل البرية معتمدا على ملكاته الفردية وقدراته الخاصة المتواضعة وبرغم جميع سلبياتها كانت أسعد حالا وأقل ألما طالما أنها لم تكن مشروطة بتواجد الآخر والاعتماد على الغير، كانت للذات وبالذات. ولكن هل كان يمكن تغيير صيرورة الإنسان؟ بالطبع لا! ولو أن هذه العودة يمكن أن تتم بصورة مؤقتة ولفترات متقطعة قصيرة على شكل إجازات استجمامية ورحلات ترفيهية.

في بداية عملي كجيولوجي حقل عام ١٩٦٥ لم أكن أطرب كثيراً لفراق المدينة والحياة الاجتماعية النشطة التي تؤمنها والعيش لمدد تطول أو تقصر في معسكرات العمل التنقيبي في أماكن نائية وهادئة هدوء الموت، ولكنني أدركت فيما بعد قيمة هذا العمل الرائع والخلوة السعيدة مع الجبال والوديان ومخلوقات البرية الحرة، ورغم أني لم أكن أعيش كما عاش أسلافنا الأوائل بدون أية تسهيلات حضارية إذ كنت أستفيد من السيارة وجهاز اللاسلكي والحفارة والمقطورة التي كنت أسكنها. إلا أن تواجدي المتواصل في

حضن الطبيعة كان يشعرني بأني سيد نفسي، كان يسعدني مثلا الاستراحة في غار جبلي مدسوس في تلافيف الوديان، ويبهجني الشرب منبطحاً من نبع ماء رائق وبارد أو اللجوء إلى ظل شجرة كبيرة في ظهيرة يوم قائظ. كانت الأرض التي أتعامل معها تمثل لي حضنا دافئا يحاكي حضن الأم، وطالما تأملت كثيرا في هذا الموضوع اللغز محاولا إيجاد تفسير مقنع لتلك السعادة الغامرة التي تستولي على الإنسان عندما يتواجد في حضن الطبيعة فيتصرف كالطفل الصغير الذي يتدلع أمام والدته فهل تكون تلك السعادة نابعة من الرغبة اللاشعورية للإنسان بالعودة إلى رحم الأم (الأنماط الأولية للإنسان- كارل يونغ) أم أن هناك ذاكرة إنسانية واحدة موجودة في كل منا تحن إلى الماضي السحيق والبيت القديم الذي سكنه أسلافنا القدامى في المغاور والعراء؟؟

٢ ـ إنجازات الحضارة الإنسانية

منذ أن اكتشف الإنسان البدائي النار ونجح في إبقائها مشتعلة على مدخل كهفه المتواضع، وحتى وطئت أقدامنا نحن أحفاده المشاغبين سطح القمر وحطت معداتنا وأجهزتنا العلمية على سطح المريخ ونحن لا نكل ولا نمل من البحث عن الجديد الذي يساعدنا على حياة أكثر يسراً ورغداً، وأقل توترا وألما مثلنا في ذلك مثل الظامئ في الصحراء كلما ارتوى من ماء أجاج (أي مالح) كلما ازداد عطشا ، وكأن مطالبنا الحياتية أصبحت بلا نهاية .

ولا نستطيع الادعاء مهما بلغ بنا التشاؤم أن ندعي بأن هذا الزخم الحضاري من الإنجازات الرائعة كان بدون فائدة أو بلا جدوى، فالنمو السكاني المطرد بتسارع هندسي مع محدودية الموارد الأرضية المتاحة يفرض على الإنسان في كل لحظة السعي الحثيث لزيادة أبحاثه العلمية في سبيل إيجاد حلول مرضية للمعادلة الصعبة بين النمو السكاني المرعب والموارد المحدودة. ولن أحصي في هذا الكتاب المتواضع كمية المقتنيات الحضارية المنجزة منذ الألف العاشر قبل الميلاد وحتى الآن، إذ إن معظمنا يعرفها ويعيش فيها ويستفيد منها، إما بصورة مباشرة أوغير مباشرة، ولكنني سأتعرض لبعضها ضمن مجموعتين رئيسيتين تمليهما طبيعة كل منهما :

أولهما الإنجازات المادية والتي تشمل جميع المخترعات المادية والوسائل التقنية التي

ساعدت الإنسان على تنمية قدراته العضوية المحدودة ، وثانيهما الإنجازات الفكرية والتي تتضمن جميع الأنظمة والقوانين الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية والشرائع التي ساعدت على تنظيم البشرية وتوسيع مداركها بما في ذلك تلك الكنوز الهائلة من الأدب والفن والجمال ، وسوف نتأمل في نفس الوقت بإيجابيات تلك المنجزات وسلبياتها .

٢-١: إنجازات الحضارة المادية :

منذ اكتشاف النار والعجلة وحتى مركبات الفضاء التي تجوب أطراف الفضاء وتحوم حول الكواكب لم يزل الإنسان متشوقا للمطلق لا يكل ولا يمل، وهو يحسن أساليب حياته ويقوي من قدراته من خلال ابتكاراته المتطورة واختراعاته المدهشة التي ساعدته على صناعة المزيد من المبتكرات والأجهزة والوسائل الآلية فالروافع الآلية، مثلا عززت قوة الإنسان العضلية بحيث ساعدته على بناء ناطحات سكنية أعلى من أهرامات الفراعنة بوقت قياسي لا يقارن بالمدة الزمنية التي استغرقها بناء الأهرامات، والمجهر المكبر والمنظار المقرب عزز إمكانياته البصرية، وجعل مجال رؤيته يتوسع من أبعاد الذرة وحتى أبعاد الكواكب والنجوم التي تبعد عنا بملايين السنين الضوئية؛ أما وسائل المواصلات والاتصالات فقد وسعت مجال انتقاله في المكان على حساب الزمن واختصرت المسافات وقربت بين الناس بحيث أصبح العالم كله أصغر من قرية صغيرة أوعائلة واحدة في العصور التاريخية الماضية. وقد انعكست تلك الإنجازات الحضارية على تسارع إيقاع التقدم التقني نظرا لاستخدام تلك المبتكرات في مجالات العلوم الأخرى مما ساعد على تسريع المبتكرات الجديدة في كل مجالات النشاط البشري، وهذا يعني من الناحية العملية تحول الإنسان من مخلوق محدود القدرات إلى مخلوق عملاق لا حدود لإمكانياته الجبارة. ولو قدر لأسلافنا الأوائل أن يعودوا إلى الحياة في عصرنا الراهن ويطّلعوا على منجزاتنا الحضارية لأصيبوا بالدوار والدهشة، ولشعروا بالغيرة والحسد من كثرة النعم التي نتمتع بها، ولكن لو سمح لهم بالعيش معنا لمدة بضعة أشهر في مثل هذا الزخم الحضاري، وعانوا من سلبيات هذه الحضارة لعافوا حياتهم معنا، وتمنوا أن يعودوا إلى قبورهم قانعين بالحياة البسيطة التي عاشوها في عصورهم السابقة .

ولا ننكر أبدا أن جميع تلك الإنجازات المدهشة قد ارتكزت على قاعدة صلبة من العلوم الصحيحة التي نفضت عنها رواسب السحر والشعوذة والغيبيات الخيالية، واستندت

إلى العقل والمنطق والتجربة والبرهان ومبدأ الشك الذي يسبق اليقين دون انطباعات أو أفكار مسبقة فما هي تلك المنجزات؟ وما هي سلبياتها ؟

آ- في حقل الطب والصيدلة :

قطعت الأبحاث الطبية والصيدلانية أشواطاً هائلةً لا يمكن تجاهلها بعد أن كان الإنسان يلجأ إلى أساليب السحر والشعوذة واستعمال بعض الأعشاب الطبية والكي بالنار وغيرها من أساليب الكهنة العاجزين حتى عن مداواة أنفسهم، وصار بإمكان المريض أن يعتمد على الأدوية المأمونة المجربة والعمليات الجراحية ذات التقنية العالية، ولا نستطيع أن ننكر أن علوم الطب والصيدلة خفضت بشكل ملحوظ نسبة الوفيات مع ارتفاع نسبي في نسبة العمر الوسطي للإنسان، كما تم القضاء نهائيا على بعض جراثيم الأمراض المعدية كالجدري وإيجاد أدوية فعالة لبعض الأمراض المستعصية كشلل الأطفال والسل وبعض الحميات التي كانت تفتك بالبشرية فتكاً موجعاً ولكن هل استطاع الطب مثلاً أن يمنع ظهور أمراض جديدة أشد فتكاً وضراوةً كالسرطان والإيدز وفيروس إيبولا وجنون البقر؟

ولن نكون كالنعامة التي تدفن رأسها في الرمال ونتجاهل ما فعله علم الطب والصيدلة، ونركز الضوء على ما لم يفعله، صحيح أنه ساهم كثيراً في رفع المعاناة عن البشرية المعذبة ولكن هل كان ذلك بدون ثمن ؟

ألم تنطلق بعض الفيروسات الجديدة وأمراض التلوث البيئي من نوافذ المختبرات ومعامل الأدوية واللقاحات ؟ صحيح أن العالم الفرنسي جوز يف باستور كان قد أدى مشكورا خدمات جليلة للطب الجرثومي، لكنه ساهم أيضا بصورة غير مباشرة في إعاقة المناعة الطبيعية للجسم البشري، إضافة إلى أنه يعتبر مسؤولا بشكل غير مباشر عن نشوء الأسلحة الجرثومية والحروب البيولوجية ، وصحيح أيضا أن باستور لم يكن يقصد سوءا بالبشرية، ولم يخترع الجراثيم ولم يجلبها من بيت أبيه فهي موجودة أصلا منذ نشوء الحياة، إلا أن الأبحاث التي قام بها بهدف إيجاد اللقاحات الواقية لخدمة البشرية كانت قد فتحت الباب ومهدت الطريق لأبحاث جرثومية أخرى استخدمت بطريقة سيئة في إنزال العقاب في الإنسانية بواسطة أسلحة الدمار الشامل البيولوجية، مثله في ذلك مثل العالم النرويجي الفريد نوبل الذي اخترع مادة الديناميتTNT ليساعد عمال المناجم والمقالع

على تفتيت الجبال، إلا أن الآخرين أساءوا استخدام اكتشافه واستعملوا مادته في صناعة القنابل الحربية لقتل الناس. إن الآثار الجانبية لأي مركب دوائي تتفاوت في شدة تأثيرها على العضوية البشرية وتختلف من فرد إلى آخر حسب مقاومته لتلك الآثار، ولكنها لاتنفي وجود خطر محتمل بتهديد أنسجة الجسم البشري وإصابة بعض أنسجته بالتلف، وكم قتل البنسيلين أناسا كانوا يحتاجونه ولكن أجسامهم لديها حساسية مفرطة تجاهه.

ب- في حقل المواصلات:

بدأ الإنسان الأول يفكر في طرق عملية تساعده في نقل متاعه وحاجاته بأقل جهد ووقت ممكن، وكان يعتمد في بداية الأمر على قوته العضلية في حمل أوجر متاعه على الأرض كلما فكر بالانتقال من كهف إلى آخرأوسحب طرائده وقوت عياله، واكتشف فيما بعد أن بضع عيدان مشذبة من أغصان الشجر يمكن أن تشكل محفة ناقلة فيما إذا ربطت بألياف الشجر بصورة متعامدة ربطا جيدا لتحمل عدة أشياء متفرقة بوقت واحد إذا ما سحبت على الأرض، كما لاحظ أن قوة الجر تصبح في حالتها الدنيا إذا تم السحب على أرض ذات حصى مكورة أوشبه مكورة، وتوصل أخيراً إلى وضع عدد من جذوع الأشجار الأسطوانية تحت ناقلته البدائية بالتناوب حتى يسهل انزلاقها على الأرض الوعرة، وكانت هذه الفكرة مقدمة منطقية لاكتشاف العجلة والتي تعتبر بنظر المؤرخين نقطة مفصلية مؤثرة في تاريخ الحضارة على الإطلاق، لأنها كانت بداية التوصل إلى فكرة العربة. كانت العربة في بادئ الأمر بسيطة سهلة الصنع ومؤلفة من العيدان والألياف، وكان كل إنسان يصنع عربته الخاصة بنفسه بالوسائل المتاحة له ، وكانت تستعمل بصورة رئيسية لنقل طرائد الصيد والمتاع بواسطة الجر المباشر من قبل الإنسان، ثم تطور الأمر بعد ذلك عندما روضت الحيوانات البرية واستؤنست فوفرت الجهد البشري لمهمات أخرى، وأخذت على عاتقها أعباء النقل والجر والحرب حتى إلى عهد قريب من القرن الثامن عشر حيث استبدلت بالقاطرة البخارية والعربات البترولية. وفعلا لم يخطئ المؤرخون عندما اعتبروا أن اكتشاف العجلة كان حدثا هاما في تاريخ الحضارة لأن هذا الاكتشاف أتاح للإنسان اختصارالمكان والزمان جاعلا من العالم كله قرية صغيرة واحدة، كما ساهم بصورة عملية انتقال الحضارات وتنشيط التجارة، وإذا أضفنا إلى سهولة الانتقال العيني بواسطة العربة سهولة الاتصال الفكري بواسطة الهواتف

والفاكس والمحطات والأقمار الفضائية تبينا كم كان التقدم هائلا في حقل المواصلات منذ الخطوة الأولى للإنسان وحتى الآن ، ولكن هل مرت هذه النقلة الحضارية على الإنسان بدون ثمن؟؟

إن أفضل وسائل المواصلات حاليا من سيارات وطائرات وقطارات وسفن إضافة إلى كونها أدوات نقل مريحة يمكن أن تتحول إلى أدوات قتل جماعية إذا ما أسيء استعمالها، تشهد على ذلك سجلات الحوادث المؤسفة في مختلف بلاد العالم، ناهيك عن الأضرار الناجمة عن حرق كميات متزايدة من الوقود في محركات تلك الوسائل الناقلة والتي تنشر آلاف الأطنان من الغازات الضارة بالبيئة وزيوت التبريد وشحوم تسهيل الحركة، وقد سمعت عدة تعليقات ساخرة من بعض الناس عن تشاؤم علماء البيئة وسوداويتهم حيث يقال عنهم وخاصة من قبل رجال الصناعة بأنهم يجعلون من الحبة قبة ويولولون نادبين حتى يلفتوا الأنظار إليهم ليس أكثر. فالأرض بنظرهم قادرة على هضم وتبديد أية نسبة من التلوث بواسطة التفاعلات الكيميائية التلقائية التي تعمل آليا على إزالة أي شواذ كيميائية بمجرد ظهورها وإعادة التوازن الكيميائي إلى وضعه الطبيعي، ولانستطيع أن ننكر وجود مثل هذه الآليات الضابطة على سطح كوكبنا الجميل، ولكن عندما تبلغ سرعة إنتاج الملوثات نسبة تفوق سرعة التبدد والتلاشي وهضم تلك الملوثات فإن الموضوع عندئذ يجب أن يؤخذ على محمل الجد، ولن يكون آنذاك نوعا من السوداوية أوالتشاؤم. ويمكننا أن نسوق على سبيل المثال بعض الحوادث المؤسفة للتلوث البيئي والتي لا يمكننا تجاهلها، فملايين الأسماك الميتة التي تقذفها أمواج البحار كل يوم على شواطئ العالم والتي أثبتت التحاليل والدراسات التي أجريت عليها بأن أجهزتها الهضمية حاوية على نسبة عالية من زيوت السفن والمواد البترولية المتسربة من ناقلات النفط لايمكن اعتبارها كظواهر عرضية حصلت بالصدفة وانقراض عدد من الأنواع الحيوانية البرية، أوإشراف بعضها على الانقراض، لا يمكن أن يكون عرضيا وتزايد الإصابة بالأمراض السرطانية وظهور أعداد متزايدة من الأجنة المشوهة والمسوخ المنغولية يبعث على التساؤل والريبة خاصة وأنه يتزايد طرديا مع تزايد نسبة التلوث، ويكفي أن نذكر أن كميات غاز ثاني أكسيد الكربون الناجمة عن الاستهلاك المتزايد للمحروقات قد بلغت عام ١٩٨٩، ٥،٥ بليون طن بمعدل تركيز وسطي يساوي إلى ٣٨٠

جزء بالمليون في الجو، ولإثبات خطورة الموضوع يكفي أن نشير إلى أن هذه النسبة كانت ٢٨٠ ج/م عام ١٨٦٠، و٢٩٠ ج/م عام ١٨٨٠ و ٣٢٠ ج/م عام ١٩٠٠ و ٣٤٠ ج/م عام ١٩٨٤ ومن المتوقع أن تصل في عام ٢٠٢٠ إلى ٦٨٠ ج/م (ص ١٣٦٥ـــ أ من الموسوعة العلمية الفرنسية quid) .

وحتى نتوغل بصورة جدية في لب المشكلة يكفي أن نتصور أن في العالم اليوم أكثر من ٢٥٠ مليون سيارة (وهذه ليست إحصائية رسمية بقدر ما هي حسابية تجميعية واستقرائية) تقطع وسطيا /١٠٠ /كيلومتر يوميا لتحرق ٣٠ــ٤٠ لترا من البنزين والمازوت لتنفث عوادمها الغازية كميات مرعبة من ثاني وأول أكسيد الكربون وثاني أكسيد الآزوت والكبريت وهباب الفحم والرصاص والغبار. وتشكل هذه العمليات سحبا رمادية ثقيلة فوق المدن والعواصم المكتظة يمكن ملاحظتها بالعين المجردة يوميا من الأماكن المرتفعة، وتعجز قوى التبدد الغازية عن إزالتها بنفس سرعة تشكلها، وبالتالي فهي تمارس دور الأسقف الزجاجية في المحميات الزراعية بأن تمنع الانعكاس الحراري الشمسي وتبدد حرارة المدينة نحو الفضاء وهذا يعني تزايدا ملحوظا في حرارة جو المدن بواقع ٤ــ٥ درجات مئوية على أقل تقدير ويمكنك أن تلمس ذلك بنفسك إذا جربت الخروج بسيارتك من داخل المدينة نحو أطرافها.

إن الغابات الطبيعية والبساتين المحيطة ببعض المدن يمكن أن تشكل مصفاة طبيعية لمثل هذا التلوث المتسارع، خاصة وأن بعض عملياتها الفيزيولوجية كالتمثيل اليخضوري وتثبيت النيتروجين في الجذور وخاصية التعرق الورقي تمتص بعض تلك الملوثات، وتقوم ببعض التعديل الحراري للجو المحيط بها، إلا أن ارتفاع أسعار الخشب في الأسواق العالمية وتزايد الجشع الأناني لبعض تجار الخشب وزيادة الطلب على البيوت السكنية كنتيجة حتمية للتوسع السكاني، جعل من هذه النعمة موضوعا مستهدفا للإبادة وحرم تلك المدن من رئتها الطبيعية.

يحرق العالم حاليا ثلاثة مليارات طن من البترول سنويا بالإضافة إلى ١٩ مليون طن تسوق سنويا لمصانع البتروكيماويات، وهذا الاستنزاف اللامسؤول للطاقة سوف يؤدي بالإضافة إلى التلوث البيئي المنظور والمتوقع والمتمثل في زيادة وانتشار الأمراض السرطانية والصدرية والقلبية إلى نقص خطير في موارد الأرض غير قابل للتعويض، فأي ثمن فادح تدفعه الإنسانية لقاء مواصلات سريعة ومريحة ؟؟

جـ ــ في حقل الصناعات التحويلية والكيميائية:

منذ أقدم العصور وخلال رحلته الحضارية الطويلة استطاع الإنسان أن يقلد الطبيعة في بعض سلوكياتها ويكيفها حسب رغبته ومصلحته الخاصة، كما كيف نفسه أيضا في المواقع التي عجز فيها عن السيطرة على سلبياتها، وهذا التكيف المتبادل بين الإنسان والأرض جعل من الحياة أمرا ممكناً، وحمى الإنسان من خطر الانقراض كغيره من الأنواع الحيوانية التي لم يعد لها وجود إلا في المتاحف الطبيعية وكحفريات متحجرة في طبقات الصخور .

عملية التدفئة بحد ذاتها والتي لا تقوى عليها باقي أنواع الحيوانات هي نوع من التكيف الإنساني مع شتاء الأرض القارس وعملية بناء السدود لصد السيول والفيضانات المهلكة هي نوع من إخضاع القوى الطبيعية لإرادة الإنسان، وكذلك تدجين الحيوانات وترويضها وتدريبها على خدمة الإنسان وحفر الآبار وجر المياه منها هي عمليات تكييف للطبيعة ولصالح الإنسان، أما عمليات التهجين الصناعي لبعض أنواع المحاصيل الزراعية والحيوانات المستأنسة فقد أنتجت أنواعاً حياتيةً جديدة ذات مواصفات خاصة لم تكن معروفة من قبل، وما كانت الطبيعة لتنتجها لوحدها لولا تدخل الإنسان، فهل نستطيع القول بأن الإنسان ساعد الطبيعة في إنتاج صيرورات جديدة تخدم مصالحه وتلبي احتياجاته الحيوية ؟

إن الملاط الإسمنتي مثلا والأدوية المحضرة صناعيا والمواد المخصبة والمواد البلاستيكية واللدائن كلها إن هي إلا مستحضرات بشرية ليس للطبيعة فيها إلا المواد الخام الأساسية، وبالتالي فإن قسماً كبيراً من هذه المواد يستعصي على التفسخ الطبيعي وتعجز الأرض عن إتلافه والتخلص منه فاللدائن البلاستكية وهي منتجات بتروكيميائية مؤلفة من مضاعف جزيء كلور الفينيل (PVC) تتمتع بخواص فيزيائية جيدة في أعمال البناء والأدوات المنزلية والنسيج كمقاومتها للأحماض والصدأ أصبحت مشكلة بيئية خطرة عندما اكتشف العلماء أن كون مخلفاتها تعتبر قمامة غير قابلة للتلف، وقد أثبتت التجارب التي أجريت عليها في كل من أمريكا وفرنسا واليابان أن استعمالها في الأواني المطبخية كعبوات للمواد الدهنية يعتبر سببا رئيسيا من أسباب الإصابة بسرطانات الكبد (Angiosaracoma) (الأورام والبيئة – د. محمد سعيد الحفار، ص ٢٥٠ دار الفكر

المعاصر ، بيروت). وتتلخص المواد الملوثة الضارة بالإنسان في عدد من المواد الغازية والسائلة والصلبة الناتجة إما عن الاحتراق غير الكامل للوقود أو عن مخلفات المناجم المعدنية أوعن الصناعات الكيميائية والبتروكيميائية للمنتجات التحويلية. ومن هذه المواد الملوثة: الرصاص وأول وثاني أكسيد الكربون، وهباب الفحم الصلب وغاز الميثان المنبعث من البراكين والمناجم، وأكاسيد النيتروجين والآمونيا، وأكاسيد ومركبات الكبريت والأبخرة العضوية والزرنيخ والمنغنيز والزئبق والسيانيد. ويقدر ما ينتجه الفرد من ملوثات، وخاصة في الدول المتقدمة صناعيا بـ ٣٥٠ كغ ـ ١٠٠٠ كغ سنويا. أما ملوثات الهواء الغازية فتقدر بنحو ٩٠% من إجمالي الملوثات بصورة عامة.

أما النفايات البشرية فهي مشكلة قائمة بحد ذاتها ، وقد استطاعت بعض الدول المتقدمة (كألمانيا واليابان) من معالجة هذه المشكلة بإعادة استخدام وتصنيع تلك النفايات للاستفادة منها في مجال التسخين الحراري لإنتاج الطاقة الكهربائية وأخطر أشكال التلوث البيئي هي النفايات النووية التي يتطلب التخلص منها إجراءات تقنية مكلفة جدا .

ومن إجحاف القدر أن البشرية جمعاء تدفع ثمن هذه النفايات أمراضا خبيثة ومؤذية، بينما تمتنع الدول الصناعية التي أنتجتها عن التخلص منها بالوسائل المضمونة، ولعلنا لم ننس بعد كارثة المفاعل الأوكراني شيرنوبل وذيولها السيئة على الاقتصاد والصحة والبيئة. تتبع بعض الدول الصناعية كالولايات المتحدة الأمريكية أسلوب التخلص من النفايات النووية، وذلك بوضعها في براميل معدنية محكمة الإغلاق ثم رميها في عرض المحيط، إلا أن تآكلها بفعل الأكسدة والصدأ من مياه البحر المالحة يعطي الفرصة للتلوث الإشعاعي بالتسرب والإضرار بالحياة البحرية ، وتلجأ دول أخرى إلى دفن تلك القمامة الضارة بالبيئة دفنا عشوائيا يفتقر إلى القواعد العلمية للسلامة في بعض المستعمرات المغلوبة على أمرها أوفي بعض الدول النامية، أما التخلص المأمون لتلك النفايات فيرتكز على دفنها في جيوب صخرية تحت الأرض وعلى أعماق تتجاوز الـ ١٠٠ متر ضمن بطانة مضاعفة من الإسمنت المسلح والرصاص لضمان عدم التسرب الإشعاعي، وهذه الطريقة المكلفة تتردد الدول الصناعية في تنفيذها إذا ما توفرت لها بعض الفرص الأقل كلفة. وتعتبر مناجم الملح الصخري العميقة مكانا مثاليا لوأد مثل تلك النفايات.

أثبتت الأبحاث الطبية الحديثة أن لمعدن الرصاص تأثير سمي على خلايا الأنسجة

البشرية، وأن تركيز هذا المعدن قد زاد في الهواء والماء والمواد الغذائية بنسب طردية خطيرة مع ازدياد عدد السيارات المستعملة في العالم ، وقد أضيف الرصاص إلى وقود السيارات على شكل أملاح رابع ميثيلات ورابع إيثيلات الرصاص عندما اكتشف صانعوا السيارات أن هذه الأملاح تخفف من فرقعة احتراق الوقود في المحرك جاعلة صوته أكثر سلاسة وهدوءا وأقل ضجيجاً وإزعاجاً.

وترفع مركبات الرصاص في الوقود عمليا الرقم الأوكتاني للبنزين، إلا أن المخاطر التي ترتبت على إضافته كانت أكبر من المزايا التي حققتها تلك الإضافة. لذلك فقد حددت المنظمة الدولية لحماية البيئة نسبة المزيج الرصاصي في وقود السيارات بـ ٤٥ % غ /في اللتر كحد أعلى ثم خفضت إلى ١٣% غ/ل ثم إلى ٣ % غ/ل وأخيراً إلى ١% غ/ل، ويسمى مثل هذا الوقود بالوقود اللارصاصي (unleaded fuel) وينتج عن احتراق الوقود الرصاصي ارتفاع ملحوظ في نسبة الرصاص في الجو على هيئة معلقات دقيقة من أملاح الرصاص قابلة للاستنشاق، مما يؤدي إلى ارتفاع مماثل في نسبة هذا المعدن في دم الإنسان (تقرير عن الـ UNEP 1985 POTENTIONALLY TOXIC CHEMICALS).

ويؤدي وجود ٧ إلى ٨ ميكروغرام في كل ١٠٠ ميلليليتر من دم السيدة الحامل إلى نقص في وزن الجنين بمعدل ١٩٢غ، وتؤثر مركّبات الرصاص سلبا على الأطفال بصورة خاصة لأن خلاياهم الدماغية تكون في طور النمو، إذ يعيق الرصاص نمو تلك الخلايا ويوقف عمل الأنزيمات الهامّة ويعسر عملية طرح البول كما يضعف ذكاء الأطفال بنسبة كبيرة. وإذا ارتفعت نسبة الرصاص في الدم عن ١٠ملغ/١٠٠ميلليليتر فإنه يؤثر على خضاب الدم ويسبب فقراً جزئياً في الدم، أما إذا زاد عن نسبة ٦٠ ملغ/١٠٠ ميلليليتر فإن خللا في وظائف المخ والكلى يبدأ بالظهور (ص ١٨ مجلة العلوم والتقنية العدد الرابع /شوال ١٤٠٨ هجري). وتتسرب أملاح الرصاص إلى البيئة من زيوت التشحيم وصناعة البطاريات والمناجم الرصاصية وأفران الرصاص المفتوحة بالإضافة إلى الوقود الرصاصي. إن ما ينطبق على الرصاص ينطبق على غيره من المعادن السامة والملوثة كالزرنيخ والزئبق والمنغنيز وهباب الفحم وغيرها . أما تلوث المياه وخاصة مياه الشرب فلا يقل خطورة عن تلوث الهواء مع فارق هام هو أن الإنسان مرغم على تنفس

الهواء، بينما يمتنع عن استعمال المياه إذا اكتشف أن لها رائحة كريهة أوطعما غير مستساغ، ولكن بعض الملوثات كالجراثيم العضوية والحميات الراشحة لا تترك ما يشير إلى وجودها، إضافة إلى أنها تنتقل إلى مساكب الخضار التي ترويها والتي تستهلك منتجاتها في غذاء الإنسان، وكلما زادت نسبة الازدحام الآدمي في منطقة ما زادت كمية الفضلات الواجب التخلص منها، ولجأ الإنسان نتيجة لنقص في الوعي الصحي إلى أرخص طريقة لإتمام هذا التخلص ولذلك فإن أغلب التجمعات البشرية كانت تدير مياه الصرف الصحي على مجاري الأنهار العامة والبحيرات، مما يؤدي إلى إتلاف هذه المصادر الحيوية وجعلها غير صالحة للاستهلاك الآدمي، كما أن تسرب تلك المياه إلى باطن الأرض يساهم في تلوث طبقة المياه الجوفية مما يشكل خطرا حقيقيا على الصحة العامة.

وقد أنجزت بعض الدول المتقدمة مشاريع طموحة في تدوير (RECYCLATION) تلك المياه بشكل اقتصادي وإعادة استخدامها في الزراعة والصناعة، مما وفر عليها نفقات باهظة وخلصها من عامل هام من عوامل التلوث البيئي. أما مشكلة الأمطار الحمضية فقد نشأت في مناطق التجمعات الصناعية حيث تطلق مداخن المصانع كميات كبيرة من ثاني أكسيد النيتروجين والكبريت وغاز الكلور، والتي تنحل بعد ذلك في مياه الأمطار لتشكل أحماضا خفيفة تتلف جذور المحاصيل الزراعية، وتفقر التربة من عناصرها القلوية ومعادنها الضرورية، ولكل منا الحق في أن يتساءل: لماذا لم تكن مشاكل البيئة والتلوث مطروحة في فترات سابقة من عمر الحضارة ؟ هل كان أسلافنا مثلا يجهلون أبعاد هذا التلوث ؟ أم أن ما نعاني منه الآن لم يكن موجودا سابقا على تلك الدرجة من الخطورة ليشغل بال سكان الأرض ؟

والحقيقة أن كلا الإجابتين هما على درجة مقبولة من الصحة، فالنمو السكاني المطرد مع ما يلزمه من زيادة ملحوظة في استهلاك موارد الأرض والتراخي اللامبالي في رفع مخلفاتها الصناعية أظهر المشكلة بشكل صريح وواضح بالإضافة إلى أن الوعي البشري لجوانب المشكلة زاد بصورة واضحة بسبب تزامنها مع انتشار عدد كبير من الأمراض الخبيثة التي لم تكن معروفة من قبل.

ولكن لماذا نرفع أسلحتنا فقط في وجه الحضارة كإبداع إنساني، وذلك كمن يفتش عن كبش فداء يسقط عليه أخطاءه الشخصية ويحرر ضميره من ثقل المسؤولية ؟

ألم تكن الأرض طوال عمرها الموغل في القدم تنفث دائما أبخرة براكينها وغازاتها المتنوعة في غلافها الجوي، ثم تعود إلى توازنها الطبيعي بعد فترة من الزمن؟ أجل ولكن مثل هذا التلوث الطبيعي كان يشكل أزمات بيئية عندما كانت الأرض كثيرة البراكين في أطوار رحلتها الأولى نحو الاستقرار وقبل ظهور الإنسان بأحقاب بعيدة، وكانت كل أزمة بيئية لا تنجلي إلا بانقراض عدد من الأنواع الحيانية التي عجزت عن التأقلم مع المناخ الجديد ويعتبر عدد البراكين النشطة حاليا عددا ضئيلا ومتواضعا إذا ما قيس نسبيا لأعدادها في التاريخ الجيولوجي، ورغم ذلك فإننا لا نستطيع أن ننكر أن ما تسببه تلك الكوارث الطبيعية من التلوث لا يمكن تجاهله بمقاييسنا الكيميائية، ولكن هذا الضرر الطبيعي لايمكن تحاشيه فهل نضيف إليه أضرارا أخرى نسببها بأنفسنا ؟ وعندما نضيف إلى كميات الغازات المنبعثة من البراكين وشقوق قيعان المحيطات كميات أخرى تعجز قوى التبدد والتلاشي والتفاعلات الطبيعية المبددة عن التخلص منها، فإن من الطبيعي جدا أن نقلق على صحتنا وصحة أطفالنا خاصة وأن بعض مخلفاتنا الصناعية الجديدة غير قابلة للتفكك كالبلاستيك وغاز الفريون المستخدم في التبريد وغازات ورذاذ المبيدات الحشرية التي ساهمت حتى الآن في تآكل طبقة الأوزون الواقية للأرض من الأشعة فوق البنفسجية والأشعة الكونية ؟ ألا يحق لنا أن نخاف على مصيرنا ونحن نرى انتشار الأمراض السرطانية بشكل مخيف لم يسبق له مثيل؟ إن البلانكتونات (وهي نوع من الطحالب البحرية المولدة للأكسيجين، وهي التي سببت ظهور وتكاثر الأكسيجين على سطح الأرض حتى أصبحت الحياة الهوائية البرية ممكنة، تتعرض اليوم للإبادة بسبب التلوث البحري من حاملات النفط المثقوبة ومخلفات السفن التجارية، فهل نزيد أزمتنا بعمليات الحرق النهم لموارد الطاقة التي تستهلك ما تبقى لدينا من أكسيجين؟ في زمن الإنسان البدائي كانت الطبيعة تجري توازنها دائما حسب نظام بيئي صارم، فإذا ارتفعت مثلا نسبة غاز ثاني أكسيد الكربون في الجو بسبب نشاط بركاني غير عادي كانت نسبة كبيرة من هذا الغاز تنحل في مياه البحار لتتفاعل مع ثاني كربونات الكالسيوم المنحلة في الماء، وترسبها في قاع البحر على شكل كربونات الكالسيوم الصلبة، وتنعكس هذه العملية تماما عندما تقل نسبة ذلك الغاز في الجو، وما هذه الجبال الكلسية التي نشاهدها اليوم في كل شبر من سطح الأرض إلا ثمار مثل هذه التوازنات الآلية مضافاً إليها مليارات

الهياكل العظمية لملايين الأصداف والقواقع البحرية، وما ينطبق على غاز ثاني أكسيد الكربون ينطبق على غيره من الملوثات الطبيعية. إنّ لكل عنصر في الطبيعة دورته الخاصة به ينتقل بواسطتها من حالة إلى أخرى ومن موقع لآخر، أما عندما تدخل الإنسان في هذه الدورات وانتج مخلفات صناعية ليست من إنتاج الطبيعة وليست قادرة على التخلص منها أوتبديدها فإن مشكلة التلوث خرجت من سيطرة الطبيعة لتصبح تحت سيطرة الإنسان. وإذا تمعنّا في تصرف الطبيعة وجدنا أنها لم يكن لديها مشكلة تلوث دائمة طالما أن كل العناصر التي تتجاوز حدود وجودها تخضع للتوازنات الكيميائية والشروط التي تمليها عليها صفاتها الفيزيوكيميائية، فتتحول إما لمركبات أخرى أو تجير لمناطق أخرى وكل شئ يعاد تدويره بعد فترة زمنية معينة طالت أوقصرت، ثم لا يبقى تحت أشعة الشمس المتوهجة إلا النقاء والصفاء، فهل نستغرب ثانية إذا تخيلنا أن الإنسان البدائي كان أوفر سعادة منا؟.

نحن لا ندعوا إلى التراجع الحضاري ولن نستطيع ذلك حتى لو أردنا كل ما نطلبه هو التخفيف من ألم المعاناة الإنسانية، فالتلوث قابل للعلاج والمحافظة على البيئة ليست مستحيلة إذا فكرنا وعزمنا على علاجها بطرق علمية وعملية وعوادم السيارات يمكن تجهيزها بمرشحات إضافية، وكذلك مداخن المصانع أما مياه الصرف الصحي فيمكن تدويرها والنفايات الأدمية يمكن تدويرها والاستفادة منها في إنتاج السماد العضوي والوقود المنتج للطاقة الكهربائية. إن المطلوب اليوم من الأفراد والمؤسسات والحكومات هو بذل المزيد من الجهد في سبيل الحد من هذا التلوث من أجل بيئة صحية أكثر أمناً لأطفال الغد، وهذه مهمة قد تكون في بدايتها صعبة التنفيذ ولكنها في النهاية ستصبح جزءاً من عملية التصنيع وجزءا من عاداتنا اليومية، وهي ليست وقفا على طرف دون آخر بل هي مسؤولية الجميع لأن الطبيعة لا تعترف بالحدود السياسية للدول لأن التلوث البيئي ينتقل من مكان إلى اخر دون جواز مرور .

في حقل الإلكترونيات: كانت الشعوب البدائية إذا أرادت التخاطب عن بعد ولازال بعض منها في أفريقيا حتى الان، تلجأ إلى قرع الطبول بإيقاعات معينة تترجم إلى جمل وكلمات، وكان يوضع عدد من قارعي الطبول على مسافات متساوية من طريق الاتصال يردد كل منهم ما سمعه من زميله السابق ليوصل الرسالة إلى زميله اللاحق، أوكانوا

يلجأون في المناطق الصحراوية إلى بث أعمدة من الدخان بشكل متقطع من على رؤوس الجبال تتوالى كمحطات بث بصرية تنقل الرسالة من مكان إلى آخر، وبعد اكتشاف المبرقات الكهرومغناطيسية أصبحت هذه العملية تتم دفعة واحدة من المحطة الأولى إلى الهدف النهائي مباشرة على شكل نبضات متقطعة تتبع لغة المورس التي اتفق عليها عالميا ليتم إبلاغ الرسالة في وقت قياسي لا يتجاوز وقت بثها، وخلال القرن العشرين من تاريخ الحضارة وبعد اكتشاف جهاز الهاتف والفاكس والتليكس تحول العالم المترامي الأطراف إلى قرية صغيرة ينتشر الخبر فيها كالنار في الهشيم وتعيش وقائعها يوما بيوم، كما أنّ اختراع رقائق السيليكون الحاملة للدارات الكهربائية المجهرية ساهم في إيجاد أجهزة اتصالات صغيرة الحجم وذات كفاءة عالية، وهذا مكّن الإنسان من زرع محطات إرسال قوية في سفن الفضاء أوصلت الخبر الإعلامي المسموع والمشاهد عبر أجهزة التلفزة إلى كل بيت، وإذا أردنا الحقيقة فإنّ ما أنجزه الإنسان في مجال الاتصالات السلكية واللاسلكية كان أكبر مما كان يحلم به الإنسان، فإذا أضفنا إلى كل تلك المنجزات ما أفرزته الثورة المعلوماتية وأجهزة الكومبيوتر من خدمات سهلة ومريحة أضافت إلى قوانا الفيزيولوجية إمكانيات جبارة في رصد المعلومات واختزانها واستدعائها، وجدنا أنّ الإنسان قد سيطر على العالم سيطرة فعلية لا تقبل الشك أوالجدل وقد ساهمت هذه الخطوة الأخيرة في تسريع عملية التطور ورفع قيمة العمل، فالحاسوب أوالكومبيوتر يصمم السيارة والطائرة بناء على معطيات محددة مسبقا تتلاءم مع حاجات الإنسان ورغباته، أما أجهزة الإنسان الآلي أوالروبولت فقد دخلت كل مصنع لتعمل بلا كلل ولا ملل منهية وإلى الأبد عصر العمالة التقنية للإنسان وواضعة ملايين العمال في المقاهي وشوارع التسكع والبطالة، إنّ الثورة المعلوماتية عززت بشكل واضح قدرة الإنسان على التطور والإنتاج ولكنها في نفس الوقت خلقت مشاكل اقتصادية لا يمكن تجاهلها من زيادة في الإنتاج تحتاج إلى تصريف وكساد اقتصادي عالمي سبب تفاقما في نسب البطالة، وتضخما اقتصاديا لازالت تعاني منه دول العالم غنيها وفقيرها على حد سواء. ولاأستطيع الادعاء بأنّ هذه الثورة المعلوماتية كانت سلبية الانعكاس تماما على حياة الإنسان فقد استطاعت على أقل تقدير أن تعزز ملكاته الفكرية وتضيف إلى ذاكرته المتسمة بسرعة النسيان ذاكرة صناعية لا تمارس الخطأ ولا الإهمال إلا أنّ اعتماده المتكرر عليها أضعف

ذاكرته الطبيعية من مبدأ أنّ كل عضو حيوي يقل استعماله في أي كائن حي يسؤول إلى الضمور ثم إلى الزوال، لقد استعان الإنسان بتقنياته المتطورة في تنمية أجهزته الحسية والحركية، وهذه المتممات الصناعية نجحت في رفع كفاءته الوظيفية مؤقتا، ولكننا لانستطيع أن ننكر بأنها ستساهم في ضمور أعضائه الطبيعية على المدى الطويل.

أما ثورة التلفزة والإعلام المرئي وخاصة بعد ظهور شبكات البث التلفزيوني عبر الأقمار الصناعية التي تجوب أطراف الفضاء فقد عزلت الإنسان عزلاً اجتماعياً، وفككت الروابط الأسرية، وقطعت الحوار البناء بين أفراد العائلة الواحدة، وأطلقت رصاصة الإعدام على ثقافة الكتاب وهواية القراءة، وزادت من شراهة الاستهلاك نظرا لما تبثه من دعايات تجارية لمنتجات الصناعات الاستهلاكية، كما أنها قللت من النشاط الفردي وممارسة الهوايات الفنية والرياضية.

إنّ الرفاهية المفرطة لهذا العصر المتهالك على وسائل التسلية والكسل ساهمت بشكل مباشر وغير مباشر في أمراض البدانة المفرطة ومرض السكري والنقرس (التهاب المفاصل) وذلك بسبب عدم التوازن بين الأنظمة الغذائية وحاجات الإنسان للحركة والفعل، هذه الأنظمة التي كانت مع بداية هذا القرن متوافقة مع حاجات الإنسان للطاقة من مشي وعمل عضلي وانتقال على الأقدام أصبحت اليوم غير متكافئة بسبب الراحة الحضارية واعتماد الإنسان كليا على الآلة التي أخذت عنه مهامه الحركية والذهنية وتركته لنظامه الغذائي السابق ينهل منه ما شاء من نشويات ودهنيات وسكريات لم يعد قادرا على حرقها، مما سبب له اختزانها في طبقاته الشحمية وشرايينه المتصلبة. لقد كان المشي سابقا لمسافات طويلة ضرورة ملحة من ضرورات الانتقال، أما الآن فهو في أحسن حال من الأحوال نظام رياضي لتخفيف الوزن لا تمليه الضرورة. إنّ التجاوز غير المحسوب في اقتناء واستخدام وسائل النقل الحديثة حرم الإنسان من نعمة التخفيف الضروري للطاقة المختزنة عن طريق المعدة، ومن قاعدة أنّ كل عضو حيوي يفقد أهمية استخدامه الوظيفي يؤول إلى الزوال، فكيف يمكننا التنبؤ بشكل الإنسان الخارجي في المستقبل البعيد إذا استمر الحال على هذا المنوال؟ ساقين نحيلتين تتأرجح عليهما كتلة شحميه لا شكل لها وذراعين نحيلتين فأي أرأجوز بشري هذا الذي ستؤول إليه ذريتنا؟ وهل نستطيع أن ندّعي بعد كل ذلك بأنّ منجزات حضارتنا كانت كلها نعمة خالصة خالية من أية نقمة؟ وهل استطعنا فعلا أن نفلت من دفع الثمن ؟.

كلما أوغلنا في دهاليز الحضارة وعشنا في أبراج المدن المكتظة بالسكان كلما اشتقنا لرائحة التراب والارتماء في حضن الطبيعة، لم يكن الإنسان البدائي يشعر بمثل شعورنا الآن، ولم يكن بحاجة للارتماء بين الحين والحين في حضن الطبيعة لقد كان يعيش في وسطها يمتزج بها لا يعرف حدوده من حدودها إنه هو الطبيعة، هو الريح والشجر والبرق والرعد والمطر والكهف والحجر هو الفريسة والصياد والنهر والشلال فلماذا يحتاج لإجازة يقضيها في صدر الطبيعة ؟ كان يعرف ويدرك بحدسه الغريزي الأوقات الملائمة للصيد، وكان يشم روائح قطعان الأيائل ويعرف من أية جهة سوف تتدفق ويشم رائحة رطوبة المطر قبل سقوطها بساعات، ويستشعر خطر الغابة وحيواناتها المفترسة قبل ولوجها، ويدرك من روائحها إن كانت جائعة خطرة أم مكتفية مسالمة لم يكن بحاجة إلى مرصد أوهاتف ولا إلى تلفاز أو سيارة، كانت أدواته بسيطة لا يضطر إلى شرائها من الغير ولايعتمد في حياته إلا على قوة ساعديه وحدسه الخاص فهو يعيش بذاته ولذاته، هكذا كان كائنا سعيدا وفي أسوأ الأحوال إن لم يكن كذلك فإنه أيضا لم يكن تعيسا بالشكل الذي نحن عليه الآن، كانت تطلعاته محدودة في بيئة تمنحه كل ضروراته المعيشية، غذاء، ماء، أمن، فالغذاء والماء متوفران بكثرة تعفيه من هموم الزراعة وتربية الماشية والحصاد والأمن يوفره كهف صغير في منعطف جبلي أو مأوى من الأغصان يلتف بين ذراعي شجرة حانية، هل جربت أن تعيش مثل هذه الحياة ولو لبضعة أيام؟ جربها ولو لمرة واحدة وستجد أنّ معظم همومك الحياتية قد تلاشت تماما كما لو أنّك خلقت من جديد.

٢ – ٢ : إنجازات الحضارة الفكرية:

يقال عن الإنسان بأنه حيوان اجتماعي رغم أنّ معظم متاعبه تأتي من الآخر. وكان أول تجمع بشري ظهر إلى الوجود هو التجمع الأسري منذ أن امتلك الرجل الموضوع الجنسي بصورة دائمة، فالأنثى كانت تشغل حيزا مهما من اهتمامات الرجل إلاّ أنها كانت تأتي بالمرتبة الثانية بعد الحاجة للغذاء، وكان لقاء الذكر بالأنثى عرضياً وصدفياً دون تحديد فرد معين وبعد أن ساهم الحب في استمرارية التعايش الزوجي والتخصص الفردي ظهر الأطفال بضعفهم وبراءتهم الساذجة ليؤكدوا للرجل بأنهم ينتمون إليه وأنه بطريقة أو بأخرى مسؤول عن وجودهم، وحيث أن المرأة بدوافعها الأمومية العميقة ترتبط عضويا وروحيا بأطفالها لذلك كان لابد للأسرة من التعايش الاجتماعي حرصا على

حياة الأطفال. وهكذا كانت الأسرة أول نواة حقيقية للتآلف الاجتماعي ترتب عليها زيادة حاجات الرجل وثقل مسؤولياته. وفي هذا المجتمع المصغر كان رب الأسرة هو الآمر الناهي وما على باقي أفراد الأسرة إلا الطاعة والامتثال للأوامر مهما كانت جائرة وقد ظلّ هذا النظام الأبوي(البطرياركي) سائدا حتى مرحلة متقدمة من تطور المجتمعات حتى وإن اختلفت مظاهره وتعددت أشكاله فإنّ جوهره الديكتاتوري كان دائما موجودا .

عندما كبر الأولاد وتزوجوا وأنجبوا لم تكن فكرة الاستقلال الطوعي عن العائلة فكرة مستساغة لأنها لم تكن تخدم المصلحة العامة في بيئة عدائية تتطلب المزيد من التكاتف والتكافل لتحقيق المزيد من الأمن والحماية، ولذلك ظلّ الأولاد في كنف أبيهم الشيخ الكبير أو الجد يستفيدون من مزايا التجمع في توزيع العمل لتحقيق صيد وفير وتأمين حماية مركزة، وكان الجدّ الكبير هو الذي ينظم الصيد ويقسم الغنائم ويفض النزاعات ويزوج البنات والشباب ويطبق العقاب على المذنبين وهذا النموذج المكبر عن الأسرة كان بداية لمرحلة العائلة الكبيرة من تاريخ نشوء المجتمع، العائلة التي كانت تضم تحت لوائها عددا من الأسر الصغيرة المترابطة بالنسب، وكان إذا مات الجد الأكبر اجتمعت العائلة وأوكلت قيادتها إلى أكبر الأبناء سنا أو أقواهم. وهكذا سارت الأمور بالتدريج حتى تحولت العائلة إلى قبيلة يترابط أفرادها بصلة الدم والقرابة وعندما تحولت التجمعات البشرية من مجرد قبائل جامعة للصيد والثمار إلى مجتمعات رعوية تربي الماشية وترتحل إلى مواطن العشب والكلأ توطدت عناصر القبيلة وزادت من عدد عناصرها وقوتها وبأسها في سبيل مزيد من الأمن والحماية. وحتى ذلك الحين كان القانون الأساسي السائد هو مجموعة من الأعراف والتقاليد غير المكتوبة والتي كانت تخضع في كثير من الأحيان لمزاج زعيم القبيلة.

كان النظام الاقتصادي للقبيلة هو المصدر الرئيسي في بناء نظامها الاجتماعي، فالزعيم الكبير وهو إما الأكبر سنا أو الأوفر مالا أوالأقوى بنية أوالأشد ذكاء كان يملك معظم ماشية القبيلة، وهو بتفوقه الاقتصادي هذا كان قادرا على استيعاب عدد من رجال القبيلة الأقل ثراء، والذين يترددون إلى مجالسه فيقدمون له المشورة والطاعة ويساعدونه في تنظيم شؤون القبيلة وذلك مقابل بعض الهبات والامتيازات، بينما كانت الغالبية العظمى من الأفراد تدين بالولاء الخالص للشيخ الكبير والذي مع غياب أي شرائع مكتوبة

غالبا ما تكون قراراته مزاجية وتعسفية. وإذا اعتبرنا أنّ القسم الأكبر من شقاء الإنسان ناجم عن تنازله الطوعي أوالقسري عن حريته الفردية وطاعته العمياء للنظم والشرائع والقوانين ومن يمثلها من رجال المجتمع أدركنا كم من التنازلات التي قدمها الإنسان ليكون متحضرا واجتماعيا، فالحياة الاجتماعية هي نقلة حضارية من الفوضى للنظام ومن مجتمع مبعثر يعيش على هواه وتسوده شريعة الغاب ويملكه الأقوى إلى مجتمع منظم له شرائعه العادلة التي تضمن الحياة للجميع كل حسب عمله وطاقته. إذن: النظام هو قيمة حضارية والإيثار حضارة واحترام الرأي للآخر حضارة والعدالة حضارة، ولكن على حساب من تقوم هذه العدالة ؟ طبعا على حساب القمع الإلزامي للرغبات المكبوتة والتنازل الطوعي عن الحرية الغريزية، وهل يتم مثل هذا التنازل بدون ثمن من شقاء يومي وصراع داخلي وكبت وإحباط وغيرة وحسد وتلهف وانكفاء وحسرة وألم ؟ كل هذه الهموم والسموم كانت ثمن التكيف اللامشروط لأساسيات التجمع البشري وسلوكيات الفرد المتحضر، هذا التكيف الذي استغرق عشرات الآلاف من السنين والذي كان سببا لآلاف الحروب والشقاء الإنساني نختصره اليوم بعشرات السنين فقط ونلقنه لأطفالنا عبر وسائل التربية المنزلية والمدرسية المؤلمة لنصنع منهم أعضاء متحضرين ومقبولين اجتماعيا في بيئاتهم الراهنة. من هنا نستطيع تفسير السعادة الغامرة التي يستشعرها الإنسان عندما ينطلق وحيدا في رحاب البرية البكر وكأنه تخلص من رقابة كريهة وتحرر من أقنعة مزعجة ومجاملات ثقيلة ولا أستطيع أن أتخيل أن هنالك إنسان واحد على سطح الأرض يدعي بأنه لا يحمل في جيوبه عددا من الأقنعة الاجتماعية المؤلمة، وأنه يتصرف على سجيته الفطرية، وأنه ليس أكثر من ذاته البسيطة دون إضافة أوتمعج أوروتوش .

ويمكننا أن نتخيل أن الإنسان البدائي كان محروما من نعمة الأحلام ونقمة الكوابيس طالما أن الحلم هو المحصلة اللاشعورية لصراع الأنا العليا مع الأنا والهو (أي مع الغرائز الفطرية) وقد تأكد الدكتور كارل يونغ من هذه النتيجة باستجوابه عددا من القبائل البدائية جدا في أمريكا وأفريقيا .

ورغم جميع الآلام التي ترتبت على تجمع الجنس البشري في مجتمعات عائلية أوقبلية مقابل الاستفادة من خدمات الآخرين والتمتع بمزايا الأمن والحماية فإن هذه الخطوة كانت نقلة هامة في مسيرة الإنسان الحضارية ونقطة في صالحه على المدى البعيد، فالانتماء

الاجتماعي رغم ما يترتب عليه من تنازلات فردية يعتبر في ذاتـــه مكسـبا عظيمـا لأي إنسان, وتؤكد لنا ذلك آلاف قصائد الفخر والاعتزاز بالقبيلة وأمجادها التـي يزخـر بـها التاريخ الأدبي لأية أمة من الأمم .

وقد كان العقاب الأقسى إيلاما لأي فرد من القبيلة يخرق عاداتها وقوانينها هو الطـرد منها حيث يهيم لوحده في العراء إلى أن تقبله تحت مظلة حمايتها قبيلة أخـرى دون أيـة مزية أو امتياز. ومن هنا نجد أن الإنسان الذي تخلّى طائعا عن حرية غرائـزه الفطريـة وحياة الكهف الأولى لا يسهل عليه العودة لمثل تلك الحيـاة نظـرا لأن طبيعـة التطـور الاجتماعي تفرض عليه استبدال الحرية بالانتماء الذي يشكل مظلة الحماية ودرع الأمن .

هذه التناقضات العميقة بين رغبات الإنسان المعبرة عن فطرته وبين حاجاته المعيشـية هي السبب الرئيسي في شقائه الحضاري والذي استمر بالازدياد والتراكم كلمـا تنوعـت وسائل الكف الغريزي وتعددت دهاليز الحضارة ومتطلباتها . لقد كان انتقال الإنسان مـن المجتمع الرعوي إلى المجتمع الزراعي خطوة هامة فرضـت عليـه التمسـك بـالأرض مصدر الرزق والغذاء بعد أن كان يتنقل في المراعي المشاع بحثا عن المـاء والعشـب، وهذه النقطة بالذات كانت بداية بلورة مفهوم الوطن والاستقرار الدائم وقـد تطلبـت تلـك النقلة الحضارية جهدا جبارا من الإنسان ليكتشـف مـن تجمعـه ويبنـي المـدن والقـرى والحصون المنيعة والمحاربين المحترفين للدفاع عـن الأرض، ولـم يسـتطع المجتمـع الرعوي أن يستقر في تجمعات زراعية حول المياه الدائمة إلا بعد أن بلغ من القوة وعـدد السكان مبلغا كبيرا بحيث استطاع أن يتجاوز محنة التنافس والصراع من أجل البقاء، أمـا القبائل المحدودة العدد فقد آثرت البقاء في حالة البداوة حيث لا تفـرض عليـها حـروب الصراع على الأرض، وإن كانت تتعرض لحروب السـلب والغـزو الهادفـة لامتـلاك الماشية.

في المجتمع الرعوي كانت معظم قطعان الماشية تخص زعيم القبيلة وأتباعه ، أما فـي المجتمع الزراعي فقد تحولت تلك الملكية إلى ملكية للأرض، أما باقي أفراد القبيلـة فقـد تحولوا من رعاة مأجورين لقطعان الغير إلى زرّاع مأجورين في أرض الغـير، وكـانت المحاصيل الزراعية تؤول كلها إلى سيد القبيلة الذي أصبح شيخ القرية أو مختـاراً لـها، بينما تخصص أجزاء ضئيلة منها للفلاحين تكاد أو لا تكاد تكفيهم. وعند هذه النقطة بـالذات

بدأ المجتمع يتمايز إلى طبقتين رئيسيتين هما: طبقة الملاك أوالإقطاعيين وطبقـة الفقـراء الفلاحين، وهنا يحق لأي منا أن يتساءل هل افترى الإنسان على نفسه عندما انسـاق فـي الركب الحضاري وقرر الانضمام للتجمعات الإنسانية طلبا للحماية والأمن ؟ وهل كـانت تلك الحضارة شؤما عليه فحولته لعبد مأجور بعد أن كان سيد نفسه وكـان يعيـش بذاتـه ولذاته ؟.

وهنا لابد أن نعترف بأن الانسياق في الركب الحضاري لم يكن إراديا في جوهـره وإن بدا كذلك في مظهره، فالتجمع القبلي الذي كان حتميا لدوافع الأمن وتضخم العائلـة كـان سيعتبر مصدر تهديد لاستقلال الأسر المتفرقة التي تفضل الاستقلال عن هيمنـة القبـائل القوية، ولذلك فإن تلك الأسر كانت مرغمة على الخضوع للنظم العشائرية تفاديا لإبادتها.

في المجتمع الزراعي كانت هناك حاجة ماسة للآلة الزراعية وتطورهـا ومـن هـذه الحاجة بدأ التطور الصناعي، ووجدت طبقة متمـيزة مـن المجتمـع لا تـزرع الأرض ولاترعى الماشية ولا تمارس التجارة إنها طبقة الصناع والحرفيين كالحدادين والنجـارين والنساجين، وفي هذا المجتمع المختلط من المزارعين والحرفيين استعادت الأسرة بعضـا من خصوصيتها على حساب المجتمع، وذلك بسبب السكن فـي منـازل مبنيـة بـالطوب أوبالطين لكل منزل باب يفتح عند الحاجة ويغلق أغلب الأوقات، وهـذه مـيزة لـم تكـن موجودة في مجتمع القبيلة الذي استخدم الخيام القابلة للطي والنقل عند الحاجة تلك الخيـام ذات الأبواب المفتوحة على الجهات الأربع والأصوات المتسربة للداخل والخـارج حيـث كانت الأسرة منفتحة على القبيلة منغمسة فيها بعمق، لم تكن هناك إلا خصوصيات ضئيلـة وكان أي فرد من أفراد القبيلة يدخل أي بيت فيها لمجرد الاستئناس إن وجد صاحب البيـت أو لم يكن موجوداً، بينما نجد أن هذه الظاهرة انحسرت في مجتمع القرية بسـبب البـاب المقفل والذي لا يفتح إلا بعد الطرق ولحاجة هامة للطارق، ورغم ذلـك فلـم تقـدم تلـك الخصوصية المكتسبة لأفراد الأسرة مزيدا من راحة البال وذلـك بسـبب طغيـان مـلاك الأرض على فلاحيها الذين تحولوا من رعاة يملكون بعض الحرية إلى مزارعيـن عبيـد لايملكون من أمرهم شيئا، وصار بعد ذلك صاحب الأرض إذا شاء بيع أرضه يبيع معـها فلاحيها، ولم يستطع المجتمع الرعوي ولا الزراعي أن يفرز بتطوره إلا أنظمة ديكتاتوريـة متعددة ومتجاورة تحولت في مراحل متقدمة من التطور إلى مفهوم الدولة تحت راية أقـوى

تجمع فيها. وفي مفهوم الدولة ذات التجمعات القبلية والزراعية وجدت أولى الشرائع المكتوبة، ومنها على سبيل المثال شريعة حمورابى المشهورة والتي يعتبرها بعض المؤرخين (ماير.ج، وكولر) أول شريعة مكتوبة حضارية في التاريخ الإنساني.

كانت مبررات الشرائع والقوانين تصب في إقامة العدالة الاجتماعية كنتيجة حتمية لتضخم التجمعات البشرية وزيادة عدد السكان، ولكن تلك المبررات أصبحت غاية بحد ذاتها من حيث أن معايير القوة كانت تدور حول زيادة عدد السكان التي تتناسب طردا مع زيادة عدد الرجال والمقاتلين المدربين وصناع وسائل القوة الرادعة من سيوف ودروع ورماح .

لم تكن القبائل البدوية لتأخذ مكانتها بين جيرانها وتكسب احترامها إلا من خلال عدد سكانها وكثرة رجالها، وفي ذلك يقول عمرو بن كلثوم قصيدته المشهورة في الفخر:

أبا هند فلا تعجل علينا ... وأنظرنا نخبرك اليقينا

إلى أن يقول :

ملأنا البر حتى ضاق فينا ... وسطح البحر نملأه سفينا

ونشرب إن وردنا الماء صفوا ... ويشرب غيرنا كدرا وطينا

إذا بلغ الفطام لنا رضيع ... تخر له الجبابر ساجدينا

وتدلنا تلك الأبيات البسيطة على أن معايير القوة كانت تتمثل في زيادة عدد التجمع البشري وقوة رجاله ووفرة أسلحته، ولم تكن هناك حاجة لبناء جيش متفرغ للقتال إلا بعد نشوء الأمم الكبيرة والدول القوية، فعلى مستوى التجمعات القبلية كان يشكل الجيش المقاتل آنيا من كل الرجال المدنيين القادرين على حمل السلاح واستعماله عند حدوث أية حاجة قتالية أوغزو مفاجئ، وبعد انتهاء الحرب كان يعود كل جندي إلى عمله ولا زالت بعض الدول المعاصرة تتبع هذا النظام العسكري تحت اسم نظام التجنيد الإجباري والاحتياط إضافة إلى الجيش النظامي المتفرغ، وكانت التجمعات الضعيفة أوالقليلة العدد تنضوي أوتنضم سلميا لتجمعات أقوى وأكبر عددا حتى لا تتعرض لخطر الغزو المفاجئ والضم القسري، وهكذا كانت الأمور تسير في صالح التجمعات الكبيرة وكأن صراع البقاء ومتطلبات الأمن والحماية كانت تدفع التطور الاجتماعي في طريق الدول الكبيرة والإمبراطوريات، وفي مثل هذه الدول كانت هناك حاجة ماسة للقوانين والشرائع التي

تنظم المجتمع وتحقق العدالة للجميع. لكن تلك العدالة المنشودة لم تحصل بلمسة ساحر ولم تتحقق بمجرد سن القوانين والشرائع، فالأنانية الفردية كانت تحدّ من تحقيق العدالة وتشوه الشرائع لصالح القوي وضد الضعيف، ورغم أن الحاكم الأعلى وبطانته وحاشيته كانوا فوق تلك القوانين فقد كان تطبيقها أيضا على سواد العامة يخضع لاعتبارات القوة وسطوة المال، ولذلك فقد ظلت تلك العدالة حلم الإنسانية الأول وهاجسها الرئيسي، أريد أن أقول من خلال ذلك أن سن الشرائع لا يعني بالضرورة إحقاق العدل الحضاري إذا لم يتخل الإنسان عن مطامعه الفردية في سبيل الصالح العام واحترام القوانين سواء كانت تعمل لصالحه أو لصالح غيره، وهذا لا يتأتى إلا بعد تدريب وترويض طويل من خلال صناعة الإنسان المتحضر بوسائل التربية المختلفة، ولذلك لايحق لنا أن نستغرب طول الفترة الزمنية التي استغرقها النمو الحضاري للمجتمع البشري خلال عشرة آلاف سنة أوأكثر تخللته آلاف الحروب والمجازر ورافقته آلام ودموع وحسرات. إن النقلة الهائلة بين مقولة: إن لم تكن ذئبا أكلتك الكلاب ومقولة: عش ودع غيرك يعيش استغرقت تاريخا حافلا بالآلام من عمر البشرية حتى أدركَ الإنسان في النهاية أن الآخر يمكن أن يكون عاملاً مساعداً لتبادل الخدمات، وأنه ليس في كل الأوقات يشكل عدوا خطرا ومنافسا شرساً.

وقد ساهمت الأديان السماوية بشكل أو بآخر في إنجاز هذه التربية الحضارية لروح الإنسان الذي لم يعد بحاجة لمراقبة تصرفاته وسلوكه من قبل سلطة خارجية تمثل القانون لأن هذه السلطة تحولت إلى ضمير ديني داخلي وتطوير الأنا العليا الصارمة، والتي أدت إلى زيادة حدة الصراع الداخلي بين الغرائز والروادع الدينية، وبالتالي فقد زادت من شقاء الإنسان على المستوى الفردي ولكنها كانت على المستوى الاجتماعي تطوراً هاماً في المضمار الحضاري.

كان ظهور الأديان السماوية حاجة ضرورية كرد على التعسف الفردي في استخدام القوة لإخضاع الشعوب الضعيفة والتمييز العنصري والقبلي في مراحل الإمبراطوريات الأولى، وكانت القوانين الوضعية تكتب من أجل الحفاظ على امتيازات الشعوب الغازية والمتسلطة وليس لإحقاق العدل العام لصالح الجميع. وفي تلك السنن والشرائع كان يشار إلى حقوق تلك الشعوب المهيمنة وامتيازاتها، ولكن لا يشار فيها إلا إلى واجبات الشعوب

المستعبدة والتزاماتها من ضرائب ومكوس تجاه طبقة الأسياد التي يجوز لها امتلاك العبيد وتوزيع الأعمال الممتهنة عليهم من حمل الأثقال وتنظيف المدن والمعابد والعمل في المزارع والقتال في صفوف الجيش بالرتب المتدنية، وكانت قوانين العبودية والرق تجيز لأي إنسان من شعب الأسياد استعباد ما يشاء من الجواري والعبيد من الشعوب الملحقة بالإمبراطورية، لذلك جاءت الأديان بوصفها صاحبة الشرائع المحايدة بوضع جميع بني البشر تحت نفس القوانين والشرائع لا تتحيز إلا للمؤمنين بغض النظر عن جنسهم وقوميتهم أولونهم أولغتهم يتساوون في الواجبات والحقوق أمام الله. جاءت لتصحح أوضاعا خاطئة وتعيد مسار التطور الحضاري إلى طريقه الصحيح. ورغم ذلك فقد استغلت الأديان أيضا فيما بعد في سبيل تحقيق أطماع الأقوياء وأطلت الشعوبية والعنصرية والطائفية برأسها لتزيد من معاناة الإنسان وآلامه.

إن غاية الحضارة النهائية هي بناء الإنسان الفرد بناء داخليا يمكنه من إقامة مجتمعات يسود فيها النظام وتنتفي الفوضى، ويأخذ كل ذي حق حقه بناء على إنجازاته المادية وليس بناء على أية اعتبارات أخرى، وفي مفهوم القوة يستخدم التفوق البدني والفكري بادئ ذي بدء للدفاع المشروع عن النفس أو لردع محاولات الاعتداء أو الاحتواء ولكن في مراحل متطورة من نمو القوة نجد أن تلك القوة بدأت تستخدم في تعزيز ذاتها وذلك بإزاحة الدول والشعوب المجاورة كخصوم محتملة وتوسيع رقعة السيطرة والنفوذ وضم الموارد المادية لتلك الشعوب تحت مبررات تدعيم القوة والضربات الوقائية، وهكذا تتحول القوة الدفاعية الخيرة إلى قوة عدوانية غاشمة غايتها الاحتلال والتوسع وتصبح آلية المبررات كالآتي:

نحن أقوياء ومن الظلم أن نعيش في هذه الأرض القليلة الموارد بينما يتمتع الضعفاء بأراض خيرة معطاءة، ونجد أنّ صراع البقاء يختبئ دائما تحت كل الشعارات البراقة والقيم الإنسانية من عدالة وحقوق الإنسان وغيرها .

وتعتبر الدولة في نظر علماء الاجتماع المكسب الحضاري الذي أفرزته عصور طويلة من التطور الإنساني نظرا لما فيها من قوانين (حتى وإن كانت جائرة في بعض الأحيان) ونظم ومؤسسات تنظم علاقات الأفراد وتوزع تخصصات العمل والنتاج المادي، ولكن الإنسان لم يزدد إلا شقاء رغم ما تمتع به أحيانا من غطاء أمني مؤقت

وتواصل اجتماعي لم يزده إلا معاناة وإحباطا، فالقوانين التي تأخذ بعين الاعتبار مصلحة الجماعة هي مجموعة من الأوامر والنواهي تحد من رغبات الفرد، وتكف من أهوائه تحت طائلة العقاب ورغم أن تلك القوانين (حتى وإن افترضنا بأنها كانت قوانين نزيهة تعمل لصالح المجموع دون تمييز) كانت قد رفعت الإنسان من مراحله البهيمية الأولى إلا أنها أضافت إلى حياته الكثير من المنغصات وكأنها تقول: حسنا تريدون أن تكونوا متحضرين فليكن، ولكن ذلك لن يكون بدون ثمن.

إنّ النمو السكاني المطرّد هو المسؤول عن تلك المسيرة التطورية للمجتمعات البشرية في طريق الحضارة، فلو بقيت أعداد سكان الأرض على حالها بحيث يتساوى عدد الموتى مع أعداد المواليد، لما اضطر الإنسان للبحث والتنقيب عن موارد جديدة للأرض وأساليب جديدة لاستثمارها أي للسير مرغما في طريق الحضارة، ولا احتاج إلى اختراع القانون المنظم للتجمعات البشرية، ولا كان مهما أن يخترع الوسائل المتطورة للدفاع عن النفس طالما أن صراع البقاء ظل مقتصرا على قلة من الناس تفوق مواردهم كل حاجاتهم وتتسع لهم الأرض بحالتها الفطرية ، إذن فجوهر القضية هو نمو سكاني يصعب التحكم فيه يؤدي حتما إلى صراع محموم على البقاء وحيث أنّ الحاجة هي أم الاختراع فإن هذا الصراع أدى بالضرورة إلى الانقياد في طريق الحضارة .

إن النقلة الهامة من المجتمع القبلي والعشائري إلى مجتمع الدولة مهد الطريق لاستنباط القوانين من التجارب اليومية للمجتمعات البشرية ومشاكلها المعاشة، فاستتباب الأمن والنظام في كتل بشرية متراصة تعيش على أرض واحدة ومتصلة يحتاج إلى مجموعة من الشرائع والقوانين المكتوبة التي تصون حقوق الضعفاء وتحد من تعسف الأقوياء بينما لم تكن التجمعات البشرية القبلية بحاجة لمثل تلك القوانين طالما أن شيخ المجموعة يمثل السلطة التشريعية والتنفيذية الواحدة والتي تسيّر الأفراد بمجموعة من الأعراف والتقاليد غير المكتوبة والتي كانت تخضع غالبا للحالة المزاجية للزعيم، ورغم ذلك فلم يختلف الوضع كثيرا باستنباط القوانين وكتابتها طالما ظلّ الحاكم الفرد مطلق الصلاحيات يغيرّ في تلك القوانين ما يشاء كلما اقتضت ضرورة مصالحه ومصالح بطانته مثل ذلك التغيير. وتعتبر الثقافة الغربية أنظمتها المتطورة في الحكم الناتج المنطقي لتطور الحضارة من حيث أنها أنظمة جمهورية أو ملكية يعتمد نظامها الأساسي على حكم الشعب

لنفسه واختيار ممثليه، وما كان ليحصل مثل هذا التطور البطيء دون مرور الإنسان بخبرات مريرة وتجارب قاسية في أنواع متعددة من أنظمة الحكم الجائرة، وما كان للمجتمع الغربي أن يصل لمثل تلك النظم التي تصون حقوق الإنسان لولا حصول تطور مواز في أخلاقية المواطن الفرد. فالديمقراطية ليست امتيازا وحرية فردية وحسب، بقدر ما هي مسؤولية شخصية تجاه المجتمع، كما أنها لا تعطى لمن ليس أهلا لها ومن لايحسن استخدامها. وهي تشبه بذلك السكين التي تعطى لطفل أو لرجلٍ أخرق يعبث بها فيؤذي نفسه، وهي تتحول في الشعوب التي لم تنل حظا وافرا من الحضارة إلى فوضى شاملة تسيء إلى المجتمع بأكمله، وهناك العديد من الأمثلة التاريخية التي تحول فيها تطبيق الديمقراطية إلى نوع من الفوضى والحروب الأهلية، وعندما يصل الإنسان إلى درجة كافية من التحضر بحيث يحترم الرأي الآخر ويؤمن بالانصياع لرأي الأغلبية ويتخلى عن تبني الأفكار الثابتة التي لا تقبل النقاش ويمارس التعبير عن رأيه بالوسائل الحضارية والقنوات الإعلامية المقبولة ويتخلى عن استعمال القوة في فرض وجهة نظره فإنه يصبح مؤهلا لممارسة الديمقراطية.

ويحتفظ عالم اليوم بأمثلة واضحة وصريحة عن جميع أنظمة الحكم التي مرت بها البشرية منذ النشأة الأولى للتجمعات البشرية وحتى أحدث الأنظمة الديمقراطية، وهي نماذج قابلة للدراسة بكل تفاصيلها حيث تجد تشكيلة واسعة من التدرج الحضاري يرتقي فيه الإنسان من الأنانية المفرطة والفوضى إلى مرتبة الغيرية والإيثار، وهناك فرق أساسي بين أن تطيع زعيم القبيلة خوفا من عقابه وبطشه وبين أن تحترم القانون لأنك تؤمن بأنه خير للجميع، بين أن تلتزم بالشرائع الدنيوية والدينية خوفا من العقاب وبين أن تلتزم بها لأنك تؤمن بها، وهكذا نجد أن الأديان والشرائع السماوية كانت قد أوجدت طبقة من المؤمنين التي تفعل الخير لأنه خير وليس لخوف من عقاب أو طمعا في ثواب وهذه هي الغاية القصوى للحضارة التي تسعى دائما لبلورة روح الإنسان والاقتراب به من مراتب الملائكة. والفرق الواضح بين المقولتين: أنا أولا ومن بعدي الطوفان وبين: فلا هطلت عليّ ولا بأرضي سحائب ليس تنتظم البلاد هو الفرق الموازي للفرق بين الحضارة والتخلف .

ولا نستطيع أن ننكر بأن الحضارة ساهمت في إثراء الخبرة الإنسانية المعاشة عن

طريق التجربة بتلمس مواقع الخطأ والصواب وأفرزت مجموعة من المبـادئ الحضاريـة نلقنها جاهزة لأولادنا بالتربية المنزلية والمدرسية والجامعية حتى تصبح جـزءاً لا يتجـزأ من قناعتهم الفردية كحقوق الإنسان والديمقراطية، وهذه المبادئ هي المحصلة التراكميـة للحضارة الإنسانية خلال تاريخها الطويل، فهل أدت تلك المبـادئ إلـى إسـعاد الإنسـان أوعلى الأقل إلى التخفيف من شقائه ؟.

وحتى نجيب على هذا السؤال لنأخذ مثالا حيا من الحضارة الماديـة للعـالم الغربـي المعاصر، فهل يتمتع الإنسان الغربي بكامل حقوقه المعلنة ؟ في الظاهر؟ نعم، ولو أنّ هـذا الظاهر يكلف ذلك الإنسان ثمنا باهظا من التوتر والشقاء فهو يمارس حقه الانتخابي بأمانـة تامة ويعبر عن رأيه في وسائل الإعلام المتاحة بالطرق الحضارية، ويتمتع بحـق العمـل والضمان الاجتماعي والصحي والتعليمي، ولكنه يقيّم ماديا حسب إنتاجـه ويعـامل كآلـة صماء وليس كإنسان مؤلف من كتلة من المشاعر والأحاسيس، خاصة وأن الحضارة قيدتـه بعامل الوقت والسباق التنافسي المحموم للإنتاج، وبنت حوله جدارا سـميكا مـن التفـرد والانعزال الاجتماعي، وقد أصبحت ظاهرة – الجيران الغرباء والعائلة الممزقة – ظـاهرة شائعة في العالم الغربي وليس أمرا مستهجنا مثلا أن لا يرى الأب أولاده إلا فـي أعيـاد الميلاد والمناسبات المتباعدة، إن الفرق الاجتماعي بين الحضـارات الشـرقية والغربيـة يرتكز أساسا على شبكة العلاقات الاجتماعية التي تنحسر في الحضـارة الغربيـة حتـى حدودها الدنيا بحيث تصبح قيمتها مرتكزة فقط على المصلحة الماديـة دون النظـر إلـى الاعتبارات الإنسانية والعواطف العائلية والقيم الروحية للصداقة والأخوة والزواج والأبـوة والبنوة وما إلى ذلك من العلاقات التي تكسب الإنسان قيمته الروحيـة المنزهـة عـن أي اعتبارات أخرى . إنّ غاية الحضارة النهائية هي إسعاد الإنسان وذلك بالتخفيف من أنانيتـه الفطرية وتدريبه على الإيثار والتعايش السلمي مع الآخرين، ولكن صـراع البقـاء الـذي يزداد حدة وضراوة كلما ازداد عدد سكان العالم وتناقصت الموارد المتاحة يقـف حجـر عثرة ومانعا قويا ضد المسيرة الحضارية. ومهما تبجحنا بأن الحضارة روضت الإنسـان من غرائزه البهيمية إلى وضعه الإنساني المعاصر فإننا لا نسـتطيع الادعـاء بـأن هـذا الترويض كان ناجحا مائة بالمائة، تشهد على ذلك ملايين الحوادث اليومية من قتل وسـرقة واختلاس واغتصاب وحروب تنتشر على امتداد الأرض .

أليست شريعة الغاب هي العدو التاريخي للحضارة ؟ ومن يدعي في هذه الأيـــام أننـــا لانعيش فعلا في زمن تسوده شريعة الغاب رغم كل التبجحات ؟ أليـــس تقزيـــم الإنســـان واقتصار قيمته على المنظور المادي في أكثر المجتمعات حضارة وتبجحا يعتبر انتقاصـــا لقيمته الروحية والحضارية ؟ أليس التمييز العنصري والطائفي والعرقي هو بكل بســـاطة انتقاص لحقوق الإنسان فكيف ندّعي إذن أنّ الحضارة التي أفرزهـــا تطـــور المجتمعـــات البشرية من أجل سعادة الإنسان لم تضف إلى همومه إلا آلاما جديدة ؟ ولـــم تخفـــف مـــن متاعبه إلا لتضيف لها متاعب جديدة. ورغم أن جميع قوانين العالم على اختلاف أنظمتـــها السياسية تصب كلها في المقولة الشهيرة (تنتهي حريتك عندما تبدأ حرية الآخرين) فإننـــا غالبا ما نجد أنّ هذه الحدود لا تقبل الثبات أو الاستقرار طالما أن الإنسان وبحكم مركـــزه المالي والاجتماعي يفرغها من مضمونها الحضاري بالاحتيال عليها والهروب من تطبيقـــها كلما اقتضت الضرورة للحفاظ على مصالحه الخاصة فيفلت الأقوياء من ســـلطة القـــانون الذي لا يطبق في معظم الحالات إلا على الضعفاء بغض النظر عن نوعية نظـــام الحكـــم وأساليبه ومنطلقاته.

كانت شريعة حمورابي في مدينة بابل الآشورية قد تناولت فـــي قوانينـــها تفصيـــلات ثانوية كثيرة في حياة الإنسان لم تكن قد ذكرت من قبل في أية شريعة إنسانية، وقد كـــانت هذه النقطة مصدر إعجاب المؤرخين بالحضارة البابلية في الألف الثالث قبل الميـــلاد فقـــد نظمت تلك الشريعة الأحكام المدنية والجزائيـــة ، وأوضحـــت قوانيـــن الملكيـــة الفرديـــة والجماعية وأصول الإيجار والاستئجار وقواعد الزواج والطلاق وأحكام الســـرق والعبيـــد وقوانين الإرث والحقوق التجارية. وقد استمد منها الكنعانيون معظم شرائعهم، ونسبة إلـــى الشرائع البدائية في تلك الحقبة التاريخية كانت شريعة حمورابي قفـــزة حضاريـــة رائعـــة ومثار إعجاب المؤرخين. فهل سار التطور الاجتماعي والسياسي بعد ذلـــك علـــى نفـــس المنوال من التقدم الحضاري ؟

طبعا لا !! فهناك انتكاسات حضارية حصلت بعد ذلك نتيجـــة الحـــروب والغـــزوات وانقراض الأمم وزوال الدول أعادت الإنسان إلى أنظمة اجتماعية وسياسية أقـــل تطـــورا، ولكن المحصلة العامة للرحلة الإنسانية الطويلة عبر آلاف السنين كانت مـــا نعايشـــه الآن من حضارة مادية وفكرية تنتشر على مساحة الأرض في نهاية القرن العشرين .

ولكن ما هي المحصلة العامة للإنجازات الفكرية للحضارة ؟

إنّ تحول الإنسان البدائي من كائن همجي ومزاجي لايخضع لأي نوع من أنواع الالتزام الاجتماعي واحترام القانون إلى إنسان متمدن يسيطر على غرائزه وأهوائه ويحترم النظام وآراء الآخرين هو بحد ذاته مكسب لا يستهان به رغم بعض الاستثناءات من الخارجين على القانون . هذه النقلة الحضارية ما كانت لتحصل فجأة كطفرة نوعية لولا ثلاثين ألف عام من الخبرة والتجارب الحياتية المريرة. فالقانون والفن والدين والفلسفة والعلم وكل ما تفرع عنها من إيجابيات رفدت المخزون الحضاري للإنسان بملايين الأعمال الفكرية التي تتوج عصرنا الراهن بإنجازات رائعة من النظريات والتجارب والمذاهب الفلسفية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وتلك المكتبات العالمية المنتشرة على مساحة الأرض والزاخرة بملايين الكتب ما هي إلا الذاكرة البشرية منذ أن عقل الإنسان حتى اللحظة الراهنة ، فعلى المستوى الاجتماعي والسياسي تعتبر التجمعات الديمقراطية أرقى أنواع الأنظمة البشرية لحفظ حقوق الإنسان رغم ما يعتريها من تجاوزات أو انتهاكات تعزى إلى استيقاظ الغرائز البدائية في الإنسان بين الحين والحين من أنانية فردية وطمع وعدوانية يفرزها صراع البقاء .

وعلى المستوى العلمي انبثق من ذلك الحيوان الآدمي الذي كان يقف ذات يوم في مواجهة الوحش الكاسر في صراع البقاء ليأكل أحدهما الآخر تبعا لموازين القوة، انبثق عالم الذرة والحاسوب الذي غزا بمقتنياته المادية وأجهزته التقنية أعماق الأرض والسماء على حد سواء، كما استطاع صقل ذوقه الجمالي فأنتج أنواعا راقية من الفن الرفيع من رسم ونحت وشعر وموسيقى، بل و تزود بمعايير سامية للأخلاق التي لم يكن يعرفها .

إن المحصلة التراكمية للإنجازات الحضارية نختزلها حاليا في مجموعة من وسائل التربية المنزلية والمدرسية نلقنها لأولادنا خلال فترة إعدادهم وترويضهم ليكونوا أفرادا مقبولين في المجتمع، وكلما طال عمر الحضارة كلما طالت فترة الإعداد التربوي والدراسي لأطفال المجتمع حيث تبلغ حاليا اثنان وعشرون عاما بما فيها المرحلة الجامعية، بينما لم يكن الإنسان البدائي مضطرا لأن يعلم ابنه أكثر من قذف الرمح وتسديد السهم وبناء الكهف لأنه لم يكن ليحتاج في حياته العملية لأكثر من تلك الممارسات اليومية

إن الصراع من أجل البقاء يستدعي من إنسان هذا العصر التسلح بالعلم والمال

والذكاء والأخلاق وليس بالرمح والفأس حتى يكسب معركته الحياتية فهل في هذه الرحلة المضنية للإنسان ما يبهج النفس أويرضي الفؤاد ؟ وهل يستطيع بعد كل تلك المبررات أن يتخلى عن هذه الرحلة الإلزامية ويرتد إلى البرية البكر ليعيش فيها على نهج أسلافه الأوائل في عصر تتسابق فيه الأمم ويتناحر فيه الأفراد من أجل الفوز بصولجان التفوق ؟

حلم أفلاطون ذات يوم بجمهورية مثالية تحكمها ثلة من الفلاسفة وتكون كل رعيتها من السعداء .

فقد خطط لها نظامها الديمقراطي وطرق انتخاب مجالس أعيانها وإدارات التشريع والتنفيذ فيها حتى أصبحت مثلا خرافيا لطموحات الإنسان. إلا أنها ظلّت حبرا على ورق ونظرية مثالية غير قابلة للتنفيذ لأنها أسقطت من حسابها غرائز الإنسان الفطرية التي تطل برؤوسها بين الحين والآخر من خلال الواجهة المصقولة للإنسان المتحضر، ومن هذه الغرائز الذميمة الأنانية والتملك والتنافس والتسلط والعدوانية وإمكانية التعسف في استعمال القوة, وأنه لو قيض لأفلاطون تحقيق جمهوريته بطريقة أوبأخرى لتحول فلاسفتها وحكماؤها إلى أعتى المتسلطين وأكبر الطواغيت.

وبحجة الدفاع عن الجمهورية المثالية الوليدة وصيانة نظامها الديمقراطي المعجزة من عبث العابثين وطموح المارقين المغامرين سينسف أفلاطون ورفاقه الفلاسفة كل جماعات المعارضة ويخنقون كل الأصوات الأخرى التي لا تنخرط في جوقة التسبيح والتهليل وبهذه الغيرة الظاهرية على المكتسبات الحضارية يتحول الفيلسوف والمصلح الاجتماعي إلى دكتاتور ظالم وحاكم جائر يخنق الحريات ويعطل مؤسسات التشريع.

وعندما نتفحص الأمم المتعايشة حاليا على سطح الأرض وندرس أكثرها حضارة وتقدما وأوسعها حرية وديمقراطية نجد أنها لا تخلو من فقر مدقع وجهل عميق وعصابات إجرام منتشرة وشيوع القتل بالمجان وسطوة بيوت المال وأصحاب النفوذ بحيث يفلت الأقوياء من عقاب القانون، بينما يقع الفقراء والناس العاديون فأين ذهبت كل الإنجازات الفكرية للحضارة ؟

كما أننا نشاهد بأم العين أن تلك الأمم المتجاورة تحكم علاقاتها المصلحة المتبادلة والمشتركة، وعند غياب هذه المصلحة تسود شريعة الغاب في استخدام القوة الغاشمة وتصبح المبادئ مزدوجة والمعايير غير ثابتة وتتواتر كل المبررات والمسوغات لدعم

العدوان والاغتصاب والغزو والتدمير فأين هي حقوق الإنسان التي يتقبون بها آذاننا كل صباح ومساء ؟

وطالما أن من حقنا أن نتعرف على مفردات تلك الحقوق التي نسمع بها ولا نراها فلا بأس من أن ندرجها كمفردات حضارية أفرزتها التجارب البشرية عبر آلاف القرون من عمر الإنسانية والتي تمخضت عنها الثورة الفرنسية بعد استيلائها على سجن الباستيل عام ١٧٨٩ م , وتتلخص فيما يلي :

١- لكل إنسان الحق في القول والفكر والعمل بغض النظر عن جذوره الاجتماعية ولغته ولونه.

٢- لكل إنسان الحق في التعليم والرعاية الصحية بغض النظر عن جنسه ولونه ولغته.

٣- لكل إنسان الحق في أن يحدد مكان إقامته ونوع جنسيته وبالتالي فليس لأحد الحق في منعه من الهجرة والترحال والانتماء الفكري والوطني.

٤- لكل إنسان الحق في التعبير عن رأيه الديني والسياسي والاجتماعي بكل الوسائل المتاحة لديه وضمن حدود النقاش المهذب الذي يحترم الرأي الآخر ولا يصل إلى مرتبة السب أو التحقير كما لا يصل إلى حد الاعتداء الفكري والجسدي أو التهديد بهما .

٥- لكل إنسان الحق في الإضراب عن العمل إذا وجد أن هذا العمل يستغله ولايعطيه حقوقه كاملة.

٦- لكل إنسان الحق في أن يجد من يدافع عنه إذا تعرض للأذى الجسدي والمعنوي وأن يحظى بمحاكمة عادلة بغض النظر عن انتماءاته الدينية والفكرية والوطنية.

ورغم أن معظم دساتير العالم وقوانين الدول تتضمن مثل هذه الفقرات أو مثيلاتها في صلب تشريعاتها إلا أننا نجد أن مضمون تلك الحقوق نادرا ما يطبق لاعتبارات سياسية محلية أودولية بسبب المصالح الآنية، وعلى سبيل المثال لازالت الولايات المتحدة الأمريكية التي تعتبر نفسها الأب الروحي لحقوق الإنسان تضطهد الزنوج الأمريكيين أوالملونين، وتتراخى في موضوع تلك الحقوق عند التعامل معهم، وكذلك فرنسا التي تعتبر نفسها الأب الحقيقي لحقوق الإنسان لم تدخر جهدا في الكيل بمكيالين في محاكمة الوطنيين الجزائريين ومعاملة شعوب المستعمرات. وهكذا نجد أن المنجزات الحضارية الفكرية التي وضعت لمصلحة الإنسان بشكل عام لم تخدم إلا فئات محدودة من الأمم

وكأنها كانت قصرا عليهم، وأما باقي التجمعات الإنسانية فقد كانت دائما خارج تلك الحقوق، وكجمهورية أفلاطون المثالية فشلت حقوق الإنسان في إعطائه ثمار حضارته الفكرية لأن تلك الحقوق أسقطت من اعتباراتها الغرائز الفطرية للإنسان كالتملك والتنافس والتفوق والعدوانية، أما الديمقراطية وهي أيضا إحدى الماسات المرصعة لتاج الحضارة المعاصرة والتي يتبجح بها الغربيون ويطبل لها فلاسفة القرن العشرين، فلم تستطع أن تكون إلا ديمقراطية شكلية حيث أفرغها أباطرة المال من محتواها الإنساني، وأصبحت لعبة ذات قواعد وأصول مالية يجيدون اللعب على أوتارها ويوظفونها لمآربهم الشخصية، وقد كشفت بعض الفضائح السياسية ملابسات هذه اللعبة وطرق تمويلها وفضحت أسماء بعض الجهات والمؤسسات التي تستثمرها وتستغل من ورائها أية سلطة تشريعية أوتنفيذية تحظى بمواقع سياسية في نظامها حتى أن بعض الجهات المشبوهة من عصابات المافيا والماسونية وعصابات الاتجار بالمخدرات كان لها بعض المساهمات فيها.

إن الديمقراطية ليست شكلا حضاريا فحسب من أشكال الانتخاب الحر المباشر وغير المباشر بقدر ما هي تركيبة سياسية أوسيناريو يتناوب بموجبه أصحاب المصالح المالية والنفوذ على رأس السلطة على مبدأ خذ وهات، بينما يتفرج الشعب الفعلي على تلك المسرحية وهو في واد آخر وهو يعلم أن من انتخبهم لتحقيق مصالحه لم يكونوا أكثر من دمى مأجورة لهذه القوى المالية أو تلك .

فكيف يتمتع الإنسان بحقوقه الحضارية المكتسبة في ظل هذا النفوذ البشع للقوة الاقتصادية التي انتقلت حديثا من المرحلة الإقليمية إلى المرحلة العالمية بعد ظهور الشركات المتعددة الجنسيات وابتلاع مؤسسات الإنتاج بعضها لبعض كما في عالم الأسماك حيث يبتلع سمك القرش كل ما يصغره من الأسماك ؟.

كان معيار القوة كما سبق وذكرنا في المجتمعات البدائية هو الكثرة العددية للمقاتلين ونمو عضلاتهم وكفاءة تدريبهم ووفرة رماحهم، أي أنه كان معيارا ماديا بحتا بغض النظر عن بعض الاستثناءات الخارقة كالدوافع الدينية المحرضة أوالإيمان بقضية أومبدأ، أما اليوم فقد تطور هذا المعيار وتحول إلى العلم والمال. فهذان العنصران الأساسيان يشكلان قطبا القوة وعمادا التفوق. بدون العلم يصبح المال مجرد وسيلة للرفاهية والتمتع برغد العيش وبدون المال يصبح العلم مجرد نظريات غير قابلة للتحقق ترتد إلى أذهان

أصحابها تحت مطحنة الاجترار. لكن بهما معا تتحقق القوة ويعبد الطريق إلى المجد والتفوق. ولن نغالط أنفسنا إذا قلنا بأنّ جميع دول العالم تسعى لامتلاك هذين العنصرين الأساسيين من أسلحة الحضارة في سبيل التفوق أوعلى الأقل في سبيل البقاء. وعلى كل دولة تحاول جاهدة الحفاظ على وجودها ومستقبل أطفالها أن تسأل نفسها كل يوم عن إنجازاتها العلمية وأين تنفق أموالها؟ وبهذين السؤالين فقط وبإجابتهما فقط يتحدد منحى الطريق الحضاري لهذه الأمة أوتلك.

لقد أبرزت القوانين والشرائع فكرة حقوق الإنسان وأنتجت تجارب المجتمعات والدول فكرة الديمقراطية، كما أفرزت الفلسفة والدين مفهوم الأخلاق والإيمان وجميع هذه المكتسبات كانت ناتجا حتميا للنمو السكاني على سطح الأرض ونشوء الأمم والمجتمعات، ويفترض بتلك الإنجازات أن تكون قد مهدت الطريق لإيجاد مجتمعات مثالية خالية من السلبيات ومحققة لسعادة الإنسان، فهل نجحت الحضارة في الوصول إلى غايتها ؟ نعم لقد استطاعت تلك المحصلات الحضارية خلال ثلاثين ألف سنة من أن تدجن الإنسان بغض النظر عن الاستثناءات التي ذكرناها سابقا وتحويله من حيوان أناني صرف إلى إنسان اجتماعي مثقف يعرف حقوقه وواجباته وينظم حياته وفقا للمعايير الاجتماعية التي يرضى عنها المجتمع، ولكن هل منحته تلك الحضارة المزيد من السعادة ؟ أو هل خففت عنه أعباء الألم والإحباط ؟ بالطبع لا، فالغرائز الفطرية التي توارت عن ساحة الشعور لايعني أنها ماتت ولكنها قابعة هناك في قاع اللاشعور تحرك خيوط السلوك وتسبب الكثير من الصراع الداخلي والحصر شاكية من سجنها الحضاري.

هذا التدجين البطيء للإنسان والذي مارسته عليه الحياة خلال أحقاب طويلة من التجارب البشرية نختصره اليوم بمجموعة من المعايير التربوية التي نلقنها لأطفالنا، والتي نطلق عليها اسم الأخلاق حتى يرضى عنهم المجتمع ولا يعانون من النبذ أوالعقاب ورغم أن تلك المعايير تختلف من زمن لآخر ومن مكان لآخر إلا أنها تسير ضمن خط عام تعترف به كل شعوب الأرض ودساتيرها وأديانها (لا تسرق، لا تكذب، لا تقتل، أحب لأخيك ما تحب لنفسك، اعطف على الصغير، و احترم الكبير، لا تنتهك حرمة جارك، إذا صفعك أحدهم على خدك الأيمن فأدر له الخد الأيسر وهكذا الخ...) ولكن معظم هذه الأوامر والنواهي قد تبدو سخيفة في بعض الظروف والملابسات فكيف لا أكذب وأنا أرى الصدق

في بعض المواقف قد يؤدي بي إلى التهلكة، كأن أصارح رئيسي في العمل بأنه غير كفء ولا مؤهل وأنه لا يستحق الراتب الذي يتقاضاه، وكيف أحترم الكبير وهو لا يحترم نفسه ولا الناس وكيف أعطف على الصغير وأنا أراه مؤذيا سليط اللسان، ولماذا أتسامح مع من يصفعني وهو لم يتسامح معي، كما أني سأجحف فعلا بحق أخي إذا أحببت الغريب مثل حبي له، فكم من الجهد والطاقة سيكلفني تصنع مواقف لا تلائم مشاعري الحقيقية، وكم سيشعر طفلي بالظلم وهو يسمعني أطلب منه الالتزام بمواقف لا ألتزم بها في بعض الأحيان، ألا يسبب له هذا كثيرا من التعاسة والإحباط ؟ وقليلا من الأمن الداخلي وأنا آمره بكف مشاعر طبيعية لست قادرا أنا نفسي على كفها ؟ وكيف سيكون شعور ابنك تجاهك وأنت تضربه وتعاقبه أمام ابن الجيران الذي خطف له لعبته فاضطر لضربه دفاعا عن النفس وحتى تبدو أنت أكثر جدية في التربية من جارك الذي أهمل في تربية ولده تتهال على ولدك بالضرب عقابا له على فعلته، ثم كم سيكون موقفك سخيفا أمام ابنك وأنت تضربه مرة ثانية وهو لم يستطع الحفاظ على لعبته التي سرقت منه دون أن يدافع عنها.

ورغم أن التربية الأخلاقية لا يمكن التخلي عنها من أجل صلاح المجتمع وتنظيم شؤونه واستتباب أمنه فإننا لابد أن نعترف من أنها سببت له الكثير من البؤس والإحباط، وهذا ما يعيدنا لعنوان هذا الكتاب وهو التأرجح المجنون على ميزان الحضارة بين النعمة والنقمة وأنه لا يوجد في العالم أبدا عشاء مجاني، فالمقابل الذي ندفعه يكون دائما على حساب إرضاءاتنا الفطرية لغرائز موروثة ما كان لإطلاقها على حريتها ليميزنا عن عالم الحيوان بشيء.

وقبل أن نستعرض الآليات الناجحة في كف الغرائز يجب علينا أن نتفحص مفهوم السعادة وماهيتها، فالإنسان بفطرته يسعى إلى السعادة أوعلى الأقل يحاول تجنب الألم فما هي هذه السعادة وكيف نحصل عليها ؟

٢-٣ : ماهية السعادة:

يتفق علماء النفس على أن الشعور بالسعادة يتحقق نتيجة الإرضاء المفاجئ للحاجات والغرائز التي بلغت توترا شديدا بسبب الحرمان، ولكن هذا الشعور لا يدوم وقتا طويلا، بل يؤول إلى الفتور بحكم التعود لأن السعادة بحد ذاتها هي حالة طارئة ومؤقتة مصاحبة للإرضاء اللاحق للكف أوالحرمان الشديد. ويقضي مبدأ اللذة أن يتعرض الإنسان للحرمان

أولا الحرمان من حاجة حيوية وضرورية، ثم يتصاعد هذا الحرمان ويتصاعد معه التوتر النفسي والألم الناجم عنه إلى درجة مزعجة، ثم يتم الإرضاء المفاجئ للحاجة المطلوبة ليهب الإنسان فترة مؤقتة ومحدودة من اللذة والسعادة لا تلبث أن تفتر بحكم التعود مع مرور الوقت، ثم تزول نهائيا لتبدأ بعدها مرحلة جديدة من الإعداد لنوبة جديدة من اللذة الدورية. هذه الآلية الموجية لمبدأ اللذة تثبت أنه لا توجد في الحياة سعادة دائمة، ولو كان الأمر غير ذلك لفقدت اللذة معناها وأصبحت السعادة جزءا من الواقع المعاش بحكم التعود. نضرب مثالا على ذلك صيام المسلمين في شهر رمضان المبارك فتصعيد الرغبة في الطعام والشراب طوال النهار يصعد بدوره التوتر النفسي للصائم الذي يبدو عابسا متجهما غير قادر على التعامل المرن مع الآخرين، ثم يبدأ مزاجه بالاعتدال كلما اقتربت ساعة الفطور وآذنت الشمس بالمغيب وعند الإفطار تتهلل أساريره ويبدأ بإشباع حاجته من الطعام والشراب وتستمر سعادته لفترة ساعة أو ساعتين بعد الإفطار ثم تزول بحكم التعود لتبدأ دورة جديدة من التصعيد في اليوم التالي , وفي نهاية شهر الصوم تعلن مدافع العيد فترة أطول من السعادة مصحوبة بالزينات والأناشيد بعد تغير نظام الحياة وعودته إلى وضعه السابق لرمضان، وبهذه الدورية السنوية يعتبر شهر رمضان المبارك كسرا لروتين الحياة اليومية وتغييرا لنمط الحياة مما يضفي عليها شيئا من التجديد ونوعا من البهجة.

ومما سبق ذكره من تحليل لآلية السعادة واللذة المحببة استنبطت آلية خاصة لجعل حياتنا أكثر متعة وأقل ألما، وقد أطلقت عليها آلية المتع الصغيرة وتتلخص في إطالة فترة التصعيد وجعل عملية الارتواء أكثر جاذبية وكمثال على ذلك إذا كنت ظامئا مثلا ورغبت في بعض الماء فإنني أصبر بضع دقائق إضافية لأرفع درجة التوتر، ثم أعد وعاء من الزجاج الشفاف النقي وأضع فيه بضع مكعبات من الثلج ثم أملأه بالماء وأصبر عليه قليلا حتى يبرد ويطيب ثم أبدأ بإرواء ظمئي ببطء شديد حتى أستمتع بكل لحظة من لحظات الإشباع، وكان بإمكاني عند أول شعور لي بالظمأ أن أهرع إلى أقرب صنبور من الماء لآخذ حاجتي منه بأقل متعة ممكنة، والحقيقة أن ما فعلته هو إطالة فترة التوتر والإعداد للارتواء التي لا تقل لذة عن الارتواء نفسه، وهذا يمكن تطبيقه أيضا على الطعام والجنس والكساء , كذلك في مجال تجنب الألم والمعاناة أحاول دائما أن أفكر في إيجابيات كل

مهمة أكون بصددها ولا أتطرق للتفكير في أعبائها وسلبياتها وهكذا أجـد نفسـي مندفعـا بتنفيذها بيسر وسهولة كما لو أنها تقشير بيضة مسلوقة إن كثيرا من الأشياء الممتزجة فـي حياتنا والتي نمر بها دون أن نمعن فيها التفكير تستحق أن ننظر إليها بأسلوب جديـد مـن إبرة الخياطة وحتى السيارة، كل واحدة منها تهبنا نوعا من الخدمات القيمة التـي لا تقـدر بثمن فماذا لو حاولنا تعداد هذه الخدمات الجليلة التي حصلنا عليها وكيف يمكن أن نحصـل على المزيد منها وذلك بصيانتها وتعدد استعمالاتها، كل تلك التصورات يمكـن أن ترفدنـا بكم هائل من المتع الصغيرة التي تزيد من مساحة سعادتنا اليومية وتجعل حياتنا أقل ألمـا وشقاء، من جملة المتع الصغيرة التي لا ننتبه إليها هي التسوق بأسعار مخفضـة خاصـة إذا ما شعر المشتري بأن السعر الذي حصل عليه لم يحصل عليه أحد غيره، وعلى هـذه الخاصية يعتمد الكثير من التجار في رفضهم لتحديد السعر على البضاعة المعروضـة. إن استخدام أسلوب المتع الصغيرة يمكن أن يكون في البداية صعبا لأنه يحتاج إلى نوع مـن التركيز للتغلب على عادات مكتسبة سابقا، ولكن بعد فترة من الوقت وعندما تصبـح تلـك المتع نوعا من العادات المكتسبة يمكن أن تملأ حيـاتك بكثـير مـن البهجـة والسـعادة المجانية، فإذا كنت معتادا مثلا على تناول الطعام وقوفا أمام باب الثلاجة فإنك تحتاج إلـى جهد ووقت كبيرين لتعتاد الانتظار لمائدة مرتبـة تزينـها الأطبـاق الجميلـة والمقبـلات المتنوعة، ورغم أن هذه العادة ترهق سيدة البيت يوميا ولكنها تضيف إلى سـكانه الكثـير من البهجة. إن تناول طعام العشاء مرة واحدة في الأسبوع لجميع أفراد العائلة لن يرهـق ميزانية الأسرة ولكنه سيضفي عليها نوعا من التغيير الذي يعتبر من المتع الصغيرة.

لا يدخل في منهاج الحياة أن يكون الإنسان سعيدا أوتعيسا، فهذا أمر يمكـن اعتبـاره تحصيل حاصل للتطور المستمر لآلية الحياة بجميع انتكاساتها التدميرية وسلوكها اللاغـائي فمن أين يأتي عناء الإنسان إذا ؟ وما هي مصادر بؤسه وقلقه ؟

هناك ثلاثة مصادر رئيسية لشقاء الإنسان يتفرع عنها مجموعات لبؤر فرعية تسـاهم في معاناته وألمه :

أولها : قلقه تجاه الطبيعة وكوارثها ,

وثانيها : قلقه تجاه الموت والفناء وما يتفرع عنه من بؤر الهم من المرض واقـتراب الشيخوخة.

وثالثها : قلقه من التعامل مع الآخرين والعيش في مجتمعات مزدحمة وما يتفرع عنـــه من معاناة صراع البقاء.

وفي رحلته اليومية المريرة في السعي إلى السعادة طور الإنسان آليات مادية ونفســية ناجحة في سبيل تجنب الألم والحرمان، وسوف نستعرض بقليل من التفصيل مصادر القلـق المذكورة مع بعض الآليات الدفاعية التي ابتكرها الإنسان لتجنب الحصر الناجم عنها.

١- القلق تجاه الطبيعة وكوارثها:

كانت الطبيعة ولازالت مصدر قلق مزعج للإنسان فالبراكين والــزلازل والعواصــف العاتية والسيول الجارفة والانهيارات الثلجية القاتلة والأمواج العاتيـــة ومواســم الجفــاف والتصحر وموجات الصقيع، كل' تلك الكوارث تعتبر مصادر قلق وحصر يحاول الإنســان دائما تجنبهما والتخفيف منهما، فقد بنى البيوت الحجرية المنيعة ليتقـــي شــر العواصــف والأعاصير المطرية، وأشاد السدود والموانع ليتجنب شــــر الســيول والطوفــان، وتــزود بالملابس الصوفية ومواقد النار ليحارب بها موجات الصقيع الشتوية وفي المنــاطق التــي تكثر فيها الزلازل أشاد العمارات السكنية المرنة التي تتأرجح مع الزلزال دون أن تتهدم.

إن آليات الحماية التي يتخذها الإنسان ضد الطبيعة وكوارثها المحتملة تشعره بســعادة غامرة لأنه استطاع تجنب هيجان الطبيعة وأذاها المتوقع، أبسط هذه المتــع مثــلا الســير تحت المطر وأنت تحتمي بمعطف واق ومظلة، أوأن تراقب عاصفــة مطريــة مــن وراء نافذة بيتك الحصين والمزود بموقد يمنحك الدفء والأمان، أوأن تقود سيارتك وتعبر بـــها عاصفة مطرية أورملية على طريق سفر طويل، أوأن تكون على متن سفينة ضخمة تعــبر بها المحيط في جو عاصف حيث ترتفع مقدمتها وتهبط وتتأرجح يمنة ويسرة وهي تشـــق عباب الماء كالجبل الصامد، كل تلك المشاعر تمنحك الغبطة والسكينة وتشعرك بالقوة، لقــد استطاع الإنسان بعقله وعلمه أن يسيطر على معظم الكوارث الطبيعية ولكنه يقف عــاجزا حائرا أمام بعضها كالبراكين والزلازل.

٢- القلق تجاه الموت :

منذ أن يعي الإنسان فكرة الموت ويتأكد من أنه أمر لامفر منه وهـــو يعيــش تحــت ضغط الحصر والقلق لأن فكرة الفناء وانتهاء الحياة هي فكرة مزعجة، والمــرض وهــو أحد وسائل الموت لاقـــتناص ضحاياه يصبح بؤرة حصر دائم حتى وإن لم ينته بــالموت

وباعتراف الأطباء أنفسهم أن معظم الألم الناجم عن المرض مصدره الخوف من المــوت، أوالعجز الدائم وهو أدهى من الموت، وبما أن بنية الإنسان العضوية هشة وسريعة العطب فإن الإصابة بالمرض يمكن أن تتكرر عدة مرات في السنة تؤدي حتما إلى معاناة متقطعة تجعلها شبه مستمرة عيادة الأصدقاء في مرضهم وزياراتهم في المستشفيات التـي تذكـر بالمرض، صحيح أن الإنسان بعلومه وتقنياته الطبية قد وفق في التصدي لكثير من الأمراض المستعصية والقاتلة إلا أنه لازالت هناك تشكيلة مرعبة من الأمراض المستعصية كالسرطان والإيدز والوباء الكبدي وجنون البقر الذي انتقل إلى الإنسان، إن مجرد تخطي الإنسان لسن الخمسين وظهور بعض التجاعيد على وجهه وبعض الشيب في رأسه يشعره بقدوم الشيخوخة، وهذا بحد ذاته يعتبر ناقوسا ينذر بقدوم الموت فأي حصر ينتج عن هذه المعاناة بل أي خوف !!! فما هي الآليات التي طورها الإنسان لتجنب هذا الحصر؟

إحدى آليات تجنب حصر المرض هي الوقاية والحمية والهرولة للطبيب عند أول عرض مرضي، ولكن بعض الناس أيضا ولنفس السبب أيضا يتراخون في زيارة الطبيب لخشيتهم من أن يكتشف لديهم بعض الأمراض الخطيرة التي ستنكد عليهم حياتهم، إن تودد بعض الناس في عيادة أصدقائهم في المستشفيات وانتظار خروجهم لبيوتهم هو آلية من اليات تجنب حصر المرض والمستشفيات، كذلك نجد أن بعض المتقدمين في السن يحاولون محاربة الشيخوخة في كثير من الممارسات التعويضية كإجراء الجراحات التجميلية وممارسة أنواع من الرياضة وصبغ الشعر وغيرها من الآليات.

إن الرعب من الموت ومغادرة هذه الحياة رغم آلامها هو قضية فطرية وغريزية تدفع بالإنسان بشكل خاص والكائن الحي بشكل عام إلى الدفاع المستميت عن حياته عندما يهدده أي خطر داهم، كما أن إدراك الإنسان الواعي أن حياته مؤقتة لابد أن تزول يصيبه بالدوار والإحباط، وكلما خطرت على باله فكرة الموت سارع باستبعادها وتناسيها حتى لاتعكر عليه يومه وتحد من جذوة آماله واندفاعه نحو مستقبل غير مضمون، وهذا ما يفسر وجود أساطير متشابهة في تاريخ الأمم عن نزعة الخلود مثل أسطورة الهولندي الطائر أو(باندورا) ومثيلاتها في الأساطير الصينية واليونانية وكلها تتحدث عن إنسان حصل بطريقة سحرية على أكسير الحياة الذي منعه عن الموت أومنع الموت عنه، وإن

دلت تلك الأساطير على شيء فإنما تدل على رغبة الإنسان الملّحة بحياةٍ دائمة، وقد جاءت الديانات السماوية الثلاث وهي روافد هامة في تاريخ الحضارة جاءت لتطمئن الإنسان بأنّ هناك حياةً أخرى دائمة بعد الموت وعد الله بها الصالحين من عباده والمؤمنين يوم تُجزى كلُّ نفس بما عملتْ، كذلك نجد أنّ أساطير الحضارة المصرية القديمة تتحدث عن حياةٍ أخرى يبحرون إليها بعد الموت بقارب من نبات البردي يملأونه بمختلف أنواع الأطعمة والحاجات الشخصية، ومهما تنوعت تلك الأساطير وتشعبت تفاصيلها فهي تدلُّ دلالة قاطعة على تأزم الإنسان من فكرة الموت والفناء وسعيه الحثيث للتخفيف من الحصر الناجم عنها فتلهف الإنسان للإنجاب بالإضافة إلى كونه غريزة أساسية هدفها الحفاظ على النوع هو بحد ذاته نوع من التعويض المقبول يمثل امتدادا فيزيولوجيا وروحيا لحياة زائلة لا سبيل إلى إنقاذها، ومحاولة الإنسان ترك آثار أدبية وفنية خالدة بعده لتدل عليه وبأنه كان هنا أو مر من هنا هو نوع آخر من هذا التعويض فهل انتهت متاعب الإنسان عند هذا التعويض طبعا لا !! لأن قدره في هذه الحياة هو أن يعيش في بحر من المتاعب.

٣- التعامل مع الآخر

وهو ثالث تلك المصادر من مصادر الشقاء البشري الذي يتطلب من أجل التعايش السلمي ضمن مجموعات بشرية مكتظة نوعا من الكياسة والدبلوماسية لا يتقنها إلا من أوتي قسطا وافرا من التربية المنزلية والتدريب الاجتماعي، ويستوجب هذا كف العديد من المشاعر العدائية الصادقة واستبدالها بأقنعة النفاق والرياء والتمثيل خوفا من النبذ والعزل الاجتماعي، وهذا يتطلب صرف كثير من الطاقة النفسية التي تستهلك جزءا كبيرا من المخزون المخصص لسعادة الإنسان، وهذا المصدر الثالث من مصادر القلق البشري هو من أهم المنغصات وأقواها جميعا، وفي رحلته اليومية المريرة في السعي إلى الرزق والسعادة طور الإنسان آليات مادية ونفسية في سبيل تجنب الألم والحرمان منها آليات ناجحة ومنها آليات لم تسبب له إلا مزيدا من القلق والشقاء.

فمن غريزة حب الذات (أوالأنانية) تتفرع تشكيلة متشعبة من الدوافع أوالغرائز الثانوية التي يتطلب إرضاؤها قدرا كبيرا من الجهد والطاقة وكما هائلا من الاحتكاك المباشر وغير المباشر مع الآخرين وبقدر عال من الذكاء والكياسة والدبلوماسية المرنة، فالحاجة

للأمن وحب التملك والتنافس الشريف والحاجة إلى التفوق والتميز والتفرد تقف كلها وراء سعي الإنسان اللاهث في مجال عمله لكسب المزيد من المادة والمواقع المتميزة من المجتمع تحت خطر تحول تلك الدوافع إلى العدوانية في حال اصطدامها بأي نوع من أنواع الفشل أو الإحباط، ولا يمكننا أن ننكر أن تلك التشكيلة من الغرائز الثانوية كانت مسؤولة على مدى التاريخ البشري عن كل إبداع علمي ورياضي وأدبي وفني وكل سعي حثيث لتطور الأمم في طريق الحضارة، أي أنها كانت المحرض الأساسي لنشوء وتطور الحضارة، ولكنها كانت في نفس الوقت مسؤولة عن بعض سلبياتها وعثراتها، فالدوافع الإنسانية المكبوتة بفعل الفشل والإحباط كانت تتحول إلى قنوات عدوانية خطرة أنجبت ولا تزال تنجب أعتى عصابات الإجرام والنهب وتهريب المخدرات وأشرس أنواع مجرمي الحروب والديكتاتوريين، وهنا نقع بصورة عفوية في جدلية هيجل (فيلسوف ألماني معروف) الذي أكد على التطور الحلزوني للأشياء وأن كل صيرورة طبيعية في هذه الحياة تحمل في جوهرها نقيضها ونفيها، فلماذا نستغرب إذن أن تحمل كل حضارة في التاريخ والحاضر والمستقبل أسباب موتها وزوالها إلى جانب مبررات وجودها ؟ ولو كانت الحضارة كلا شاملا لكل أهل الأرض على افتراض أنهم شعب واحد متجانس لزالت منذ زمن بعيد وأعيدت ولادتها بعد فترات متناوبة من الجهل والتخلف، ولكنها في الواقع مشعل تتناوبه الأمم حسب استعدادها الفكري وتطورها الثقافي حيث تنتهي في أمة ما عندما تبدأ عند أمة أخرى، وهذا يذكرنا بنظرية هيجل في كتابه المعروف: "العالم الشرقي" وهو مجموعة محاضرات في فلسفة التاريخ ألقاها هيجل في جامعة برلين، يعتقد فيها بأن الحضارة الإنسانية تتبع مسار الشمس في تحركها حول الأرض، وأنها كانت قد أشرقت على الصين منذ بدء التاريخ، ثم تحركت إلى الهند وفارس ومصر ثم انتقلت إلى اليونان وروما ثم إلى أوروبا وأمريكا متجاهلا الحضارة العربية الإسلامية كغيره من المفكرين الأوروبيين، ورغم أن نظريته كان فيها بعض المخالفات في الترتيب الزمني والارتداد المكاني إلا أنها تؤكد على فكرة التتابع الحضاري لشعوب الأرض الأمر الذي يعني أن الحضارة لن تدوم لأية أمة من الأمم طالما أنها تحمل في هيولاها بذور تفسخها واضمحلالها، وهي الأسباب التي ذكرناها سابقا مضافا إليها حتمية التطور الحضاري السلبي الذي سنذكره لاحقا على صفحات هذا الكتاب.

وإذا تصورنا أن الحضارة كأي موجود آخر له نقطة بداية أولحظة ولادة وفترة طفولة ومراهقة وشباب ورجولة وشيخوخة ونقطة نهاية حتمية أولحظة وفاة، فإن هذه المراحل التطورية يمكن إسقاطها على حياة الإنسان الذي يولد صغيرا ضعيفا وبدائيا غريزيا لايفقه من العلم شيئا ولا عن الحياة شيئا تقوده غرائزه الحيوانية وتحدد سلوكه شهواته الفجة ثم تتراكم خبراته الشخصية وتتسع دائرة معارفه الفردية تارة بفعل التجربة المعاشة وتارة أخرى بفعل التربية المنزلية والمدرسية التي تساعده على كف غرائزه وتصعيدها أواستبدالها حتى يصبح بعد رحلة مضنية من الصقل المعرفي والتجارب المريرة إنسانا بالغا راشدا وعاقلا. فإلى أي حد تشبه حياة الإنسان تاريخ الحضارة وخط تطورها ؟

وإذا عدنا إلى الإنسان البدائي الذي قطن الغابات والجبال وجدنا أن حياته تساوي وتوازي مرحلة الطفولة الأولى للإنسان الفرد، إذ كان محروما من اللغة والتفكير العقلاني تسيره شهواته وغرائزه وتملي عليه بيئته سلوكا مضطربا وردود أفعال عشوائية، وتوازي مرحلة الطفولة المتقدمة (من ٣ سنوات إلى ٦ سنوات) مرحلة التجمعات العائلية وامتلاكا للغة بدائية وتشكلا أوليا للشخصية والوعي بالذات، أما مرحلة الولدنة (من ٧ سنوات إلى ١٢ سنة) فهي توازي مرحلة القبائل ومجتمعات الرعي الحر وتربية الماشية والانصياع للنظام الأبوي وتشكل الانتماء والهوية والاعتزاز بالعائلة بما في ذلك تعلم بعض المهارات الخاصة ونشوء المهن الأساسية، أما مرحلة البلوغ والمراهقة وتمتد حتى العشرين في الحياة الفردية فتوازي في عمر الحضارة مرحلة التجمعات الزراعية على ضفاف الأنهار وظهور الملكية الفردية والتمايز الطبقي بين ملاك الأرض والفلاحين والعبيد مع ثراء ملموس في المعرفة الزراعية والعلمية ، أما مرحلة الشباب والنضج والتي تمتد حتى الأربعين من العمر فتتمثل في المجتمعات الصناعية والتجارية وتشكل الدول القوية من ممالك وإمبراطوريات تملك أنظمة سياسية واضحة ودساتير وقوانين مكتوبة، ومؤسسات علمية وفكرية واقتصادية هامة تقع على عاتقها مهمة التطور الحضاري والمحافظة عليه ، وفي مرحلة ما قبل الشيخوخة والتي تمتد حتى الستين من العمر تتألق الحضارة بمنجزاتها المادية والفكرية وتنعم الأمم بعصورها الذهبية ومواردها الاقتصادية حيث يسود الرفاه المادي والبطر الفكري وتعم النظريات الفلسفية ويقل العمل ويكثر التشدق بشعارات المثل العليا ثم تبدأ مرحلة الشيخوخة والانحدار العكسي نحو التشرذم والانكفاء لتبدأ حضارة

جديدة في مكان مجاور ومرحلة جديدة من الصيرورة الجدلية لتطور الأمور.

وتنتقل الحضارة من أمة إلى أخرى بواسطة الاحتكاك المباشر وغير المباشر عن طريق التجارة والصناعة ومراكز الثقافة كالجامعات والمعاهد. وكما يعلم الأب أبناءه حتى يصنع منهم رجالا متعلمين وقادرين ويمنحهم خبراته الشخصية حتى يكونوا امتدادا روحيا لحياته الفانية، كذلك تفرغ الحضارات' الآيلة للسقوط جعبتها المعرفية لكل من يطلب التزود منها على أمل الاستمرار والخلود الحضاري وذلك عندما تعجز إمكانياتها المادية عن الحفاظ على استمراريتها الزمنية.

ولكن ما هي مقومات الحضارة وعناصر تكونها الأساسية ؟

لو أرسلنا نظرة تأملية للتوزع الجغرافي التاريخي للحضارة لوجدنا أن البيئة كان لها دور هام في توزع الحضارة على سطح الأرض، وأن جميع المراكز الحضارية كانت مجاورة لمصادر المياه العذبة والأراضي المروية في السهول وضفاف الأنهار وسفوح الجبال وذلك في المناطق المعتدلة الواقعة بين خطي عرض ٣٠ و ٦٠ درجة شمالا مع بعض الانحناءات البسيطة نحو الشمال أوالجنوب، وهذا يستثني المناطق القطبية في الشمال والاستوائية في الجنوب، والتي لم يشهد لها التاريخ أي بزوغ حضاري وهذا أمر طبيعي لعدم رغبة الإنسان في السكن في مناطق قاسية مناخيا فمن المعروف فيزيولوجيا أن البرد يشل التفكير الذي يعتبر آلة الإبداع ومصدر الإلهام، وكذلك فإن الحر الشديد يورث الكسل والخمول الذي يعتبر أداة العمل وتحقيق الأفكار المجردة، ولذلك فإن جميع القبائل المتفرقة التي سكنت تلك المناطق القاسية مناخيا وطوبوغرافيا لم يتسن لها الطريق لإقامة تجمعات زراعية أوصناعية حضرية، بل ظلت منكفئة على نفسها في تجمعات بدائية.

وتتلخص أساسيات الحضارة بأربعة عناصر هامة يجب توفرها حتى يصبح الطريق ممهدا لبزوغ حضارة ما :

١- أرض خصبة ذات مصادر مائية دائمة.

٢- أمة واحدة متجانسة أو شعب واحد يتكلم لغة واحدة ويعيش على تلك الأرض.

٣- محرض ما يحث تلك الأمة على البناء الحضاري كظهور عقيدة هامة أوخطر محدق يهدد وجودها.

٤- فترة زمنية كافية قد تطول أوتقصر حتى تنضج الإرهاصات الفكرية والتداعيات اللاحقة لإثارة القوى الكامنة في الإنسان والمجتمع لتحقيق الفعاليات اللازمة لعملية البناء.

ونجد في شواهدنا التاريخية أمثلة واضحة وصريحة على تلك العناصر الأساسية للحضارة في تاريخ العديد من الأمم التي خاضت التجربة الحضارية وقامت بدورها على مسرح الحضارة الإنسانية.

يقول الدكتور ألبرت اشفيتسر وهو طبيب لاهوتي وفيلسوف ألماني في كتابه (فلسفة الحضارة) بأن الحضارة لا يمكن أن تنفصل عن المعايير الأخلاقية وبدون تلك المعايير فإن أية حضارة مهما بلغت إنجازاتها المادية تعتبر تظاهرة جوفاء لا أمل لها في البقاء بدون أساس أخلاقي، أو نظرية شاملة في الكون تبرر معنى وجودنا وتهبنا القدرة الذاتية على التضحية بالوجود الفردي لصالح الوجود الجماعي، وهذه الفكرة تنطبق على البند الثالث في عناصر الحضارة الأربع، وهو المحرض أوالشرارة التي تهب الحضارة ولادتها الأولى. وعلى سبيل المثال فإن النظرية الإسلامية في الكون التي قدمها الإسلام لعرب الجزيرة العربية كانت كافية لأن يضحي المسلم بحياته من أجل حياة أخرى في جنات ونعيم وهي خير وأبقى ، وقد انتشر الإسلام في أرجاء الأرض انتشار النار في الهشيم لأنه أعطى الإنسان الحائر مبررا لوجوده المؤقت في هذه الحياة، ولم تمض بضع عشرات من السنين على بدء الدعوة الإسلامية حتى قامت في وسط وغرب آسيا وشمال أفريقيا أروع حضارة عرفها التاريخ رغم إنكار أعدائها لها. إن العناصر الأساسية الأربعة لانطلاق أية حضارة على سطح الأرض والتي ذكرها المفكر الجزائري مالك بن نبي في كتابيه (شروط النهضة ومشكلة الثقافة) ضمن سلسلة مشكلات الحضارة باللغة العربية عام ١٩٧٩م، يمكن أن تعتبر كشروط أولية لبناء الحضارة ولكنها يمكن أن تتداخل أيضا مع مشكلة صراع البقاء التي لا تقل أهمية عنها في إذكاء الدوافع الإيجابية والتطلعات الإنسانية نحو حياة أفضل، تلك التطلعات التي ساهمت بأشكال متنوعة في بناء الحضارة ودفعها في طريق التطور والنمو.

وإذا كانت الغاية النهائية للحضارة بنظر ألبرت اشفيتسر هي إرساء دعائم الأخلاق وتوقير الحياة مهما كانت درجة أهميتها من الدودة التافهة حتى الإنسان المثقف فهي بالنسبة لابن خلدون الوصول إلى إرساء دعائم الدولة المنظمة كخلية النحل، وبالنسبة

لفريدريك هيجل هي الاتحاد بالروح المطلق أو العقل الكلي عبر صيرورات جدلية متنامية عبر التاريخ، وأما شيخ الفلاسفة المسلمين أبو بكر محمد بن زكريا الرازي فيقول: بأن غاية الحياة هي تنمية العقل وتمجيده وإحقاق العدل وإرساؤه وهما صفتان من صفات الألوهية، أما الجزء العملي من هاتين الغايتين فهما العلم والعمل اللذان لا سبيل لتحقيقهما بدون العقل والعدل.

إن الحضارة بما هي ناتج مادي وفكري لعقل الإنسان كانت تتكامل عبر التاريخ بغض النظر عن طبيعة الأمم التي ساهمت في بنائها، متبعة مسارا تطوريا صاعدا نحو حياة أفضل للإنسان، حاذفة في كل نقلة تطورية كل ناتج لا يتلاءم مع روح العصر، ومضيفة إليه أفكارا أخرى، وهكذا فإننا قد نفهم مبررات هيجل في جدليته التاريخية وتطبيقات نظرية دارون في موضوع البقاء للأفضل لنقر بأن الحضارة كانت قد اتخذت منذ فجر التاريخ مسارها تلقائيا بمعزل عن الإرادة الإنسانية، رغم أن الإنسان كان أحد أدواتها الرئيسية، ولا يمكننا أن ننكر أن الغرائز البدائية والتكاثر السكاني للإنسان كانت المحرض الأساسي لانطلاقها، وأنها خلال رحلتها التطورية الطويلة كانت خاضعة لقانوني صراع البقاء والبقاء للأفضل.

فمن غريزة حب البقاء تفرعت غرائز حب الذات (أو الأنانية) وغريزة حب التملك والتي لولاها ما تحرك إنسان من بيته سعيا وراء رزق أو عمل ولا تبادل الناس المنافع والخدمات، ولولا دوافع التنافس والتميز والحاجة إلى الأمن ما ظهرت المبتكرات والاكتشافات بجميع أنواعها، ورغم أن هذه الغرائز كانت المحرض الأساسي للحضارة إلاأنها كانت في كثير من الأمثلة التاريخية معاول هدم حضاري عندما أحبطت ولم تجد لها طريقا للتحقق والإشباع فتحولت إلى دوافع عدوانية خطرة أودت بحياة العديد من الأمم. كما يجب أن لا ننسى بأن العدوانية المحرضة بالتواجد المتزامن والمتجاور للإنسان والذي أدى إلى تشكيلة واسعة من المنافسات الاقتصادية كانت سببا هاما ورئيسيا من أسباب الحروب والمعاناة البشرية. ويدعي الشيوعيون أنهم وضعوا أيديهم على مصدر هام من مصادر القلق الإنساني وهو غريزة حب التملك التي تؤدي إلى التنافس المحموم لامتلاك المادة من أجل تحقيق الأمن بجميع أشكاله، فإذا أصبحت مصادر هذه المادة وهي مراكز الإنتاج ملكا للجميع وأحبطت الملكية الفردية بقوانين التأميم تساوى عندئذ جميع

الناس في الحقوق والواجبات والمراتب المعيشية ولم يعد هناك مبرر للقلق والغيرة والحسد، وإذا ضمنت لهم الدولة أمن المستقبل وحاجات الشيخوخة فليس هناك أي مبرر لاختزان المادة وتوفيرها، ولكن هذا الاكتشاف الشيوعي فشل في جعل الناس سعداء لأنه بكل بساطة لم يأخذ بعين الاعتبار الغرائز الأولية للطبيعة البشرية وهي حب التملك والتنافس والتميز لتحقيق الذات. إن الملكات والقدرات الفردية ليست متساوية في جميع الناس، فإذا ساويت بينهم بالعوائد المادية أحبط المتميزون وأطفئت ملكاتهم الخلاقة، وكما ذكرنا قبل قليل فإن محرضات الحضارة كانت دائما وأبدا تندرج تحت تشكيلة متنوعة من دوافع حب البقاء والتنافس الشريف الذي يدفع الناس للعمل الدؤوب الخلاق، لقد حولت الشيوعية الإنسان المبدع إلى ترس مسنن في آلة صماء وجردته من كل قيمة معنوية وإنسانية، ولذلك فقد انهار النظام كله فوق رؤوس أصحابه كما كان متوقعا، لذلك لم يعد مستغربا أن نتصور أن الاتحاد السوفييتي كان مدينا قبل انهياره بأكثر من مائة بليون دولار وأنه رغم امتلاكه لأكبر مساحة زراعية في العالم كان يستورد القمح من الدول الأخرى، وأن منتجاته الصناعية كانت على درجة من الرداءة بحيث لا تجد أسواقا لها إلافي الدول الفقيرة التي تشتري بالتقسيط المريح.

لقد كان الصراع من أجل البقاء والذي فجر المراكز الحضارية في العالم وعلى مدى التاريخ كان يحمل في ثناياه نفي تلك الحضارات ومعاول هدمها فعندما تصل' الحضارة' إلىذروة مثلها وقيمها الأخلاقية والفكرية وتسترخي في متع عصورها الذهبية تصبح مطمحا للأمم المجاورة المتحفزة لاستلاب ثرواتها المادية والفكرية بدافع من نفس الغرائز التي أوجدتها، وهي حب البقاء والغيرة والحسد والتنافس وتحقيق الذات، وطالما أن غربال البقاء للأفضل مازال يعمل منذ فجر التاريخ بكفاءة نادرة فإن تداول المشعل الحضاري بين الأمم يعتبر ظاهرة حتمية وطبيعية.

إن الحضارة بصفة عامة تطلب من الإنسان التخلي القسري عن جزء كبير من غرائزه البدائية تحت طائلة العقاب والعزل الاجتماعي، ولكن تلك الغرائز المقموعة لاتموت ولكنها تنزاح بفعل الكبت إلى اللاشعور حتى في نفوس أكثر الناس تحضرا أوأخلاقية، ولذلك فإن نوعا من النفاق الاجتماعي يواكب التعايش الحضاري المطلوب، وهو ما يمكن أن نسميه بمجتمع الأقنعة حيث' يتوجب' على الإنسان وضع عدد من الأقنعة

في جيبه صالحةٍ لكلّ المواقف ومختلف الظروف، وهذا يستهلك جزءاً كبيراً من طاقات الإنسان الذي يعجز غالباً عن تحويل هذا الصراع الداخلي إلى محاكمات شعورية، ولذلك لم يعد مستغرباً أن تجد نسبةً كبيرةً من الناس مصابة بالعصاب (مرضٌ نفسي معروف يشطر الشخصية ويضعف الطاقة الداخلية) وهذا هو الثمن الفادح الذي تدفعه جماهير الأمم المتحضرة لقاء نعمة الحضارة.

لأنَّ الإنسانْ ليس أخلاقياً بالفطرة وإنما غريزيٌ وعدوانـي، ولأنه كـائنٌ اجتماعيٌ لايحبّ العزلة، ولأنه أيضاً عقلانيٌ مفكر وعاطفيٌ متهور في نفس الوقت فمن الطبيعي إذن أنْ يعاني من تناقضاته الغريزية والاجتماعية، وحتى يعيش بأقل قدرٍ ممكن من الإحباطات اليومية والمعانات الناجمة عن الاحتكاك بالآخر وجب عليه إقامة توازنات مبتكرة تخفف من حدة صراعاته الداخلية، وتسهلُ قبوله في المجتمع مع قدرٍ معقولٍ من الاحترام، هذه التوازنات المفترضة وآليات الالتفاف حول الغرائز الفجة تندرج تحت عنوان رئيسي يدعى: آليات التعويض وهي الآليات التي توفق وتؤلف بين متطلبات التعايش السلمي مع الآخر وغرائز الفرد غير المقبولة، هذا التوازن المطلوب بإلحاح تمهد له وتساهم فيه مختلف وسائل التربية والإعداد الاجتماعي والتي تعتبر رافداً أساسياً من مكونات الحضارة. ورغم أنَّ تلك الآليات لا تستطيع أنْ تلغي نهائياً جذور تلك الغرائز وإنما تلتف حولها بطرقٍ دبلوماسية ومهذبة تجعل من كفها أو تصعيدها أو تعويضها موضوعاً أقل إيلاماً.

إنَّ خوف الإنسان من العقاب القضائي (سلطة القانون) والاجتماعي (بالنبذ) وسلطة الأنا العليا (تأنيب الضمير) قد يثبط عزمه عن النيل من الآخر بالطرق البدائية ولكنَّ تلك الروادع الكافة للغرائز لا تستطيع حذف تلك الرغبات الشيطانية نهائياً، بل تحولها إلى مشاعر بغيضة مكبوتة من الحسد والغيرة والحقد قد تظهر بين الحين والحين على هيئة تعليقاتٍ ساخرة أو شماتةٍ بمصائب الآخر، هذا الكفُّ الحضاري والأخلاقي لمجمل الغرائز الفجة سوف يفرز آلياتٍ جديدةٍ للتنفيس لا تعترض عليها شرائع المجتمع ولا قوانين الحضارة.

٤- آليات التعويض

تتمحور المطالب الأخلاقية دائما حول تحديد سلطة الحرية الفردية بحيث لا تتعدى

حدود الحريات الأخرى بنفس الوقت الذي تحقق فيه جزءا من الرغبات أوبدائل عنها بأسلوب يرضى عنه المجتمع ولا تمنعه القوانين، ولازال مسخ مشوه من الإنسان البدائي يعيش في داخل كل منا مهما بلغت درجة حضارته وتربيته الاجتماعية يطالب بين الحين والحين بتحقيق جزء من رغباته المقموعة، فكيف السبيل إلى تحقيق نوع من المصالحة أو الهدنة بين مطالب هذا المسخ والاعتبارات الاجتماعية بأقل قدر ممكن من الألم والإحباط؟ هنا تتدخل آليات التعويض التي ابتكرتها النفس البشرية بصورة عفوية دون سابق تخطيط عقلاني لتمنع الألم وتتجنب المعاناة، وليس مستحيلا التعرف على شخصية المسخ البدائي في داخل كل منا، إنك تراه في سلوك طفلك الذي تمسك بيده في السوق فيمد يده بكل بساطة إلى قطع الحلوى المعروضة والألعاب ليستولي عليها دون أن يدرك أن عليه أن يدفع ثمنها أو حتى يستأذن صاحبها فتمد يدك لتنتزعها منه وتعيدها إلى مكانها، وقد تضطر أحيانا إلى ضربه على ظاهر يده لتفهمه بأنها ليست من حقه طالما لم يقدم هو أووالده ما يوازي ثمنها لصاحب الدكان، هذا المسخ المضحك والذي يسميه علماء النفس بالـ (هو) موجود في داخل كل منا، ولكنه مأسور تحت حراسة مشددة لسجان قاس اسمه (الأنا العليا) التي أوجدتها وتعهدتها بالرعاية وسائل التربية، ومن الصدام اليومي بين الهو والأنا العليا تنشأ معظم المعاناة البشرية، فما هي وسائل التعويض التي تخلق التوازن والمصالحة بين هذين العدوين اللدودين وتحقق السلام النسبي للإنسان؟ إن آليات التعويض تتبع أساليب ماكرة في الالتفاف حول الرغبات المقموعة مثلها في ذلك مثل ماء الجدول الذي تسد عليه مجراه فيحتال عليك ليحفر لنفسه مجرى آخر تتحكم فيه قوى الجاذبية وتضاريس الأرض التي يسيل عليها .

٣ـ١ : الإلهاءات النفسية :

هناك تشكيلة واسعة من الإلهاءات النفسية يمارسها الإنسان بصورة لاإرادية تتيح له تخفيف الألم الناجم عن الإحباطات وقمع الرغبات اللامشروعة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :

٣ـ١ـ١ : العزلة الطوعية :

وهي الرغبة في التقوقع والانكفاء نحو الداخل والانصراف عن المجتمع، إنه نوع من الانطواء التأملي يهب الإنسان بعض السكينة والهدوء الناجم عن تحاشي المقارنات

بالإنسان الآخر، تلك المقارنات التي تذكر العاجز بعجزه والفاشل بفشله وتحرض الرغبات المكبوتة لتطالب بحقها في التحقق، وغالبا ما يكون هذا الاعتكاف مصاحبا بجرعة قوية من أحلام اليقظة التي تحقق للمعتزل بعض الإرضاءات المؤقتة البديلة التي تخفف من آلام خيباته المتكررة وفيها يرخي الإنسان العنان لتخيلات غير واقعية يقفز فيها الحالم فوق حواجز الصعوبات الحياتية ليحقق بعضا من رغباته المكفوفة أوالمحبطة، وتستمر تلك الأحلام لفترات طويلة وتتنقل من قضية إلى أخرى بخفة ورشاقة دون أي ترابط منطقي، فتارة يجد الحالم نفسه رجلا عظيما وتارة يجد نفسه فتى جميلا تلاحقه الفتيات أورياضيا مشهورا أومخترعا مرموقا، وهكذا نجد أن مثل تلك الأحلام تخدر الإحساس بالعجز وتقدم حلولا تعويضية سهلة المنال حتى ولو كانت مؤقتة وخيالية .

٣ـ١ـ٢: الانطواء الصوفي :

كان المتصوفون الأوائل يلبسون الصوف أو الخشن من الثياب، ولذلك فقد أطلق عليهم جماعة المتصوفة أو الصوفيون ثم شكلوا مذهبا في الحياة وفلسفة خاصة غايتها الزهد بالحياة ومتع الدنيا مقابل متع روحية أكثر' سموا ودواما، وتتمحور آليته على المحاكمة التالية: طالما أني عاجز عن تحقيق رغباتي البدائية إما لسبب في ذاتي أو لسبب آخر خارج عني فإن من الأجدى لي التطهر من تلك الرغبات الحيوانية والشهوات الجسدية التي لن تجلب لي إلا الشقاء والتعاسة واستبدالها بنوع من الاتحاد الروحي بالوجود المطلق والارتقاء لمستوى نوع من الوجود الملائكي الشفاف الذي لا يعتمد في وجوده على الآخر، وليس مشروطا بأي وجود خارجي إن معظم الزهاد والمعتكفين والرهبان الذين وهبوا أنفسهم لخدمة المعابد والبوذيون القانعون بأقل قدر ممكن من ماديات الدنيا هم في معظمهم أناس محبطون لم يستطيعوا التكيف مع شروط وقوانين الحياة وقد صدموا كثيرا في معاركهم الحياتية في الصراع المسعور من أجل البقاء فاختاروا طائعين تلك الصوامع المنعزلة ليعتكفوا فيها عن الآخرين طالبين لذة الهدوء ومتعة التأمل، ولعلهم يجدون فيها أيضا من يشابههم في محنهم وخيباتهم فيجدون لديهم بعض العزاء والسلوى لأن المشاركة في الألم تخفف بعض غلوائه.

إن آلية الانطواء يمكن أن تعتبر أيضا آلية ناجحة للدفاع عن الذات ضد مزيد من الإحباطات المتوقعة خاصة إذا كانت الأنا العليا متضخمة بشكل مرضي نتيجة لتربية قاسية

ولا تعترض عليه الأنا العليا أو المثل والقيم السائدة ، ولأن جميع وسائل التربية هي في أساسها منظومات حضارية لتأهيل الإنسان والسمو به عن مستوى البهيمية الأولى لذلك لم يعد مستغربا إدراج بعض الآليات النفسية للتربية في موضوع غني وهام كموضوع الحضارة.

إن الثنائية المتناقضة للغرائز وكفها تفرز حسب مفهوم فرويد المنظومة الأخلاقية لأي مجتمع من المجتمعات وتصنف درجة تحضره، فإذا كبحت الغريزة ارتدت إلى باطن الشخصية تاركة على السطح سلوكا أخلاقيا محابيا أومنافقا يمثل زمرة الأخلاق الغير متأصلة إنها أخلاق المداراة والمسايرة، وحسب نجاح الخطة التربوية وجدية المربين يمكن لجزء من تلك الأخلاق أن يصبح متأصلا في الشخصية منصهرا في نسيجها أوخارجا عنها لا يلبث أن يزول بمجرد زوال خطر العقاب أوعين الرقيب. أما آلية التصعيد فإنها بخلاف آلية الكف تساعد الطفل على تحقيق جزء من رغبته أو ما يشابهها دون التعرض للعقاب أوالاستهجان الاجتماعي وذلك باستخدام تقنيات خاصة بالتحويل والتعويض والإسقاط وهي التقنيات التي تولد مجموعة من الأخلاق الأصيلة المنسجمة مع الذات بأقل قدر ممكن من الألم الناجم عن الكف المباشر للغرائز.

وكأننا هنا أمام مخطط خارجي ولاإرادي تنفذه الحياة لتجعل من هذا الكائن البدائي في الإنسان كائنا عاقلا ومتحضرا، وترفعه من مستوى الغرائز البهيمية لترتقي به إلى مستوى المخلوقات المثالية. وهذا التحول القسري فعليا والإرادي ظاهريا لا يمكن أن يتم من دون إحباط أوألم .

وحتى لا تكون مادة كتابنا جافة ومملة وحتى نتمثل ما ذكرناه عن الكف المبتور للغرائز والتصعيد الناجح لها نستهدي ببعض الأمثلة الواقعية من حياتنا العملية؛ فغريزة التملك مثلا هي غريزة أساسية في حياتنا ويتطلب تحقيقها المباشر الاستيلاء على أموال الغير أوممتلكاته بالقوة المباشرة أوبالاحتيال، ولكن تحت طائلة الخوف من النبذ أوالعقاب تكبح هذه الرغبة ويستعاض عنها بطريق أكثر شقاء وألما وهي الكسب المشروع الذي ينجح غالبا في إرضاء تلك الرغبة دون تعرض الآخر للأذى ودون تعرض صاحب الرغبة للعقاب، ولاشك أن كل واحد منا لا يخرج من بيته صباح كل يوم بهدف الترويض أوالتسلية، بل ليكسب شيئا من المال مدفوعا بعدد من غرائزه الأولية منها رغبته في

الطعام وحاجته للأمن وحبه للتملك ورغبته في التفوق والتميز، إذن نلاحظ هنا وبصورة عفوية وغير مباشرة أن عملية التصعيد تساهم فعلا في عملية الإثراء الحضاري.

كذلك تصعد غريزة الأمومة المكبوتة لعانس أولامرأة عاقر تسقط حنان أمومتها المحبطة على الأطفال اليتامى في ملجأ أيتام أو تتسلى بتربية القطط المنزلية كتعويض مقبول عن أمومة مفترضة لم تتحقق، أما الغريزة الجنسية المقموعة فإن تحققها الشرعي يتم عن طريق الزواج . الصورة الاجتماعية المقبولة في المجتمعات المتحضرة ولكن عدم تحققها شرعيا يمكن أن يسبب أشكالا مستهجنة من التحقق الحيواني الذي قد يترتب عليه نتائج وخيمة من انتقال الأمراض واختلاط الأنساب وهدر كرامة المرأة، أما تصعيد هذه الرغبة فإنه يتجلى في الإبداعات الفنية من الشعر والموسيقى والأدب وصناعة الجمال وأساليب الغزل الرقيق.

إن كبح الغرائز العدوانية تحت ضغط الأنا العليا أوتحت طائلة العقاب ينتج حصرا نفسيا عميقا ولكن تصعيدها أوتعويضها أوإسقاطها يمكن أن يؤدي إلى تشكيلة من الإبداعات الرياضية والتنافس الشريف فأبطال تسلق الجبال والمصارعة والملاكمة والعداءون ما كانوا ليحققون انتصاراتهم لولا تصعيد الرغبة العدوانية القابعة في أعماقهم، وإذا أضفنا إلى تلك الرغبة بعضا من حب الاستطلاع والفضول العلمي لالتقينا بتشكيله أخرى من مكتشفي القارات والبحارة والطيارون ورواد الفضاء. وهكذا نجد أن الغريزة العدوانية في الإنسان ساهمت بشكل غير مباشر في معظم الجهود الحضارية كما ساهمت في تدمير الحضارات بواسطة التحقق المباشر عن طريق العدوان.

٣-٣ : الإرضاءات البديلة أوالتعويض:

يمكن أن تعتبر حلمة الثدي المطاطية الصناعية بديلا مؤقتا لثدي الرضيع الذي يلح ببكاء مزعج على تناول وجبته أثناء غياب أمه، ورغم أن الطفل المسكين لا يتغذى منها لا حامضا ولا حلوا إلا أنه يتلهى عليها ريثما تعود أمه معطيا لسكان البيت بعض السكينة والهدوء بمثل هذه اللهاة الصناعية تكون الإرضاءات البديلة وعلى شاكلتها تكون آليات التعويض والرجل الذي يرغب في الإقلاع عن عادة التدخين قد يضع في فمه انطلاقا من نفس المبدأ بضع حبيبات من السكاكر أو التسالي كتعويض عن رغبة ملحة في التدخين. ومن المثالين السابقين نستطيع أن نعرف آلية التعويض بأنها إشباع كاذب لرغبة مشابهة

تعذر تحقيقها وامتنع إشباعها لسبب أولآخر، بينما يتجه التصعيد بالرغبة نحو التسامي ويشبعها جزئيا بسلوك حضاري يخفف من ألم كبتها ولا يهمل في نفس الوقت مشروعية مطالبها. ومن هذا المنطلق نجد أن الرغبة الجنسية المقموعة تجد بعض التعويض في قصص الحب والمشاهد الغرامية السينمائية، بينما تجد تصعيدها في كتابة القصائد الشعرية وقصص الحب العذري واللوحات الفنية الجميلة، كذلك فإن التمتع بالجمال وهو إرضاء بديل لامتلاكه يولد في النفس أثرا عميقا من السعادة تخفف من بؤس الكبت الجنسي وتحد من غلوائه، ورغم أن الجانب النفعي في الجمال غير واضح بصورة عامة إلا أن تأثيره المدهش على سقم النفس البشرية وامتصاص قلقها لا يمكن إنكاره أوتجاهله.

وحيث إن الفن والجمال وهما عنصران رئيسيان من عناصر الحضارة التي هي بحد ذاتها ترويض مستمر للنفس البشرية بحيث تصبح قادرة على تذوق الفن والجمال وقادرة أيضا على إنتاجهما، فإن هذا الترويض ما هو إلا طريقة من طرق الإرضاءات البديلة لجلب السعادة وإقصاء الألم الناجم عن كف الغرائز. وهنا نجد أن الحضارة التي وضعت كوابح التربية وتهذيب الغرائز تعود من باب آخر لتقدم للإنسان اعتذارها ماسحة على جروحه النازفة بيد الفن والجمال لتداوي بعض ما سببته له من متاعب على مبدأ داوها بالتي كانت هي الداء.

ولو عدنا سابقا إلى العصور السحيقة الأولى في أزمنة ما قبل الحضارة لوجدنا أن على الإنسان أن يتصرف بوحي من تجاربه الخاصة، لم تكن هناك تربية معينة ولا طقوس خاصة بمجتمع دون آخر، كانت التجارب المعاشة هي التي تربي وهي التي تعلم على مدى الأجيال المتعاقبة، ولكن بعد أن تراكمت محصلة تلك التجارب أصبح من الضروري تلقينها للصغار عديمي الخبرة حتى لا يعيدوا اكتشافها مرة أخرى ومن هنا بدأت محصلة الخبرة بالتراكم ليطلق عليها مفهوم العادات والتقاليد والطقوس والقناعات، وأصبحت تلقن نظريا للأطفال حتى يبدأون من حيث انتهى الآباء، ويقطع اليوم طفلنا المعاصر مرحلة تناهز أوتجاوز الـ خمسة وعشرين عاما حتى يختزن في ذهنه كل تجارب الأولين ومخزون قناعاتهم الصحيحة، ويصبح كائنا معاصرا قادرا على العيش والتأقلم في عالم القرن الواحد والعشرين، لقد أوجد عالم النفس السويسري كارل يونغ فكرة اللاشعور الجمعي وهي فكرة مفادها أن هناك مستودع كبير في داخل كل منا يحتوي على الخبرات والتجارب البشرية

القديمة كان قد أخذ مصدره من موروثات أسلافنا القدامى وحتى مواليدنا الجدد ليسوا محرومين تماما من ذاكرة إنسانية جمعية تحتفظ في صفحاتها الداخلية بعدد من المشاعر والخبرات الإنسانية على شكل رموز غائمة تثيرها المنبهات العاطفية في الأحلام، ولو صح ما أثاره يونغ لفسر لنا عالمية رموز الأحلام الإنسانية وتشابه الأساطير بين شعوب الأرض المتباعدة والتي لم تتصل ببعضها ثقافيا من قبل، هذه الفكرة لها ما يبررها ولم تجد حتى الآن ما يدحضها، وهي تفسر أيضا ارتفاع نسبة الذكاء في المواليد الجدد جيلا بعد جيل كما تؤيدها قوانين ماندل في الوراثة، وهنا تتضح الصورة بشكل أكبر حين نتخيل وكأن النوع الإنساني برمته يتصرف وكأنه كائن فرد واحد يتطور على مدى العمر البشري بكامله، ويحتفظ بمحصلة خبراته في وعاء الذاكرة البشرية حيث يصبح أكثر حضارة وأوسع ثقافة وأكثر سموا وأخلاقا، كذلك فإن مستودع اللاشعور الجمعي لم يبق على حاله الأولى مفتقوا للخبرات البشرية، بل أخذ يتطور ويثرى بالمعارف والخبرات الإنسانية كلما امتدت واستطالت فترة التاريخ الإنساني وكأن الحضارة والإنسان رفيقا طريق طويل كل واحد منهما قدر للآخر ويشتق وجوده منه ، فالحضارة آلت على نفسها أن ترتقي بالإنسان من الهمجية الأولى إلى مرتبة الملائكة والإنسان أيضا أخذ على عاتقه مهمة رعاية الحضارة كطريق وحيد لتنمية حياته وإسعادها رغم ما تحتوي عليه من أساليب مؤلمة.

٣ – ٤ : تعاطي المسكرات والمخدرات:

يلجأ بعض المحبطين والتعساء إلى تناول المشروبات الكحولية والمخدرات الكيميائية ليثبطوا جزءا من عقولهم الواعية، ويتركوا موجات اللاشعور المتلاطمة تظهرعلى الملأ دون ضابط أو رادع علها تخفف من الضغط الداخلي والتوتر النفسي الناجم من صراع الرغبات المكبوتة مع الأنا العليا أو أعراف المجتمع وسلطة القانون، هذا التسمم الكيميائي للعقل الواعي يدخل الإنسان في حالة من الغيبوبة الجزئية التي تسمح لبعض الرغبات المكبوتة بالتعبير عن نفسها لتنفس جزءا من الضغط الداخلي، وقد سمعت أحدهم يقول بأنه كان يتمنى لو يخنق والده بيديه ذلك المتجبر الأرعن الذي يعتقد نفسه بأنه إله، ومن الواضح أن مثل هذا الشاب يعاني من عقدة الانسحاق أمام شخصية أب مستبد يعيق نمو شخصيته ويسفه آراءه، ولو وضعنا جهاز تسجيل بين مجموعة من السكارى ثم أعدناه على أسماعهم وهم في حالة الصحو لوجدناهم يوارون وجوههم خجلا مما تفوهوا به وهم

في حالة السكر، وهذا يدل على أن محتويات اللاشعورالتي تسبب الحصر والقلق والصراع والصداع هي قمامة ذات روائح مخجلة في معظمها تحجبها عن ضوء النهار حواجز العقل الواعي وسياط الأنا العليا التي أوجدتها وسائل التربية ومتطلبات المجتمع. إذن في حالة السكر ينام رجال الشرطة أي الوعي وتخرج من قاع اللاشعور مسوخ بشعة تمثل الإنسان الهمجي البدائي ذو الغرائز الأولية لتعبرعن مطالبها المقموعة.

وكلما كانت العلاقة بين الأنا ومحتويات اللاشعور(أي الهو)علاقة متوازنة أي ليست قمعية ولا محابية بل وسطية متفهمة كلما كان الصراع الداخلي للإنسان أقل ألما وشخصيته أكثر انسجاما وتوازنا.

إن الهروب السلبي نحو المخدرات والكحول كما هو الحال في الهروب الضعيف نحو الانطواء والعزلة الصوفية يمثلان حالتا تطرف سلبي تجاه فشل ذريع في مواجهة الحياة وعدم قدرة على التكيف المرن مع متطلباتها، ورغم أن الحل الأول ينطوي على مخاطر صحية وسمية قد تودي بحياة الإنسان وقد تؤدي إلى مفاسد اجتماعية خبيثة، إلا أن الحل الآخر أيضا رغم ما يبدو عليه من مظاهر دينية وفلسفية ماهو إلا بتر أرعن لمخلوق فعال عليه أن يساهم بنصيبه من بناء الأرض وصنع الحضارة، إنه استقالة من الحياة قبل الأوان أو انتحار معنوي في زوايا العزلة والنسيان.

وهكذا نجد أن الآليات التي طورها الإنسان عبر تاريخه الطويل لكف غرائزه البدائية وتنمية شخصيته الحضارية لم تنجح تماما في الوصول إلى حالة من الهدنة الدائمة التي توفر له العيش بسلام، فحيثما وجدت الغرائز والحضارة وجد الصراع والعذاب ووجد الألم والمعاناة وحيثما وجدت آلية ما وجدت لها آثار جانبية سيئة وكأن كل شيء يؤكد لنا كل يوم أن ليس هناك عشاء مجاني في هذا الكون وأن قدر الإنسان هو أن يعيش حياته كلها أسير القلق والمعاناة.

ولكن الجمال يتفرد بين آليات التعويض والارضاءات البديلة كمصدر من مصادر السعادة المجانية الدائمة التي تخفف عن الإنسان بعض همومه الثقيلة وعقده المستعصية دون آثار جانبية من تسمم كحولي أوكيميائي ودون استقالة معنوية من الحياة أوعزلة صوفية، وكثيرا ما نسمع أحدهم يقول بأنه ثمل من ذاك الجمال أومن تلك القطعة الموسيقية، وهذا الشوق العميق للجمال تبرره شدة المعاناة البشرية والإحباطات اليومية

المعاشة، وبسبب تلك الأهمية سنفرد فقرة خاصة لفلسفة الجمال كقيمة هامة من قيم الحضارة وكناتج رئيسي من نواتجها.

٥ ـ فلسفة الجمال

يتسرب الجمال إلى داخل الإنسان قصدا أوعفوا عن طريق حواسه الخمس ليحدث فعلا حسنا بالنفس يعقبه رد فعل متنوع بالسعادة أواللذة ويغسل كما هائلا من الإرهاق والهموم ، ويتألف الموضوع الجمالي عادة من حامل ومحمول، مادة وموضوع يؤلفان كلا متناغما ومنسجما يفعل فعل السحر في نفس المتلقي، فاللوحة الفنية مؤلفة من مادة الورق المقوى والألوان من جهة ومن الصورة الجمالية المحمولة عليها تتوسط بينهما روح الفنان وأصابعه المبدعة، ولكن اللوحة الفنية ما كانت لتتحقق لولا أن وقعت عينا الفنان على الموضوع الجمالي أولا، إذن هي محض رد فعل انعكاسي لتصادم الموضوع الجمالي مع روح الفنان، وهذا يقودنا للاستنتاج بأن الجمال البكر كان أسبق بالوجود من الفن رغم أن الفن كان قد ساهم ولا يزال بمضاعفة القيم الجمالية للمواضيع الطبيعية، إذن فالجمال كان موجودا أولا على سطح الأرض في كل زاوية ومكان وحتى قبل وجود الإنسان، ولكنه لم يأخذ قيمته إلا بعد وجود الإنسان الذي تأثر به وأعاد صياغته فنيا على هيئة مواضيع فنية مدهشة، وقد تكون معايير الجمال نسبية في جزئياتها تتفاوت من زمان إلى آخر، ومن مكان إلى آخر ولكنها تبقى ثابتة وأصيلة في خطوطها العريضة، وتبقى أيضا موروثا إنسانيا لا ينضب في اللاشعور الجمعي، وكمثال على ذلك فقد لا يختلف اثنان مهما تباعد البون الزمني والمكاني والثقافي بينهما على أن القمر جميل في ليلة هادئة، وأن شلال الماء المنسكب على الصخور والمنساب بين الغابات الخضراء يثير إحساسا باللذة العميقة في النفس الإنسانية سواء كانت تلك النفس صينية أم أمريكية أم من القبائل البدائية. وهذا الموروث الإنساني الضخم من التجارب البشرية والذي أصبح جزءا لا يتجزأ من الصبغيات الوراثية البشرية هو الذي يعطي رد الفعل الإنساني صيغته ومضمونه لحظة التماس المباشر بين الموضوع الجمالي والنفس البشرية. وإذا أردنا وضع مفردات هذا البحث في ترتيبها الزمني لوجدنا أن المادة الخام تتصدر قائمة المفردات الجمالية على سطح الأرض ومن تلك المادة الخام تشكلت كل الأشياء الجميلة والقبيحة على حد سواء،

ثم وجد الإنسان ليستمتع بتلك المحمولات الجمالية ويصنفها ويتعلم منها قيمه الجمالية الكبرى التي مكنته من إعادة صياغة الجمال، وإدخال التعديلات الإنسانية عليه تارة بالتقليد وأخرى بالتحوير والإبداع، إذن هناك نوعين من المحمولات الجمالية في هذا الكون الأولى وهي المحمولات الطبيعية التي لم تتدخل فيها يد الإنسان وأخرى تدخلت فيها يد الإنسان وأضفت عليه البصمة الإنسانية المبدعة، والفرق بين الحالتين أن المحمول الجمالي الطبيعي لم يكن لوجوده غاية مسبقة، بل كان وجوده بذاته ولذاته جنباً إلى جنب مع المواضيع القبيحة ، بينما تتميز المواضيع الإنسانية بتوفر النية المسبقة لإبداع الجمال وتوفر الغاية والمبرر لعملية الإبداع، كذلك لا تخلو عمليات الإبداع الإنساني للجمال من بعض الغايات النفعية التي لا تعرفها الطبيعة، فالصيرورات الطبيعية الفيزيائية والكيميائية التي أنتجت مناظر طبيعية رائعة من هضاب ووديان وأشجار وارفة ومثمرة وشلالات متدفقة وجداول مترقرقة وطيور مغردة صداحة طالما ما أفسدتها كوارث طبيعية هوجاء بضربة واحدة من بركان أوإعصار أو طوفان دون أي أسف عليها لتعيد إنتاجها من جديد عبر عمليات جديدة وطويلة. إذن كانت بداية الجمال على الأرض كتنوع شكلي أو لوني من أشكال المادة جنبا إلى جنب مع المواضيع القبيحة الأخرى دون أية غاية. معلنة وحتى نستوفي دراسة الجمال بشكل علمي وصحيح يجب علينا أن نحلله إلى عناصره الأساسية وندرس خواصه الخارجية والداخلية فما هي عناصر الجمال وخواصها ؟

آ- التناظر :

يعتبر التناظر من معايير الجمال الهامة وعناصره الأساسية وتعريف التناظر هو التكرار الشكلي واللوني والصوتي حول نقطة مكانية في الفراغ أولحظة زمنية في الزمان (بالنسبة للتناظر أوالتكرار الصوتي). فالزهرة مثلا تتناظر بتلاتها ووسبلاتها حول محورها، والحجر الكريم تتناظر وجوهه وسطوحه وزواياه حول مركز أومحور والسماء تتناظر مع البحر حول مستوى الأفق، والشمس تتناظر حول محورها والمجموعة الشمسية تتناظر حول شمسها وتدور حولها بنظام دقيق وثابت، والأرض نفسها تتناظر حول مركزها ومحورها وخط استوائها، ومخلوقات الله كلها متناظرة حول مستوياتها المنصفة طوليا فعينين وأذنين وذراعين وساقين وفم ينتصف المجموعة فأي جمال يمكن أن يكون في مخلوق فقد تناظره البديع ؟

فهل نستطيع القول بأن الإنسان تعلم القيمة الجمالية للتناظر من الأم الأولى الطبيعة؟ نعم وبدون أدنى شك وعندما حاول صنع أدواته الخاصة ووسائل مواصلاته لم يجد أمامه إلا نماذج طبيعية يقلدها وقد احترم دائما القيم الجمالية للتناظر فصنع المركب على هيئة سمكة والطائرة على شكل طائر والسيارة على شكل علبة متناظرة واقية لركابها، نستثني من ذلك بعض الأدوات والمعدات التي تستوجب آلية أدائها عدم التقيد بالتناظر، وكلما كانت درجة التناظر ورتبته أعلى كلما زادت القيمة الجمالية للشكل المتناظر، فالشكل الفوضوي أقل جمالا من الخط المستقيم وهذا الأخير أقل جمالا من المثلث الأقل جمالا من المسدس والمربع وهذا أقل من الدائرة والموشور وغيره وهكذا ...

وهذه القوانين لم يخترعها الإنسان من نفسه بل وجدها هكذا وعايشها وتأثر بها فتأصلت في وجدانه، ثم استنبط بعقله المفكر قوانينها وصنع أدواته على شاكلتها، أما التناظر الصوتي فهو الإيقاع الموسيقي الذي عرفه الإنسان في خرير الجداول وهدير الموج وتغريد البلابل إنه التكرار التأكيدي لنغمة معينة بعد فاصلة زمنية ثابتة، ومن هذا التناظر اشتقت الملاحم الشعرية أوزانها وقوافيها، وهكذا نجد أن حياتنا ستكون تعيسة جدا بدون تناظر يضفي عليها مسحة جمالية تخفف من متاعبها وإحباطاتها.

ب- التآلف اللوني :

تملأ حياتنا آلاف الألوان الأساسية والثانوية من الأبيض الذي يمثل مجموع الموجات الضوئية وحتى الأسود الذي يمثل الظلام الدامس أواللا لون، وتستشعر عين الإنسان التركيبات اللونية المختلفة على شبكيتها بأطوال موجية محددة بين اللون الأحمر وفوق البنفسجي، وفيما عدا ذلك تقع جميع الموجات اللونية خارج مجال الرؤية البشرية وقد كان الإنسان البدائي يلتقط الصور اللونية المحيطة به، ويختزنها في ذاكرته مع مدلولاتها الخاصة وانطباعاتها المرافقة بما يشبه الموسوعة اوالمفكرة والتي ما طفقت تثرى وتتزايد وتندمج في العقد الصبغية حتى أصبحت تراثا غائما في مستودع اللاشعور الجمعي أوما يسمى بالذاكرة الإنسانية الأولى، وفي مثل هذه الذاكرة المشتركة التي استخدمت ملايين الأعين البشرية القديمة تجد أن الألوان تأخذ مدلولات متشابهة وتعكس نفس الانطباعات البشرية التي تقابلها، وكمثال على ذلك نجد أن الأبيض يعكس قيما خيرة في جميع شعوب الأرض مهما تباعدت وانقطعت بها أسباب التواصل الثقافي، إنه يرمز للسلام والنقاء

والطهارة والصفاء الروحي، ونجد أنَّ الأزرق يرمز إلى البرودة وحرية الانعتاق لأنَّه مشتقٌ من لون السماء والبحر أي الهواء والماء، أما الأخضر فهو يرمز للخصب والنماء والحب والثراء، أما اللون الأصفر فكل أهل الأرض يعرفون أنَّه يرمز للموت والذبول لأنه مشتق من اصفرار ورق الشجر في الخريف ومشتقٌ من لون غروب الشمس وانحدار النهار نحو الأفول، أما اللون الأحمر فهو يوحي بالدفء والحرارة والحب المتأجج وخطر الموت والدم والحروب، وهكذا نجد أنَّ هذه المدلولات وانطباعاتها هي التي تتحكم في أذواقنا اللونية واختياراتنا.

وتمثل ألوان الطيف السبعة أوألوان قوس القزح الألوان الرئيسية التي تتركب منها جميع الألوان الموجودة والممكنة على سطح الأرض فكيف تعلم الإنسان قيم الجمال من الطبيعة ؟ وكيف ساهم بعد ذلك في إثرائها ؟

الطبيعة البكر مليئة بالصور الجمالية المنوعة فأينما ألقيت الطرف في الاتجاهات الأربعة وقع طرفك على ما يبهج النفس ويسر الفؤاد فهذه التراكيب والمساحات اللونية ولتناظرات الهندسية العفوية كانت المنابع الأولى للجمال فهل قامت الطبيعة دائماً بدور معهد الفنون الجميلة الذي علَّم الإنسان القيم الجمالية الأولى؟ طبعاً وأنَّى للإنسان أن يقتبس قيمه الجمالية ويصقل ذوقه الفني إن لم يكن من الطبيعة ؟ التي تعمل حسب قانوني التآلف والتباين اللوني وحيث نجد أنَّ التآلف اللوني يربط بين السماء والبحر بوحدةٍ مدهشة نجد أنَّ التباين اللوني (contrast) يربطهما مع جزيرة خضراء تتوسط البحر وتشرئب جبالها الخضراء نحو السماء، والغيوم الرمادية المتراكمة تتناغم مع القمر المطل من بين نوافذها في ليلة باردة وهو ينشر بعض ضيائه الواهي فوق سطح بحيرة حالمة، والمروج الخضراء تحاصر آلاف الأزهار الحمراء والبيضاء والصفراء وتأسرها بالتباين اللوني وكأن كلا من المرج والأزهار يحاول أن يظهر الآخر ويدل عليه، كذلك يتباين اللون الأصفر مع البني ليظهر جمال جلود النمور المخططة والفهود المرقشة والأفاعي المتموجة بين الحشائش وعلى جذوع الأشجار، إن القيمة الجمالية لأي لون لايمكن أن تظهر إلا بالحضور المشترك المتناغم والمتباين مع الألوان الأخرى كما نراه حيا صارخا في الببغاوات الملونة الرائعة في جنوب شرق آسيا وحوض الأمازون.

جـ – التناغم الصوتي:

تنتج الطبيعة تشكيلة واسعة من الأصوات المتناغمة وغير المتناغمة على حد سواء، فمن هزيم الرعد إلى هدير البركان ومن حفيف الشجر إلى خرير الجداول ونقيق الضفادع وزقزقة العصافير، كل هذه السيمفونية المتكررة عبر ملايين السنين كانت تستقر في ذاكرة الإنسان بكل مدلولاتها ورموزها، ولا يمكن لأي محمول جمالي أن يأخذ قيمته القصوى بدون التناغم الصوتي لموسيقى الحياة، فهل كان بإمكان الإنسان ترتيل ملاحمه الشعرية دون آلاته الموسيقية التي طورها وحاول فيها صنع موسيقاه الخاصة ؟

إن صورة الديك بعرفه الأحمر وريشه القرمزي اللامع هي ذات قيمة جمالية عالية ما كانت لتنجز روعتها لو كان الديك يصيح مثلا بصوت الحمار، وهنا نجد أن عناصر الجمال كلها من تناظر هندسي وتآلف لوني وتناغم صوتي تتضافر كلها لتعطي الصورة الفنية النهائية لولادة يوم جديد وتفتح صبح جديد، وعندما حاول الإنسان تقليد أصوات الطبيعة كانت إمكانيات صوته محدودة بقدرات حباله الصوتية، ولكن عقله لم يكن كذلك فانطلق يبتكر آلاته الموسيقية من وترية ونفخيه وإيقاعية حتى تغلب على حواجزه الصوتية فأنتج آلاف الأصوات الموجودة والممكنة، وناغم بينها ليبدع موسيقاه الخاصة التي تحمل مشاعره وتعبر عنها وما هذا الإنجاز الرائع إلا بداية لصناعة الفن غاية الحضارة وهدفها.

لاشك في أن اللذة الجمالية بما تنشره في جملتنا العصبية من نشوة تشبه حالة الثمالة بدون مسكرات تساهم ولو بصورة مؤقتة في إزالة التوتر الناجم عن كبح الغرائز وتعزز في نفس الوقت آليات التعويض والتصعيد، وتخفف من ضروب القمع المؤلم والحصر وكأننا نداوي سلبيات الحضارة بإيجابياتها، ولذلك فإن الإنسان لم يكتف بالاستمتاع بالمواضيع الجمالية الطبيعية، بل تجاوزها لإثراء هذه المواضيع وإعادة صنعها حسب موشوراته الخاصة معلنا بدء التلاحم العضوي بين الجمال والفن.

د – النظام والنظافة :

وهما عنصران رئيسيان من عناصر الجمال وما فتئت الطبيعة تعلمنا دائما القيم الجمالية للنظام والنظافة، فالكون برمته مبني على أسس رياضية دقيقة وقوانين فيزيائية ثابتة وما يبدو لنا أحيانا فوضويا متناثرا كالنجوم ماهو في الحقيقة إلا بناء هندسي رائع مبني بإحكام دقيق على قوانين رياضية وفيزيائية صارمة تحكم المسافات البينية التي

تتخلله وتنظم سرعة دوران الأجرام والكواكب التي تنتظم فيه، وأرضنا التي نسكنها وهي جزء لا يتجزأ من هذا النظام الواسع لا يمكن أن تشذ عن هذا الكون الذي تنتمي إليه فهي كروية مصمتة تتوزع عناصرها على سطحها حسب شروط كيميائية وفيزيائية دقيقة تحقق دائما توازنات مستقرة، ومن خلال تلك التوازنات تنتقل عناصر الأرض من حالة إلى أخرى ومن مركب إلى آخر، ونجد كمثال على ذلك (وما أكثر الأمثلة) أن تعاقب الليل والنهار والفصول المناخية الأربعة والمد والجزر بصورة منتظمة أمر يدعو للدهشة والعجب أفلا يضفي ذلك النظام على الأرض جمالا فوق جمالها؟ ولنأخذ مثلا موضوع النظافة؛ فكيف كانت الأرض تهتم بنظافتها قبل أن يأتي الإنسان إليها ويعمرها بالحضارة ويعيث فيها بنفس الوقت فسادا، فأوراق الخريف المتساقطة والأشجار المتكسرة تحت سياط الأعاصير وجثث الحيوانات النافقة كل تلك القمامة الطبيعية تعمل عليها مخلوقات الأرض النشطة، فآكلات اللحوم من كواسر وجوارح تأخذ حاجتها الغذائية والنمل، وجامعات المؤون تأخذ حصتها وتتكفل بالباقي الخمائر والجراثيم بعمليات التحلل المعروفة وتنهي المسرحية مكانس الريح وشاطفات المطر والسيول لتعيد البيت الأرضي دائما إلى رونقه وجماله، ولكن الأمر ازداد سوءا عندما تدخل الإنسان بصيروراته الصناعية وأضاف إلى القمامة الطبيعية قمامته الصناعية التي ماعتادت الأرض على تصفيتها ولاالتعامل معها كالمواد البلاستيكية والنفايات النووية، فهل نستنتج بأن الطبيعة علمت الإنسان الجمال والفن بينما أساء هو إليها بأن مرغها بقمامته الخاصة؟

من جملة ما تقدم نستخلص أن النظام والنظافة بالإضافة إلى الانسجام العام والتناسق العضوي بين عناصر الجمال الأخرى كانت المعلم الأول للإنسان ومنهله الرئيسي الذي أثراه بالقيم الجمالية وحثه على الولوج العميق في رياض الفن اللانهائية بغض النظر عن القيم النفعية التي يصر بعض العلماء على إدخالها في جملة المحرضات الأساسية للأعمال الفنية.

هـ- القيم النفعية للجمال والفن:

هل كانت هناك قيم نفعية في تألق الزهرة وتباينها اللوني ورائحتها العطرة ؟

إن قانون حفظ النوع والاصطفاء الطبيعي يملي على أي نوع من الكائنات الحية شروط التأقلم والتكيف لاستمرار النوع وبقائه، وهذا التكيف بدوره يتحكم في الصفات

الوراثية للكائن بحيث لا يعيش منه إلا الأفراد القادرين على الإنجاب والتكاثر، وفي الأنواع النباتية يعتبر جمال الزهرة وشذا عبيرها مطلبا حيويا لجذب الحشرات إليها والتي تقع على عاتقها مهمة التلقيح والإنجاب، ومن هذا المنطلق يمكن أن نعتبر أن جمال الزهرة ينطوي على قيمة نفعية للنبات ضمن دائرة استمرار بقائه، ولكنها أيضا ذات قيمة نفعية للإنسان ضمن دائرة تلذذه بجمالها إذا اعتبرنا أن عملية الاستمتاع الجمالي هي بحد ذاتها قيمة نفعية ومن نفس المنطلق نستطيع أن نفسر أيضا التصاعد التاريخي في النسب الجمالية على مستوى الأنواع ككل من حيث أن الأفراد الأكثر جمالا وقوة وتكاملا سيكون لهم الحظ الأوفر في التزاوج والإنجاب، بينما ينقرض الأفراد الأقل جمالا وتكاملا، إذن هناك قيمة نفعية للجمال على مستوى الكائنات الحية ولكن ما حاجة حجر الماس والزمرد والياقوت لأن يكون جميلا؟ إن وجوده واستمرار بقائه لايعتمد على شكله ولاعلى وجوهه المتناظرة وسطوحه البراقة وألوانه المتألقة، وهي ليست في الحقيقة إلا انعكاسا طبيعيا للبنية الذرية المجهرية لتركيبه الكيميائي، وما حاجة الأرض أيضا لأن تكنس نفسها وتنظف سطحها؟ فآليات التنظيف بالريح والمطر قد لاتؤدي فقط عمليات تنظيف إيجابية، وقد تؤدي الريح الكانسة لأوراق الخريف لتكسير أشجارجديدة وجميلة، في حين أن السيول الشاطفة قد تؤدي إلى جرف وتدمير مواضيع جمالية رائعة، إذن لا تتحقق الغاية النفعية في جمال الطبيعة الجامدة ولكنها تتحقق على مستوى الطبيعة الحية. وسوف يتحول سؤالنا الآن إلى الدائرة المجاورة: هل كان الإنسان البدائي ذواقا للجمال؟ بمعنى: هل كان تذوق الجمال أحد صفاته الوراثية أم أنه اكتسبه خلال رحلة التحضرالطويلة ؟ وحتى نجيب على هذا السؤال العويص بأقرب ما يمكن إلى الحقيقة يجب أن نجري بعض التجارب السلوكية على بعض الأطفال من أعمار متفاوتة ونلاحظ ردود أفعالهم تجاه مواضيع جمالية مختلفة باعتبار أن الطفل هو أقرب نموذج بشري للإنسان البدائي ونلاحظ في محيطنا العائلي أن الأطفال الذين تقل أعمارهم عن الثلاث سنوات أي الذين لم يبلغوا بعد درجة الوعي بالذات لا يتمتعون بالقدرة على التمييز الجمالي للمواضيع المحيطة بهم بقدر ما يحفزهم الفضول الاستكشافي على تفحص المواضيع الغريبة الأشكال والمتنافرة الألوان و يجذبهم بصورة خاصة اللون الأحمر والأصفر، ولو وضعنا أمام طفل من تلك الشريحة وردة نضرة وقطعة عديمة الشكل من الحجر فقد يختار الوردة لانجذابه إلى

لونها، وقد يختار قطعة الحجر ولكن لو كررنا التجربة مع تغيير مواقع الموضوعين لتساوت الخيارات بالنسبة للطفل، وقد يزيد خيار الحجرعلى خيارالوردة مع الأخذ بعين الاعتبار أن كلا الموضوعين يتجه إلى الفم كعادة الأطفال دائما. نستنتج من تلك التجارب السلوكية على الأطفال وحتى على القردة بأن التذوق الجمالي يجب أن يكون مشروطا بالوعي الذاتي والوجودي، وان مخلوقا لا يعي ذاته لا يمكن أن يحس بالجمال، وأن الإنسان البدائي توجب عليه الانتظار بضع مئات من آلاف السنين قبل أن يخترق حاجز الوعي بالذات، ويستمتع بنعمة التذوق الجمالي كمرحلة أساسية أولية لبناء الإنسان الفنان.

فالجمال بصورة عامة هو قاعدة الفن الأساسية وشرطه الضروري والإنسان هو أعمدته الارتكازية وشرطه الوجودي وبفقدان أحدهما لا يمكن أن تقوم للفن قائمة، وحيث أن الفن ظاهرة حضارية فيجب أن تتضمن آلية انبثاقه نوعا من الضرورة الحضارية أي إنسانا ذا مواصفات خاصة بلغ مرحلة معينة من السمو الحضاري، وبوجود هذا الإنسان وبتماس مباشر مع المواضيع الجمالية يحصل التفاعل النفسي بين الموضوع والروح التي تحاول استبقاء الموضوع لمزيد من المتعة فتحاول تقليده أونسخه مع بعض الإضافات الذاتية المنعكسة عن المرايا الداخلية للإنسان فيما يشبه إعادة الخلق الجمالي الغني بالإيحاءات والرموز التي تشحن الموضوع بطاقات عاطفية قوية، ولا ننكر أبدا أن تلك الإيحاءات والرموز هي ذاتية بحتة، ولكنها على المستوى الإنساني تصبح قادرة على اختراق اللاشعور البشري لتعطي زخما انفعاليا مؤثرا. الفن بكلمة بسيطة هو صنع الجمال ولكنه ليس جمالا طبيعيا وفطريا، إنه جمال إنساني يصل إلى حد الإدهاش والمفاجأة غير المتوقعة إنه ليس تقليدا ونسخا بالمعنى السطحي للكلمة بل تصعيد لانفعال اللحظة التصادمية بين الذات والموضوع، إنه تلك الشهقة البريئة للحدث التصادمي بين قنوات الإحساس وومضة الجمال يستوي في ذلك الرسم والنحت والموسيقى والمسرح والشعر، فإذا افتقد الفن تلك الومضات المدهشة تحول العمل الفني إلى مواضيع تافهة ونسخ تقليدية، وقد عبر أسلافنا الأوائل عن حضاراتهم المتتابعة عبرالزمان بفنونهم المنتشرة على مساحة العالم، وهنا يجب ألا ننكر على الفن وهو وليد الحضارة خدمته الجليلة لها بتخليدها عبر الزمن كالولد الذي يخلد ذكرى أبيه، ويكفي أن ننظر لآلاف المعابد والأوابد والقلاع المنتشرة في طول الأرض وعرضها، والتي استعصت على الزمن بحجارتها المنحوتة

مذكرة بكل ضربة إزميل وشهقة حجر ومرور أمة لم يبق منها إلا فنونها وعبقرية رجالها.

كانت الحضارة تنتقل من أرض إلى أرض ومن أمة إلى أخرى عبر المكان والزمان كالعدوى المرضية، وكانت كل أمة تتميزعن الأخرى بسماتها الذاتية الخاصة فتجد مثلا أن فن العمارة في أمة ما تطرأ عليه بعض التحولات من زيادة أونقصان أوتعديلات ملحوظة في الأعمدة والأقواس والقبور، وهذه كلها تمثل السمات الحضارية والثقافية للأمة والزمن الذي عاشت فيه، ولاشك أن الانتقال الحضاري في المكان يدين بإنجازه لحركة التجارة العالمية ووسائل المواصلات التي سهلت عملية الاحتكاك بين الشعوب وامتزاج الثقافات، وخاصة في بلاد الرافدين وسوريا ومصر واليونان، وبصورة عامة دول البحرالأبيض المتوسط التي كانت المحل المناسب لمثل هذا التمازج، كذلك ساهمت الهجرات والغزوات الكبرى وطرق الحجيج المسيحي والإسلامي في مثل هذا الاختلاط، فهل نستطيع الادعاء بعد ذلك بموضعية الحضارات وخصخصتها وأنها كلها ليست أكثر من فصول مسرحية في ملحمة كبرى تدعى الحضارة الإنسانية ؟.

٦ فلسفة الحب

مثلما انبثق الفن من الجمال في الفصل السابق كذلك ينبثق الحب في هذا الفصل فلا يمكننا تصور مشاعر الحب والمودة دون تأثر مسبق بالجمال، ولا يشترط بالجمال أن يكون ماديا عينيا فالصدق جمال والفضيلة جمال والتسامح جمال وكل سلوك إيجابي يحمل سمة جمالية خاصة يفرز مشاعر الإعجاب والتقدير يكون أساسا للحب، وكأن الفن والحب هما تؤمان لأب واحد اسمه الجمال، ففي الفن ينعكس الجمال على المرآة الإنسانية الحضارية ليفرز الفن الخالص، بينما ينعكس في الحب على نفس المرآة لينتج مشاعر التعلق والتودد والإلفة والصداقة. صحيح أن الجمال لم يكن مشروطا بالحضارة فقد كان موجودا في الطبيعة قبل وجود الإنسان والحضارة، ولكننا لا نملك أن ننكر أن الحضارة صعدت من كثافة الجمال وزخمه، وأضافت إليه الجمال الإنساني الصناعي عبرالخبرات البشرية المتراكمة، من هنا نجد أن العلاقة بين الحضارة والحب هي علاقة جدلية يتوسطها الجمال. ولكن هذا لا يعني أن الإنسان البدائي لم يكن قادرا على الحب، فقابلية

الحب موجودة في الدوافع الموروثة في الإنسان وحتى في بعض الأنواع الحيوانية العليـــا، ولكن الجمال وهو المحرض الأساسي للحب تنامى بفعل الحضارة وتنوعـــت مواضيعـــه، مما أدى إلى نمو مساو في الحب وشبكة العلاقات الاجتماعية، وكمثال علـــى ذلـــك فـــإن الرجل البدائي والمرأة البدائية كان يحب أحدهما الآخر كاستجابة لدوافع جنســـية أساســـية وليس لاستهواء جمالي صرف (رغم تأثر عملية الانتقاء ببعض المعايير الجمالية النســـبية) فكلاهما كان عاريا قذرا فوضوي الشعر سيئ الرائحة، ولكن الحضارة أضافت لمثل ذلـــك الإنسان بعض الجمال عندما علمته الاستحمام وقص الشعر وتقدير الجمال والاستمتاع بـــه فأصبح الرجل أكثر كياسة وأدبا في التقرب من الأنثى وأصبحت المرأة أكثر رقة وحيـــاء في الاستجابة للرجل، إذن فقد رفعت الحضارة من نسب الجمال ومـــن أخلاقيـــة الإنســـان لترفع بالتالي من قيمة الحب ومن شبكة العلاقات الاجتماعية. الحب شعور يبعـــث علـــى الرضى والسعادة ويخفف من ألم الهموم وحصر القلق وهو بـــهذا المفـــهوم يعتـــبر أحـــد إيجابيات الحياة، ونستطيع القول بكل أمانة بأنه لولا الحب لما كان هناك مجتمـــع إنســـاني إطلاقا ولاقتصرت الحياة البشرية على شتات من الأفراد المتوحشين الذين يتقاتلون لأتفـــه الأسباب، ولما وجدت العائلة ولا الحياة الاجتماعية وبالتالي لما كانت هناك حضـــارة. إذن نتأكد من هذه المناقشة أن الحب كان أحد الأسباب المحرضة لوجود الحضارة كمـــا هـــو بالتالي أحد مفرزاتها الجدلية. وعندما تحدثنا سابقا عن فلسفة السعادة قلنا بأنها مبنية علـــى مبدأ اللذة الناجمة عن إزالة توتر الحرمان الدوري أي تحرير الضغـــط النفســـي بإشـــباع الرغبات الملحة كلما تراكمت مطالبها، ويأتي الحب في هذه الآلية ليضيف عاملا مســـاعدا في عملية إزالة التوتر، وخاصة ذلك التوتر الناجم عن الحاجة الجنسية، ويندمـــج الشـــعور بالحب في قسم كبير منه بأحاسيس التذوق الجمالي إذ لا يمكنك أن تحب ماهو قبيح رغـــم أن كلمة قبيح وجميل لا تنطوي على معاييرها الحقيقية التي تختلف في الزمـــان والمكـــان ومن شخص إلى آخر، رغم أن خطوطها العامة تبقـــى شـــائعة ومقبولـــة عنـــد الأغلبيـــة الإنسانية.

ولكن كيف يحصل الحب ؟ وما هي آليته السلوكية والنفسية ؟

يبدأ الحب أولا ببعض الإعجاب تجاه موضوع ما شيء أوحيوان أوإنسان، وقد يكـــون الإعجاب متموضعا على الشكل الخارجي أوالمضمون الداخلـــي أوعلـــى كليـــهما بنســـب

متفاوتة، إن الإعجاب بموضوع جمالي أو بجزء منه قد يمر مرور الكرام إذا حصل عبر حادثة واحدة أو مشاهدة عابرة تدبرها الصدفة، وقد يكون أيضا تأثير المشاهدة الأولى سطحيا أوعميقا، ولكن إذا لم تتكرر تلك المصادفة وتكرر الإعجاب بنفس الموضوع فإن أثر تلك المشاهدة قد يزول مع الزمن، لذلك يمكن تعريف الحب بأنه الإعجاب المتكرر تجاه موضوع جمالي معين لدرجة يتمنى فيها المعجب بعدم زوال الموضوع واستمرار بقائه.

ولكن هل يقف الحب عند حدود المشاعر المجردة بالانجذاب للموضوع؟ وهل هو دائما عامل مثير للسعادة واللذة المباشرة؟ طبعا لا. فآلية الفطرة الإنسانية لا تقف عند حدود التذوق الجمالي المحايد بل تتعداه لتطالب باستحواذه والاستئثار به، وعندما يصبح مثل هذا الاستئثار ممتنعا لسبب أولآخر فإنه يسبب الحرمان العاطفي والحصر المولد للتعاسة والقلق، وهكذا يتحول الحب من أداة باعثة على السعادة واللذة إلى أداة قلق وألم وتوتر.

أما من الناحية النفسية فهو حاجة ملحة للإنسان لإكمال شخصيته بالجنس الآخر، ومن المعروف أن الذكور يشتركون في صفات عامة لايشاركنهم فيها الإناث اللاتي يتميزن أيضا بصفات أنثوية خاصة بهن لاتتوفرعند الرجال، وبالتالي فإن كلا من الجنسين يستطيب من الجنس الآخر تلك الصفات التي حرم جنسه، منها ويتحكم في عملية الاستهواء هذه مجموعة الهرمونات التي يفرزها كل جنس في أجسام أفراده، فالمرأة مثلا يعجبها من الرجل صفاته الذكرية التي تفتقدها كطول القامة ونمو العضلات وخشونة الصوت والتحلي بالذقن أوالشاربين وقلة الكلام، بينما يستطيب الرجل في المرأة نعومة بشرتها ورقة صوتها وحنانها المعطاء وبعد بصيرتها وحدسها الذي لا يخطئ، لذلك فمن البديهي إذن أن أي ارتباط اجتماعي بينهما سيؤدي إلى التكامل النفسي لكليهما، وكثيرا ما نسمع من بعض عبارات الغزل وقصائد الشعر شيئا من هذا القبيل: قبل أن أعرفك كنت نصف إنسان، أو: وأنت معي أشعر بأن العالم كله ملكي أو: بحبك أنت يكتمل الوجود.

إذن لا نستطيع الادعاء بأن هذا النوع من الحب هو حب خالص مجرد عن أي مصلحة، فحب الآخر هنا هو أيضا من أجل استكمال الذات ولا يتنزه تماما عن نوع من النرجسية الخفيفة بمعنى أحبك من أجل ذاتي إما لأستمتع بوجودك معي أولأني أشعر بكلية

وجودي بصحبتك، وبالتالي فإن أي تغير في معايير هذه المعادلة أو عقبة في تحقق المصلحة يمكن أن تؤثر سلبا على تلك الرابطة وتؤدي بها للفتور والملل، وهذا ما يحصل غالبا للمتزوجين بعد عدة سنوات من الزواج. ولكن يحق لنا أن نسأل هل هناك حب إنساني في هذه الحياة خال تماما من المصلحة الخاصة ؟ والجواب هو نعم فحب الأبوين لأولادهما هو من هذا النوع الذي لا يخمد ولايعتريه الملل مهما كانت ظروف الأولاد عصاة كانوا أم مطيعين جاحدين كانوا أم ودودين ومهما كانت مراكزهم الاجتماعية ساسة كانوا أم مجرمين، مثل هذا الحب يستمد وقوده من قناعة الأهل بأن هؤلاء الأولاد ما هم إلاامتداد طبيعي لوجودهم الزائل، أي بصورة أوضح من غريزة حب البقاء التي تحافظ على استمرارالنوع، وفيما عدا هذا النوع من الحب فإن جميع الأنواع الأخرى لاتخلو مبرراتها ودوافعها من بعض المصالح الشخصية التي قد تطفو أحيانا على سطح السلوك، ولكن غالبا ما تختفي تحت مبررات أخرى. وعندما نتصدى لأعظم ظاهرة إنسانية وهي الحب بالبحث والتحليل وندرس انعكاساتها على مسيرة الحضارة البشرية يجب أن نكون موضوعيين ومحايدين، لنذكر أيضا انعكاساتها السلبية أيضا على تلك الحضارة فكم من حب جنوني أدى إلى إثارة الحروب والكراهية بين الشعوب وكم من امرأة في التاريخ غيرت مغامرتها العاطفية خارطة العالم وتسببت في إزالة دول وحضارات، ورغم أن الحب كما ذكرنا سابقا قد لا يخلو من بعض الدوافع المنفعية لتحقيق مصلحة خاصة إلاأننا لاننكر عليه أنه أفضل المشاعر الإنسانية على الإطلاق فمنه تنبثق مشاعر الود والحنان والإيثار والاحترام الشهامة والشجاعة، وتبني المواقف الإنسانية رغم أن تلك المواقف قد تعود على صاحبها بالأذى والضرر، فأنت لا تستطيع أن تناصر زميلك في العمل أوجارك في البيت في مأزق ما لو كنت لا تحبه وبالتالي فإنك ملزم بتبني مواقف موازرة لجميع من تضعهم في قائمتك الخاصة في زمرة المحبين، وهكذا نجد أن شبكة العلاقات الاجتماعية تنمو وتتزايد بسبب الحب، وهذا بحد ذاته تعزيز منظور للقيم الحضارية للمجتمع التي تتناسب طردا مع متانة شبكة العلاقات الاجتماعية.

قلنا سابقا أن الإعجاب المؤدي للتعلق بموضوع جمالي يمكن أن يكون متموضعا على الشكل الخارجي لذلك الموضوع، أوعلى المضمون الداخلي له أوعلى كليهما بنسب متفاوتة، ولكن الحب المبني على الإعجاب بالشكل الخارجي فقط سرعان ما يزول ويتلاشى عند أي

تغير في الشكل الخارجي للمحبوب، فالرجل الذي يحب امرأة لجمالها فقط لابد أن يتراجع عن هواه عندما تهرم تلك المرأة أويتغير جمالها لسبب أولآخر، وقد تعجب بنموذج معين لسيارة لأن تصميمها الخارجي مثلا أولونها أثار في نفسك أوتارا جمالية خاصة ولكن إعجابك هذا قد يتراجع إذا اكتشفت أنها لاتسرع أوأن محركها عالي الضجيج، لكنك لاتستطيع أن تكف عن حب امرأة ذكية ولبقة ومتحدثة مهما كان شكلها الخارجي. كذلك لاتستطيع أن تتوقف عن حب ابنك أوابنتك لأن شكلهما الخارجي مثلا كان قبيحا فهما من لحمك ودمك وهما بأقل تقدير يشكلان استمرارا لوجودك الفاني في هذه الحياة القصيرة، ويحضرني الآن مثال واضح عن الحب المتمركز حول المضمون يتمثل في قصة من قصص الأطفال العالمية تدعى قصة الأمير المسحور وتتحدث عن فتاة جميلة وهي أصغر أخواتها تضطر إلى الزواج من أمير مسحور دميم الوجه قبيح الشكل بسبب ساحرة شريرة غيرت له شكله عقابا له على ذنب اقترفه بحقها واشترطت عليه بأنها ستعيده إلى شكله الأول إذا وجد من تحبه وتقبل الزواج منه بشكله الدميم وبملء حريتها وإرادتها، وهكذا وجدت الفتاة نفسها زوجة لرجل دميم لاتحبه إنقاذا لوالدها وأخواتها من شر مستطير كان سيقع عليهم من ذلك الأمير السحور، وبعد أن تعايشت معه فترة من الزمن في قصره تبين لها كم هو لطيف المعشر رقيق المشاعر يتسم بالحنان والشهامة فبدأت تحبه رغم شكله القبيح وعندما وضعت في امتحان الاختيار الحر بين أن تبقى زوجته أوأن تذهب لبيت أبيها فضلت الخيار الأول، وعندئذ تلاشى مفعول السحر عن الأمير وعاد إلى وسامته الأولى. هذه القصة الخيالية تؤكد أن الحب المتموضع حول المضمون هو أقوى وأبقى من الحب المتمركز على الشكل الخارجي.

٦-١ :أنواع الحب:

نستطيع أن نقسم الحب حسب نوع المحبوب إلى ثلاثة أنواع :

ا- حب الأشياء الجامدة والمجردة

ب- حب الحيوانات

جـ - الحب الإنساني



ا- حب الأشياء الجامدة والمجردة :

وهو التعلق الأعمى ببعض الموجودات الطبيعية والاصطناعية لدرجة الهوس كحب البعض للأحجار الكريمة والطوابع والمقتنيات الأثرية، أما الأشياء المجردة فينضوي تحتها رهط كبير من العلوم والألعاب الرياضية والتي يشكل التعلق بها بداية الهوايات الإنسانية والتخصص الاحترافي والمهني، وهذا النوع من الحب غير قابل للتلاشي لأنه يتعلق بمحور الشخصية الإنسانية وعقدها الخاصة وتكوينها الطفولي الأولي، ولكن قد يعتريها بعض الفتور المؤقت حسب المزاج الشخصي.

ب- حب الحيوانات :

وهو الحب القائم على أحد الأسباب الثلاثة التالية : ١- العقد الشخصية للإنسان كفرط الحنان عند الأنثى والمبني على كبت غريزة الأمومة كالسيدات اللاتي يعشقن تربية القطط والكلاب وبعض أنواع الطيور ٢- عقدة الإثم العامة عند الإنسان تجاه الحيوان المظلوم الذي أبعد عن بيئته الطبيعية نتيجة التوسع الجائر في مشاريع الإسكان البشرية ونتيجة الصيد الجائر لبعض الأنواع التي أشرفت على الانقراض ٣- لجمال خاص بالحيوان نفسه يمس أوتارا حساسة خاصة في قلوبنا كوفاء الكلاب ونعومة القطط والألوان المفرحة لبعض الطيور أوأصواتها العذبة.

إن حب الحيوانات قد يتحول في شروط خاصة إلى ظاهرة مرضية عند بعض الناس قد تثير العجب والاستغراب، فأنا مثلا أعرف عددا كبيرا من الناس الذين يشترون بعض أنواع من الطيور بمبالغ طائلة قد تدفعهم للاستدانة والاقتراض دون أن يفكروا في أولادهم مقابل اقتنائهم لتلك الأنواع، وفي بعض الحالات الخاصة تجد لمبررات الاقتناء التي يدعيها هؤلاء تداعيات غريبة منها مثلا لأحد مقتني السلاحف الذي يقول: مسكينة جدا وبريئة تلك المخلوقات العاجزة عن الركض والطيران، والتي لا تملك للدفاع عن نفسها إلااللجوء إلى درعها وحجرتها التي تحملها عل ظهرها أينما ذهبت كقدر محتوم ولاتستطيع إطلاقها في الطبيعة إلا في بيئتها الخاصة جدا والمحدودة جدا في شواطئ البحيرات والأنهار، إني أحس بأني لو تخليت عنها فإنها ستموت حتما، وعندما رأيتها أول مرة تتدحرج على شاطئ البحيرة ببطء شديد أحسست بأنها بحاجة للمساعدة وأن مساعدتها هي مسؤولية كل واحد منا. إذن نحن هنا إزاء حالة خاصة من الشفقة التي

تتحول إلى التزام أدبي تجاه موضوع غير جميل ولكنه ضعيف وهي علاقة حب تصب في صالح السلحفاة وليس في صالح المحب، إنه سوف يتكلف ماديا على إطعامها والعناية بها دون أن يكون هناك أي استمتاع بالمقابل لا بصوت جميل ولا بشكل جميل إنما متعة خاصة براحة الضمير.

إن فكرة الرفق بالحيوان هي ظاهرة حضارية شائعة في كل المجتمعات التي تقدر الحيوان وتقدس الحياة كظاهرة إلهية لا تتكرر ومعجزة تستحق الاحترام والتقدير، خاصة وأن الإنسان يتربع على قمة هذه الكائنات الأدنى منه عقلا وقدرة، وبحكم موقعه المتميز هذا يجب عليه أن يرأف بأنواع الحيوانات الأدنى التي تتألم بصمت وتمرض بصمت وتجوع بصمت ثم تموت بصمت دون أن تشكوا أوتعبرعن نوع ألمها أوشكواها، وفي رأيي أن هذا النوع من الحب يرتقي إلى أعلى المراتب الإنسانية لأنه مجرد عن المصلحة الشخصية كالحب الأبوي أوالأمومي.

جـ - الحب الإنساني :

سبق أن نوهنا ببداية هذا الفصل بأن الحب هو عاطفة إنسانية سابقة للحضارة ومرتبطة بالغرائز البدائية، ولكن الحضارة سمت بتلك العاطفة ورفعتها من مستوى الحب الأناني النفعي البحت إلى مستوى الحب اللامشروط والمبني على العطف المجرد من المصلحة؛ بمعنى أن الإنسان البدائي كان يحب ما يريده ويحقق له السعادة والإشباع ولكن ظروف حياته القاسية لم يكن فيها مكان لحب منزه عن المصلحة أولعطف إنساني مجرد طالما أن حياته كانت تتوازن مع صراعات البقاء للأفضل أكون أولا أكون والطبق لمن سبق؛ ولذلك لا يمكن أن نتوقع من إنسان بدائي متوحش ومستوحش أن يترك صيده في العراء عرضة لنهب الحيوانات حتى يعالج جروح إنسان آخر وقع نازفا في مجابهة الصيد الطاحن مع الطرائد، وإلا فإنه سيفقد عشاءه وسيبيت هو وأطفاله جياعا حتى يتوفر لهم صيد جديد.

وعندما تحضر الإنسان وأشبع معظم ضروراته الأساسية طفت على سطح حياته ضروراته الاجتماعية التي تتضمن الحاجة الماسة للآخرين بحكم كونه مخلوق اجتماعي لايحب العزلة، ومن هنا بدأت تنمو بعض العواطف الإنسانية المجردة كالصداقة والعطف على الضعفاء كالصغار والمسنين والنساء، وهذه المشاعر النبيلة هي المضمون الرئيسي

لإنسانية الإنسان بشكله الحضاري؛ فالحب المجرد ينبع من التراكمات التربوية والحضارية التي لم يكن الإنسان البدائي يعرفها، فكان إذا أحب أنثى أحبها لجمالها أولدوافع غريزية بحتة، وكان إذا دافع عن أحد فعل ذلك بحكم مصلحة له مع هذا الأحد وليس لأن ذلك الأحد ضعيف أومسكين إذ، لم تكن العواطف الإنسانية قد أخذت بعد مساحتها الطبيعية فيه وهنا نستطيع أن نستخلص أن القيم الإنسانية المجردة كالحب والعطف والشفقة والإيثار والشهامة لم تكن لتظهر في الإنسان لولا التربية الحضارية، وهذه هي إحدى إيجابيات الحضارة فهل نستنتج من ذلك أننا مقبلون على عصور مظلمة من التخلف الحضاري ونحن نشهد في نهاية القرن العشرين اضمحلال تلك القيم الأخلاقية المرافق للانفجارات السكانية على امتداد الكرة الأرضية ؟؛ إن الانفجار السكاني في العالم مع محدودية الموارد الطبيعية وعدم تنميتها يعني بكل بساطة شراسة أعنف في صراع البقاء، ومع تلك الشراسة الغاضبة في سبيل تحصيل لقمة العيال كيف ستكون هناك مسلحة عاطفية وأخلاقية للآخرين؟.

الحب النقي المجرد هو حب للعطاء وليس للأخذ والاستغلال وفي هذه المساحة يصنف الحب الأمومي والأبوي وقلة من الحب العاطفي والزوجي، أما الأنواع الأخرى من الحب فقد تختلط الظواهر فيها بحيث يستعصي تمييزها إذا لم تمتحن على محك الموقف أو التجربة، وما أكثر المواقف المحرجة في الحياة التي يظهر فيها المحب على حقيقته خاصة إذا كانت تلك المواقف تتطلب تضحية بالمال أوالجهد أوالوقت، وعلى كل حال فإن الحب المبني على مصالح شخصية متبادلة سرعان ما يتلاشى بامتناع تلك المصالح عن التحقق.

أما الحب الزوجي فإنه يمر بتشكيله متنوعة من أصناف الحب بداية من فترة الخطبة والحب الأولي إلى مرحلة الجدين والأحفاد مرورا بكل التعزيزات والانتكاسات في العلاقة الزوجية بينهما، ففي فترة الخطبة أوالحب الأولي في مرحلة العزوبة تكون العلاقة بين الطرفين مبنية على الإعجاب أو الحب المتبادل، وقد لايكون هناك حب على الإطلاق إنما رغبة مشتركة بالاقتران، وفي تلك المرحلة يكون الحب رومانسيا مثاليا لأن كلا الطرفين لم يجرب بعد المساكنة المشتركة والمشاكل التي قد تنشأ في حياة زوجية غير مجربة من قبل، ولا نستثني من ذلك وجود دوافع جنسية مكبوتة في بعض الحالات التي يكون فيها

الاختيار مبنيا على ذلك الدافع فقط، حيث تكون النشأة التربوية قد تمت في بيئة محافظة تمنع اختلاط الجنسين، وهنا يكمن خطر انفصام هذا الزواج بعد الاكتفاء الجنسي وملل كل طرف من الآخر، فهل يعني ذلك أن الاختيار المبني على المحاكمة العقلية سيكون أكثر سلامة ودواما ؟ حتى ولو لم تتوفر فيه أدنى درجة من الحب أوالاستلطاف؟، ثم ما هي الأسس الصحية والعقلية التي يجب أخذها بعين الاعتبار لإقامة مشروع زواج ناجح؟، وحتى نصل إلى مثل تلك الأسس يجب أن نعود إلى مفهوم الزواج بحد ذاته، ما هو الزواج ؟.

إنه بكل بساطة مشروع شراكه حقيقية بين طرفين مبنية على رغبة مشتركة بالتعايش السلمي بينهما والتعاون الإيجابي لإنشاء عائلة وإنجاب أطفال سيكونون في المستقبل لبنات اجتماعية صالحة لرفد المجتمع، وبالتالي فإن تلك الشراكه ستكون ناجحة فيما لو ارتكزت على التكافؤ الاجتماعي والاقتصادي والثقافي والنفسي، إضافة إلى الحب المتبادل الغير مرتكز على الشكل فقط، بل يتعداه للروح والمضمون ولكن كيف يميز العاشق بأنه في حالة حب حقيقية أم في حالة نزوة جنسية عابرة ؟ خاصة وأن مثل تلك النزوة قد تشوش الاهتمامات الأخرى بالطرف الآخر، ومع تأكيدنا على أهمية التكافؤ الجنسي بين الطرفين لايمكننا التقليل من أهمية الأسس الأخرى لضمان نجاح الزواج، فهل تتم الزيجات دائما على تلك الأسس الهامة ؟ لاغالبا بدليل امتلاء المحاكم الشرعية بزبائن الزيجات الفاشلة المتهالكين على دعاوى الطلاق.

ليست كل عائلة مستمرة هي عائلة ناجحة بالضرورة وخالية من المشاكل والعثرات، وليس كل زوجين مستمرين في حياتهما تربطهما علاقة حب، فقد تكون الاستمرارية الزوجية قائمة بسبب المسايرة الخجولة من أجل الأولاد أولعدم وجود حل بديل كأن يكون الطلاق أكثر خسارة وضررا من الاستمرار، ومركب العائلة يتأرجح في العواصف الشديدة بأقل خسارة ممكنة، ومن هنا تنشأ سلبيات التربية الفاشلة على أطفال غير متوازنين نفسيا وعاطفيا وغير ناجحين عمليا في الحياة العامة، وقد ينجم عن الفراغ العاطفي عند أحد الطرفين ما يسمى بالمثلث العائلي الذي يتضمن في جنباته احتمال الخيانة الزوجية مع صديق أوصديقة العائلة بغض النظر عن أن يكون رأس المثلث (أي الطرف الدخيل) مكشوفا أومستترا.

وفي الإسلام يأخذ الطرف الثالث شكلا شرعيا بزواج الرجل من امرأة أخرى إذا

كانت زوجته الأولى قد تركت في بيتها فراغا عاطفيا لم تستطع تغطيته بسبب مغالاتها باهتماماتها الأخرى، ولكن الإسلام لايسمح بمثل تلك الشرعية للمرأة إذا كان الطرف الثالث رجلا ، وحيث تمتنع القنوات الشرعية تصبح الإمكانية اللاشرعية والسرية أكثر احتمالا خاصة إذا كان الطلاق متعذرا لأسباب اجتماعية.

ماذا فعلت الحضارة بمؤسسة الزواج ؟ لقد نقلته من عبودية التملك الذكري للأنثى بدوافع جنسية ومصالح فردية إلى شركة حقيقية متكافئة أخذت على عاتقها تنمية المجتمع وإمداده بالعناصر الضرورية لتقدمه نحو الأفضل. وإذا كنا نشاهد بين الحين والحين في بعض أصقاع الأرض بعض العائلات الخاضعة لعبودية التملك الذكري، فهذا يعني أن العالم لم يصل بعد لنفس الدرجة من الحضارة والرقي، وأن تلك الحضارة لا تتوافق مع ذوبان أحد قطبي العائلة في قطبها الذكري الأقوى خاصة وأنها المؤسسة الاجتماعية الأولى التي يقع على عاتقها حمل إنتاج الأفراد وتأهيلهم بهدف تقديمهم للمجتمع كعناصر صالحة تتوازن فيها مشاعر الانتماء للأم والأب حتى تعزز مشاعر الانتماء للوطن، لأن الانتماء العائلي يعتبر الركيزة الأساسية للانتماء الوطني وهنا تكمن خطورة ضعف الانتماء الوطني في عناصر قد تفشل في الدفاع عن الوطن.

تحت فقرة الحب الإنساني تجد تشكيلة متنوعة من أنواع الحب تنظم العلاقات الاجتماعية بين الأفراد والجماعات نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

-الحب العذري :

وهو الحب العفيف المتسامي والمنزه عن الرغبات الجسدية والجنسية ويزخر تاريخ الحب بقصص وافرة عن هيام ووله شديدين يصلان أحيانا لدرجة التضحية بالنفس في سبيل الحبيب الآخر أو لدرجة من الجنون كقصة مجنون ليلى وهي قصة قيس بن الملوح وابنة عمه ليلى العامرية، والتي أدى حرمانه من الزواج منها إلى جنونه المعروف وتسكعه في البراري ينشد أشعار الغرام التي تفيض عذوبة وولها، وقد توفي قيس بعد هزال شديد تاركا وراءه مجموعة من قصائد الحب الرائعة التي لا تزال تتردد على ألسنة الناس حتى الآن، وكما هي الحال في مجنون ليلى كذلك كانت قصص كل من كثير وعزة، وقيس ولبنى، وروميو وجولييت.

ولكن ما هي حقيقة هذا الحب العنيف الذي يحرك المشاعر ويستدر عطف الناس على

المحبين البؤساء ؟ هل هو حب حقيقي ؟ أم أنه مرض نفسي ؟.

يلاحظ دائما في قصص الحب العذري أو الحب الرومانسي كما يسميه الأوربيون بأن كلا من الحبيبين يضفي من مشاعره الخاصة على الطرف الآخر نوعا من القدسية والسمو الروحي، ويأبى أن يتصور حبيبه كإنسان طبيعي يأكل ويشرب ويمارس الجنس كالآخرين ولذلك فهو لا يفكر فيه جنسيا، ويبعد عن ذهنه كل تصور يجرد ذاك الحبيب من صفاته القدسية، وغالبا ما تفشل زيجات كانت تتويجا لحب عذري بسبب أن أحد الحبيبين أوكلاهما لم يستطع أن يتصور أن شريكه الآخر يحتاج إلى الممارسة الجنسية. ولكن كيف وصل الأمر إلى مثل هذا الحد من التسامي الروحي ؟، فالحب العذري يبدأ مثل غيره من مشاعر الحب وذلك بتكرار الإعجاب على الموضوع الجنسي والتثبيت المستمر على الشكل الخارجي أوالمضمون الداخلي أوكليهما معا. وبتكرار الإعجاب والشوق الشديد لاستحواذ ومساكنة الموضوع الجنسي مع امتناع هذا الاستحواذ والحرمان منه نتيجة لظروف اجتماعية، وخاصة في الأوساط المحافظة التي تمنع الاختلاط يتحول الحب إلى نوع من الوله المرضي، ويتم التوحد بالآخر بمعنى أنت متوحد بي وأنا متوحد بك وكلانا في واحد وليذهب الآخرون إلى الجحيم، ومن هذا التوحد والاندماج العقلي والروحي يرتفع مستوى الحب إلى نوع من العشق الصوفي، وتتلاشى تدريجيا جميع المطامح الجنسية المضادة للقدسية المنزهة، ويصبح كل طرف بالنسبة للآخر محورالحياة وغايتها، ولذلك يمكن تفسير التضحية بالذات إذا أصاب الآخر أي مكروه.

إذن، يمكن اعتبار الحب العذري حالة شاذة ومرضية من الحب بين الذكر والأنثى قد تؤدي إلى زواج فاشل أوإلى قصة مؤثرة أوانتحار مؤسف للطرفين.

-الحب الخاطف :

أوالحب من النظرة الأولى كما يسميه الناس، وهو الانبهار المتبادل بين طرفين كما لو أن كلا منهما كان يبحث عن ضالته ووجدها فجأة عند اللقاء الأول، ولا يتمهل أي من الطرفين لمعرفة الآخرعن كثب أولسبر طباعه وطريقة حياته وأسلوب تفكيره، إنه حب مبني على الشكل الخارجي فقط وكأن هذا الشكل كان مرسوما في خياله مسبقا كفتاة الأحلام أو فارس الأحلام، وعندما يتأكد المحب بأن الصورة الخيالية باتت من لحم ودم حي يسعى أمامه فإن مشاعر الانبهار والفرح تدفعه للتصرف بسرعة مذهلة قد تفاجئ

الطرف الآخر، وغالبا ما تكون الزيجات المبنية على مثل هذا الحب قصيرة العمر خاصة بعد أن يكتشف كل من الطرفين أن الطرف الآخر ليس مثاليا كما كان يتوهم وليس مطابقا تماما للنسخة الخيالية التي كانت محفوظة بذاكرته .

-الحب من طرف واحد :

وهو حب أحادي الاتجاه مؤلم جدا لكلا الطرفين حيث يعتقد أحدهما أن الطرف الثاني هو فتى أو فتاة الأحلام المنتظرة والضالة المنشودة التي لن يجد بديلا لها، بينما يعتقد الطرف الآخر المعشوق بأن عاشقه ليس من النموذج الذي يطمح إليه، وهنا تصبح جميع كلمات الغزل التي يهمس بها المحب نوعا من المضايقات المرفوضة بشدة وهنا تنمو مشاعر العداء كلما زاد إلحاح المحب وزاد تعلقه بمن يحب، وكلما زاد الرفض لهذه العلاقة زاد الوله والهيام على مبدأ الطبيعة الإنسانية كل ممنوع مرغوب وكل معروض مرفوض، وغالبا ما يكون الطرف المحبوب متعلقا بطرف ثالث أيضا وباتجاه واحد أيضا وقد تطول هذه السلسلة لتضم عدة أفراد كل منهما يحب الآخر بدون أمل أو حب مقابل. وينمي مثل هذا الحب مشاعر الإحباط والعداء وجرح الكبرياء والتعطش للانتقام الذي يمتد أحيانا ليشمل جنس المحبوب كله، وهنا نطرح سؤالا هاما كيف يقبل إنسان ما أن يستمر في علاقة حب غير متبادلة وكيف يقبل إنسان متحضر أن يعيش مع شريك له لا يبادله المشاعر؟ هل هو العناد؟ هل هو الأمل في أن يجعل حبيبه يحبه مع المعاشرة المشتركة والتعود ؟ أم أنه الانتقام للكبرياء المجروح بعمق ؟ وهنا يتبين الفرق بين الحضارة والتخلف إذ يتضح الفرق أيضا بين الحب الحقيقي ونزعة التملك تلك النزعة التي لاتكترث بمشاعر الطرف الآخر طالما تمتلكه وتملي إرادتها عليه، على كل حال ورغم كثرة هذا النوع من الحب نعترف بأن الحضارة يمكن أن تقلل من حدوث هذا النوع من الحب لأنها تنمي عزة النفس والكبرياء وتحد من شدة الدوافع والنزوات الغريزية التي لاتكترث بمشاعر الغير.

-الحب العائلي :

وهو المشاعر الخاصة المتبادلة بين أفراد العائلة والتي تنطوي على الحب الأبوي والأخوي بحكم الانتماء العائلي وصلة الدم وبحكم المساكنة المشتركة التي تعزز الروابط الداخلية للعائلة. وهذا النوع من الحب لايحتاج إلى الإعجاب المتكرر كشرط أساسي

لوجوده ولكن تفرضه الظروف العائلية، فأنت لاتستطيع مثلا أن تختار والديك أوأخوتــك، وليس لديك أي خيار في أن تساكنهم أم لاخاصة عندما تكون صغيرا تحتاج إلــى الإنفــاق والرعاية، وهكذا تجد نفسك محاطا بأشخاص تتعرف عليهم لأول مرة ويحيطونك بــالحب والرعاية لتتعود عليهم تدريجيا حتى يصبحوا عالمك الخاص كله وجــزءا لا يتجــزأ مــن حياتك. وفي العائلات غير المتوازنة التي تسودها الأنانية بدلا من الغيرية والإيثار تســود مشاعر الكراهية والحسد بين أفرادها، وفي هذه الحال تتحول المساكنة المشــتركة تحــت سقف واحد إلى عبء كريه لكل أفراد العائلة، ويتحول جو الاطمئنان والدفء العائلي إلــى جو من المشاحنات والصراخ المزعج للجميع، وغالبا ما تفقد العائلة توازنها بسبب انعــدام الاحترام بين الأبوين وإهمال الأم لواجباتها المنزلية والزوجية، إن فقدان الثقافة الأساســية بين الأبوين وعدم فهمهما لمعنى العائلة وممارسة التمييز اللامسؤول فــي المعاملــة بيــن الأولاد يولد نوعا من البغضاء بين الإخوة والأخوات، خاصة فيما يتعلق بالتمييز الجنســي بين الذكور والإناث. وبالتمييز السني بين الكبير والصغير حيث يكون هذا الأخير مســحوقا يخدم الجميع ولا يتلقى مقابل ذلك إلا الأوامر الجائرة والركلات ويحمل في داخله شــحنة كبيرة من الحقد والكراهية لكل الكبار. إن الحضارة بمحتواها الثقافي تزود الآباء بــالوعي الأساسي لمفهوم العائلة ومسؤولياتها الأولية تجاه أطفالها والمجتمع على حد ســواء، وفــي علم الاجتماع العائلي دلت الإحصاءات التي أجريت على عدد من نــزلاء السـجون مــن المنحرفين اجتماعيا بأنهم انبثقوا من عائلات متفككة أوغير متوازنة.

ويرتكز الحب العائلي على ثلاثة أنواع من مشاعر الود أولها الحــب' الــذي تفــرزه مشاعر الانتماء والجذور المشــتركة وتعــززه صلــة القرابــة والتشــابه المورفولوجــي الموروث، وثانيها الحب الذي تسببه الألفة المتبادلة والتعود على المساكنة ، فكل وجه مــن وجوه العائلة يصبح مألوفا للجميع وله حيز مكاني في أذهانــهم وحضــور متمــيز بكــل إيجابياته وسلبياته يسعدون لحضوره ويشتاقون له في غيابه، وهو يشبه ذلك الحــب الــذي ينمو بين عدد من الأفراد المسافرين في رحلة سياحية مشتركة بحيــث تصبــح الســلامة الفردية جزءا لا يتجزأ من السلامة الكلية للمجموع، أما الحب الثالث والأخير فهو الحــب الأمومي والأبوي للأولاد وهو الأنقى والأقوى والمجرد عن المصلحــة الشــخصية، إنــه الحب الدائم المتجدد الذي لا تضعفه الأيام ولا تطفئه الظروف، فالأب الــذي لا يتمنــى أن يكون هناك من هو أفضل منه يتنازل بكل سرورعن هذه الرغبة لصالح أولاده، والأم التــي

لا تمنح حبها للآخرين إلا بشكل مشروط تتخلى بكل ممنونية عن تلك الشروط لأولادها حتى ولو كانوا من أعتى المجرمين، إنه الحب الغريزي الذي لا يقتصرعلى الإنسان فقط بل يتعداه إلى بعض أنواع الحيوانات الثديية.

هذا الحب العائلي والمرتكز على تلك الأنواع الثلاثة من مشاعر الود هو الحب الذي يشد لحمة العائلة، ويقوي روابطها ويمنعها من التفكك وبالتالي فهو يقوي شبكة العلاقات الاجتماعية في المجتمع الكبير وذلك لسببين: أولهما أن من تعود على الحب الأسري في منزله وبيئته الأولى يمارس مشاعر التودد والتقارب الاجتماعي في المؤسسات الاجتماعية الأكبر والأوسع، وثانيهما هوأن العائلات ليست وحدات أوخلايا منفصلة تماما رغم خصوصيتها فهي ترتبط مع بعضها البعض بروابط المصاهرة والنسب، ولذلك فإن مشاعر الحب العائلي تنتقل إلى العائلات القريبة بالنسب والمصاهرة، مما يؤدي إلى تعزيز الروابط الاجتماعية العامة وتعزيز الحضارة الاجتماعية بشكل عام، إذ إن حضارة أي مجتمع إنساني تعتمد بالدرجة الأولى على متانة الترابط الأسري فيه.

- الصداقة :

تعرف الصداقة بأنها المشاعر الإيجابية المتبادلة بين صديقين أوأكثر من جنس واحد أومن الجنسين، وتتدرج من الزمالة المدرسية أوالمهنية حتى الصداقة العميقة التي تبنى الانسجام النفسي والفكري للصديقين بحيث ينجم عن ذلك التزام أدبي بالعطاء المتبادل المادي والمعنوي عند اللزوم، وإذا كانت الصداقة بين طرفين مختلفين جنسيا في مدرسة أوجامعة أومؤسسة مهنية فقد تتوج بعلاقة حب ناجحة وزواج سعيد لأن مشاعر الصداقة تنمو بهدوء لا يتعجله الزمن ولا تشوبه الرغبات الجنسية أوالإلحاح العاطفي فهي أكثر عقلانية من مشاعر الحب المتقدة.

تنتمي أغلب الصداقات المتينة إلى مرحلة الطفولة المدرسية لأنها عقدت وتشكلت في مرحلة البراءة المنزهة عن المصالح الشخصية حيث تعوض تلك المشاعر إحباطات الطفل بالانفصال عن جنته المنزلية وصدر أمه الدافئ، وقد تستمر تلك الصداقة لتدوم مدى العمر فيما لو استمر التواصل بين الصديقين خارج المراحل المدرسية، أما أولئك الأطفال الذين يتهيبون عقد صداقات مدرسية أولى، فغالبا ما تكون روابطهم الأسرية أقوى من أن تسمح لهم بعلاقات اجتماعية خارجية على حساب الحب الأمومي، ويحتمل أن تكون الأم من

النوع السلطوي الذي يمارس الحب بهدف التملك وليس بهدف المساعدة على بناء شخصية مستقلة للطفل، ولذلك فهي لا تشجع طفلها على عقد صداقات خارجية لا في المدرسة ولافي غيرها فالطفل متقوقع دائما منطو على ذاته مسحوق الشخصية يتراءى له شبح أمه باستمرار.

كنا ثلة من الأصدقاء تمتد صداقتنا في جذورها إلى المرحلة الدراسية المتوسطة وكبرنا معا، كنا نرى بعضنا أكثر مما كنا نرى أهلنا وتفتح وعينا على ثقافة مشتركة وبيئة متجانسة، فقد كنا ننتمي لنفس الشريحة الاجتماعية تقريبا، وتميزت شلتنا عن غيرها بامتدادها خارج أسوار المدرسة عبر هواية واحدة وهي الرحلات وكانت لا تمضي عطلة مدرسية أو فرصة سانحة إلا ونظمنا فيها رحلة ما حتى أسسنا جمعية للرحلات كنا نمون صندوقها المالي من مصروفنا الشخصي، ونرفده ببعض المال كلما عجز عن تغطية نفقات رحلة مقترحة فاشترينا خيمة خاصة بنا وأدوات مطبخ وغيرها من لوازم الرحلات وقد أتاحت لنا تلك التسهيلات زيارة معظم مناطق الوطن السياحية، وهكذا عمقت الذكريات المشتركة في تلك الرحلات روابط الصداقة المدرسية فيما بيننا وأثرتها كما درجنا على اللقاء ببعضنا مساء كل خميس إما في بيت أحدنا أوفي أحد المقاهي العامة، ورغم أن الحياة فرقتنا بحكم انتماءاتنا المهنية وتخصصاتنا الجامعية وفرزتنا في الزمان والمكان إلا أن سهرة الخميس كانت تستعصي على الإلغاء والتلاشي؛ كان منا المهندس والطبيب والمؤلف والمدرس والموظف ورجل الأعمال، ورغم كل ذلك فقد كانت تجمعنا سهرة الخميس بعفوية طفولية صادقة وبمجرد لقائنا كانت تزول الكلفة وتسقط البراقع والأقنعة ويذوب النشاء، وكان يقول أحدنا وهو في مركز وظيفي واجتماعي كبير (قاتلكم الله يا أولاد ال . . . أدير مؤسسة فيها حشد هائل من الموظفين الذين يرتعشون لمجرد سماعهم وقع خطواتي صباحا وأنا أهم بدخول مكتبي، ورغم ذلك فأنا أسمح لكم بالمزاح معي وشتمي أحيانا وأنا سعيد معكم وبدون أية حساسية أوغضب، هل لأني أجد طفولتي فيكم ؟ وأسترد ذكرياتي الهاربة من حاضري ؟) والحقيقة كان هذا ما يحس به كل واحد منا، هذه هي الصداقة المدرسية الأولى. ولكن لا تخلو بعض الصداقات من دوافع مصلحية أو نفعية خاصة، ولكنها سرعان ما تفتر أوتزول عند انتهاء الغاية منها.

تتدرج مشاعر الصداقة تحت قائمة العلاقات الإنسانية المتسمة بالحب أي العلاقات

الإيجابية، فحب الصديق يبنى على الإعجاب المتبادل بشخصية الآخر أولا، ثم الانسجام النفسي والتكافؤ الاجتماعي بين الصديقين، وأخيرا التعود على وجود الآخر بالائتلاف الذي يتم من خلاله التفاعل البناء، وذلك بتبادل الخبرة والآراء تجاه مواضيع الحياة المختلفة والنصح والمشورة والمساعدة وقت الضيق، وكثيرا ما أدت مثل تلك الصداقات إلى علاقات أعمق وأمتن بالمصاهرة والزواج بين العائلتين.

تعتبر الصداقة مثلها مثل أية علاقة اجتماعية أخرى مبنية على التفاهم والحب ظاهرة إيجابية في المجتمعات المتحضرة، وعاملا مساعدا في القضاء على خيبات الأمل الناجمة عن ممارسة الحياة وصراع البقاء وكإرضاءات بديلة لقمع الغرائز المحبطة والسعي لتحقيق السعادة، فالنبذ الاجتماعي للفرد بسبب سلوكيات غير مقبولة يجد له بديلا وتعويضا مناسبا في مشاعر الصداقة التي تروض الغرائز الفجة بالتصعيد حتى يصبح الإنسان أكثر دماثة وأسلس سلوكا تحت ضغط التهديد بأن يصبح وحيدا ومنبوذا وهي كآلية ناجحة في تخطي عقبات الحياة وإحباطاتها تشكل بالإضافة إلى غيرها من العلاقات الاجتماعية العلاج الناجح لبؤس الحياة وقمع الغرائز.

٧. الحضارة وانعكاساتها على العلاقات الاجتماعية الأسرية

لقد رأينا سابقا كيف انتقل الإنسان من العيش لوحده في المغاور والكهوف الجبلية أورؤوس الأشجار إلى الإقامة في تجمعات بشرية صغيرة تربط بينها غالبا روابط قرابة عائلية، وتتبادل المنافع والمصالح تحت إدارة كبير العائلة سنا وأكثرهم نفوذا. ولم تكن تلك النقلة الاجتماعية رغم مكاسبها المعنوية من الحماية والأمن، التآزر بدون ثمن، فقد كان على الإنسان أن يتنازل عن كثير من حريته المطلقة وامتيازاته الفردية لصالح المجموعة المتعايشة، وعندما تزايد عدد أفراد هذه التجمعات المنعزلة ليتطور إلى مفهوم القبلية كان لابد من إيجاد صيغ للتعايش غالبا ما كانت غير مكتوبة، ولكنها كانت في حكم العادات والتقاليد الموروثة التي ينفذها زعيم القبيلة ويرضى عنها الجميع. تلك الصيغ التي قامت مقام القوانين والتشريعات المنظمة للمجتمعات المعاصرة كانت تحد من تجاوزات الأقوياء على الضعفاء، وتنظم سلوك المجتمع على حساب الحريات الفردية والنزوات الطائشة محققة بذلك نوعا من التربية الاجتماعية للروح البشرية البدائية والنوازع العدوانية.

علاقة الرجل بالمرأة:

كانت العلاقة الفطرية بين الرجل والمرأة مبنية على أساس الحاجة الجنسية فقط، ولم تكن تلك العلاقة تتطلب أية تعقيدات أوطقوس حضارية، وكانت تشبع تلك الحاجات الفيزيولوجية في أي وقت تلتقي فيه الأنثى بالرجل ثم ينصرف كل منهما إلى حاله، إلا أن عجز المرأة عن القيام بواجبات الأطفال وإطعامهم وحاجتها الماسة لحماية الرجل وقوة عضلاته في الصيد والدفاع عن الصغار ضد الكواسر والإنسان الآخر فرض على الطرفين التعايش المشترك في صيغ مشابهة لصيغ الزواج المعروف، وفي ذلك الوقت بالذات بدأت ولادة أول أسرة بشرية تعترف بالحاجات المتبادلة والمصالح المشتركة لمؤسسة الزواج، حتى وإن بدأت في كهوف جبلية وعرة وفي عزلة تامة عن التجمعات البشرية الأخرى.

فماذا أضافت الحضارة لمثل هذه العلاقة المزدوجة التي كانت اللبنة الأولى للمجتمعات..؟

أضافت بعدا إنسانيا جديدا لم يكن ليجد له مكانا في حاجات جسدية متبادلة، ألا وهو الحب، أوالعاطفة، فالتعايش المشترك والمستمر تحت سقف واحد ولغاية مشتركة وهي رعاية الأطفال أوجد نوعا من الصلات العاطفية المجردة عن المنفعة، إنه الحب والحنان والألفة والمودة والاعتراف الجميل لكل من الطرفين تجاه الآخر، فالرجل يستحسن جدا أن تقوم أنثاه بإرضاع أطفاله وحمايتهم من الجوع والبرد وأي خطر خارجي، كما يعترف بالفضل عندما تؤمن له زوجته النوم الهانئ وتضمد له جراحه عندما يعود من الصيد وفي جسده مخلب قط أو طعنة قرن من ثور أوأيل، وبالمقابل تهش له زوجته باسمة عند قدومه حاملا صيده على كتفه ليشبع جوعها ويملأ بطون أطفالها، ولكن كيف تتطورت هذه العلاقة فيما بعد عندما زادت درجة التحضر؟ انتقلت العلاقة من غريزة التملك الزوجي إلى طبيعة المشاركة بالإرادة الحرة، فلم يعد في المجتمعات المتحضرة سيدا مطلقا يملك الزوجة ويملك حريتها كما يملك أي شيء آخر، ولم تعد الزوجة بعضا من مقتنياته الخاصة التي لا يمكنها الإفلات من سيطرته إلا بإرادته الذاتية، بل تحولت إلى نوع من المشاركة الإرادية بالحياة المشتركة تلك الرغبة الحرة بالاستمرار في التعايش يحكمها عدد من الشروط الملزمة للطرفين وليس لطرف دون اخر.

وقد تدخلت فيما بعد الشرائع السماوية والقوانيين الوضعية لتفصم هذه العلاقة إذا

وجدت فيها نوعا من الغبن لطرف على الطرف الآخر، ولكن هل اختفت غريزة التملك الفطرية تماما؟ لا؛ لأن الغرائز لا تختفي ولا تموت فهي موجودة في المورثات الجنينية للكائن الحي وليست وليدة التعلم المكتسب، ولكن الحضارة صعدتها إلى نوع من الغيرة على الآخر، وهناك فرق شاسع بين الغيرة الناجمة عن الحب وبين الغيرة الناجمة عن غريزة التملك الفردي الذي يمارس سلطة جائرة في أسر حرية الآخر وحبسه ضمن صندوق مقفل، وهذا النوع من الغيرة يمكن أن نسميه بالغيرة المرضية، وهو يشبه غيرة الطفل من طفل آخر يعبث بدميته بغض النظر إن كان يحب تلك الدمية أم لا، ويكفي أن يؤمن بأنها تخصه لوحده فقط حتى وإن كانت دمية مهملة أوحتى مكسورة، وعندما تحب زوجة ما رجلا آخر غير زوجها يصاب الزوج المتخلف بالذعر وكأن أحدا ما قد اغتصب أحد ممتلكاته الشخصية، بينما يشعر الزوج الحضاري بالإحباط لأن زوجته أسقطت عنه حبها وانتزعته من قلبها ولكن باعترافه بإنسانيتها ومشاعرها الخاصة ورفضه لأن يعيش مع زوجة لوعته يطلقها ويتقبل الأمر بروح رياضية ليبحث له عن أخرى يجد لنفسه مكانا في وجدانها، هذا ما أضافته الحضارة للعلاقة بين الرجل والمرأة، أضافت بعدا إنسانيا يرغم الطرفين على الاعتراف بحق الآخر بحرية الاختيار ويحترم مشاعره الخاصة، وهذا يسحبنا إلى مشاكل الطلاق المتأزمة في معظم المجتمعات إن لم يكن في جميعها، ورغم أن قوانين الطلاق تختلف من بلد إلى آخر ومن ديانة إلى أخرى، إلا أن القاسم المشترك الأعظم بينهما هي أن أحد الطرفين أوكلاهما لم يعد يرغب بالاستمرار في تلك الشراكة التي تلحق به ضيما لايستطيع تحمله، وتمنع بعض المذاهب المسيحية الطلاق نهائيا لأنه يدمر المجتمع ويفكك الروابط الأسرية بينما، ترى بعض المذاهب الأخرى والشريعة الإسلامية أن هذا الأمر قد يكون علاجا أخيرا لنمو غير متوازن للأسرة الإنسانية وأنه قد يكون أهون الشرور من إعداد الأطفال في بيئة غير صحية نفسيا وقد قال أحد الحكماء: كل كرها والبس كرها ولكن لاتعاشر كرها فالمعاشرة القسرية قد تسبب أضرارا أبعد أثرا من انفصام روابط أسرية غير سوية. ولكن كيف يمكن أن تنبت فكرة الانفصال الزوجي في مؤسسة عائلية بنيت على أساس الاختيار الحر والإرادي لكلا الطرفين؟ هل تتغير مشاعر الإنسان من وقت لآخر وهل يفسد ما كان صحيحا لفترة ما؟ وهل يتلاشى الحب مع مرور الأيام؟ وهنا لابد أن نمحص في آليات

الاختيار الحر لشراكة الحياة تحت جميع الظروف المحتملة لنكتشف فيما بعد بأن ما يسمى بالاختيار الحر في لحظة ما لم يكن حرا بالمعنى المطلق للكلمة وأنه كان محكوما بعدد من الظروف والموشورات النفسية التي تتغير مع تغير الظروف ومع المعاشرة الفعلية للزوجين.

في المجتمعات الفطرية الأولى كان الرجل يختار أنثاه بناء على معايير جمالية معينة أي معايير شكلية فقط لتفي بحاجة الاستمتاع بالجنسي والجمالي، بينما كانت الأنثى تختار شريكها بناء على معيار القوة ونمو العضلات ليكون قادرا على حماية أسرته من شرور الأعداء أولا وقادرا على إحضار صيد وفير للأطفال ثانيا، وكثيرا ما كان الرجل يدخل في صراعات مميتة ضد رجال آخرين أو ضد حيوانات مفترسة ليفوز بقلب الأنثى التي يرغب بها، وفي هذا الامتحان القاسي أوامتحان الرجولة قد يفقد حياته أوقد يهيم على وجهه في البراري تاركا من يحب لرجال أكثر منه قوة وأمضى عزيمة، وهذا يعزز عملية الاصطفاء الطبيعي التي تساعد في تحسين النوع وإيجاد أطفال أقوياء لا يحملون أي صفات وراثية ضعيفة، ونسحب هذا على بعض أجناس الحيوانات الاجتماعية كقطعان الأيل والقرود حيث يتميز موسم التزاوج بصراعات عنيفة بين الذكور يطرد منها الذكور الضعفاء ويفوز القوي بمعظم الإناث، وقد نجد امتدادا لهذه الفطرة الطبيعية الموروثة في بعض المجتمعات الحديثة على شكل طقوس احتفالية في الزواج تنتمي لتلك الفترة القديمة من التاريخ البشري، ففي بعض قبائل الشركس يعتبر خطف الزوجة على الحصان من بين أخوتها وأولاد عمومتها طقسا هاما في احتفالات الزواج حتى ولو كان شكلا بحتا، إلاأنه يدل دلالة قاطعة على جذور مغروسة في تاريخ الاختيار الزوجي في المجتمعات الأولى كذلك قد يلجأ بعض الشباب المتزوجون حديثا إلى افتعال معارك وهمية مع شباب آخرين وفي حضور الزوجة العروس ليقنعها زوجها بأنها ما أخطأت بالاختيار، وأنه قادر على حمايتها من عبث العابثين، كذلك فإن مقولة "قطع رأس القط من ليلة العرس" تعود باعتقادي إلى ذلك المفهوم وإلى تلك الجذور البدائية.

أما اليوم ونحن على أبواب القرن الواحد والعشرين فقد استبدلت تلك المعايير الانتقائية بمعايير أخرى أكثر شمولا وتلبية لحاجات العصر، فشكل الزوجة الخارجي لم يعد المعيار الأمثل لتلبية الحاجات الجمالية، فهناك الذكاء والشخصية وسرعة البديهة والروح المرحة

وطلاوة الحديث والحضور القوي المؤثر، كل تلك المواصفات يطمح إليها أي رجل متحضر يحاول اختيار شريكة لحياته، والزوجة بدورها لم تعد بحاجة إلى عضلات مفتولة وكتفين عريضين رغم أن معظمهن يفضلن ذلك بدافع من الغرائز الموروثة القديمة، لكن الأهم من ذلك اليوم هو الذكاء المتقد والحركة الخفيفة والشهادات العلمية والمال فلم يعد الرجل بحاجة لقوة عضلاته لتلبية احتياجات الأسرة، بل إلى ذكائه وماله وهمته العالية ومركزه في المجتمع وعلاقاته الاجتماعية، كل تلك المواصفات قد تهيئ للرجل حياة خالية من الفقر والعوز تجعل منه أباً وزوجاً مثالياً صالحاً، وهذا يعني أن الحضارة قد أضافت إلى معايير الاختيار الزوجي معايير جديدة تبنى على أساسها الأسرة، ولكن مع قابلية الإنسان للخطأ وظروفه النفسية التي قد تعزز معياراً معيناً على باقي المعايير تظهر في مستقبل العلاقة الزوجية مشاكل ناجمة عن تلك الأخطاء قد تؤدي إلى فصم عرى الزواج وتشتيت أفراد العائلة.

علاقة الأبوين بالأولاد:

لم تستطع الحضارة على مدى عشرة آلاف سنة أن تمحو نهائيا الغرائز الفطرية بل جملتها وصعدتها نحو سلوكات أكثر رقيا وأقل فجاجة، فالأب وهو السلطة المطلقة في الأسرة يعتبر أولاده امتدادا طبيعيا له ولحياته من بعده، وطالما أنه يتمتع بجميع الامتيازات الأسرية من الطاعة العمياء فليس لديه أي تراكمات عقدية اتجاه أبنائه، ولكن العكس صحيح فالأولاد الذين ينشأون في ظل سلطة أبوية قامعة يحملون في راقات اللاشعور تراكمات عقدية ضد الأب الذي يستأثر بكل شيء ويمنح الامتيازات حسب مزاجه الخاص، فالأب بالنسبة للأولاد الذكور خاصة هو النموذج والمثال والقدوة يحاولون تقليده في جميع المجالات ويعلمون منه خبراته الخاصة، ولكن عقدة أوديب تتدخل في كثير من الحالات لتجعل هذه العلاقة علاقة غير مستقرة ومتوترة في كثير من الحالات فالابن الذي يعتبر والده منافسا قويا على قلب أمه يحس بكثير من الامتعاض من سلوك أبيه خاصة فيما يتعلق بأمه، وهو يتمنى لاشعوريا في أن يزاح والده عن هذا المنصب الاعتباري لأنه يسد عليه الطريق في إكمال علاقة الحب الأسطوري بينه وبين أمه أولا، وبينه وبين نمو شخصيته نحو الحياة ثانيا، وطالما بقيت تلك العقدة مستحكمة في نفوس الأولاد مع استمرار التثبيت الطفولي تجاه الأم فإن شخصية الطفل أو رجل المستقبل تبقى

في دائرة الاجترار النفسي وتعجز عن ممارسة الحياة بشكل مستقل خاصة إذا كانت شخصية الأب قوية قامعة وغير قابلة للتجاوز وغير قابلة للمقارنة الندية، ولدينا أمثلة متعددة على هذه الظاهرة في المجتمعات والقبائل البدائية التي تمارس طقوس امتحانات الرجولة فتترك الولد اليافع مثلاً في الغابات وحيداً مع سكين يتسلح بها وهراوة يستعين بها على الصيد، وعليه أن يطعم نفسه ويدافع عنها ويعود إلى القبيلة إما بصحبة جلد ثور أونمر، وعندئذٍ تقام له الاحتفالات وتتدافع نحوه فتيات القبيلة ويعترف به والده كرجل ناضج، هذا التجاوز الرمزي لشخصية الأب يفتح الطريق أمام شخصية الابن للنمو والثقة بالنفس، ولكن في كثير من الأحيان تكون شخصية الأب لامعة براقة عسيرة التجاوز، وتكون شخصية الابن ضعيفة مهزومة قانعة بالظل تحت وصاية أبويه حيث يتضخم اللاشعور وتنمو الرغبات المكبوتة بقتل الأب وإزاحته فعليا أورمزيا حتى يتسنى لشخصية الابن النفوذ من خلال هذا السد المنيع إلى رحاب الحياة، ومن الضروري أن يدرك الآباء آليات هذه العقدة عند الأبناء ليسمحوا لهم بالنمو النفسي، وهناك مقولات تعبر عن هذا الاتجاه كأن تسمع أحدهم يقول لك: "إن كبر ولدك خاويه" و"إن نبتت لحية ولدك فاحلق لحيتك" وغير ذلك من الأمثلة الشعبية.

ولا بأس في أن يستعين الوالد بأولاده البالغين فيوكل إليهم بعض المهام الصعبة ويستشيرهم في أموره الهامة فذلك يدعم شخصيتهم ويعزز نموها، ولكن بعض الآباء يعتبرون أن مثل هذا التصرف قد يشجع الأولاد على التطاول على صلاحياته المطلقة فيحاولون اتهام الأولاد أنهم مهما فعلوا فلن يكبروا بنظره، وسيظلون أطفالا بحاجة لرعايته، وهذا خطأ فادح يرتكبه الآباء ويحصدون نتائجه المريرة من اتكالية الأبناء عليهم وعدم قدرتهم على شق طرقهم في الحياة.

تعتبر شخصية الأب موضوعا هاما وحيويا بالنسبة لبناته الإناث، فمنه يتمثلون نوعية الرجولة التي سوف يسقطون عليها مواقفهم المستقبلية تجاه جميع الذكور وسوف تتحكم شخصية الأب بمعايير خياراتهم المستقبلية في زوج المستقبل الذي يتمنين أن يكون مشابها لآبائهم، فالفتاة تميل نحو والدها أكثر من أمها في الحالات الطبيعية وتعتبر الحالات الشاذة المرضية استثناء لايجوز تعميمه، فإذا توحدت البنت بأمها العصابية التي تكره بنات جنسها والتي تحمل ضغينة ضد العنجهية الذكرية فإن الأمر سيؤول إلى مأساة، فإما أن

تسترجل الفتاة وتحاول تقليد الذكور، أوسوف تنكفئ على ذاتها وترفض الزواج من أي إنسان مما يسبب لها حصرا مرضيا واجترارا نفسيا مؤلما.

أما شعور الأب تجاه بناته فهو مغاير تماما فرغم الحب والعطف الذي يوليه لهن فإنه لايستسيغ فكرة زواجهن على اعتبار أنهن جزء منه وأنهن من مقتنياته الخاصة من حيث أنهن يقمن على خدمته وتلبية طلباته المتكررة، هذا بالإضافة إلى الرغبات المكبوتة في راقات اللاشعور والتي كشف عنها سيجموند فرويد في غشيان المحارم، ولا يمكن تفسير عملية وأد البنات في قبائل الجاهلية خوفا من شططهن إلا في ضوء هذه النظرية التي استهجنها كثير من علماء الاجتماع والدين، إلا أن ممانعة بعض الآباء في زواج بناتهن ووضع الكثير من العقبات في سبيل تزويجهن تحت ذرائع شتى يمكن أن تعزى إلى تلك الفكرة، ولابد أن ينظر الأب إلى صهره أوخطيب ابنته نظرة تنافسية على أساس أن هذا الأخير سوف ينتزع منه بعض مقتنياته الخاصة ويولي بها الأدبار تحت مظلة الشرائع الاجتماعية المباحة، ولذلك فكثيرا ما تكون العلاقة بين الأب والصهر متوترة جدا إلا في حالات نادرة عندما يتخذ الصهر من عمه موقف الابن البار أوموقفا أقل ندية وتحديا، وهذا الموقف مشابه لثالوث الحماة والكنة والابن حيث تتنافس المرأتان على قلب رجل واحد هو الابن الزوج، وفي الحالة الأولى يكون الثالوث مؤلفا من العم الأب والصهر والبنت الزوجة، إذ يتنافس الرجلان على قلب الفتاة المتأرجحة بين حب أبيها وحب زوجها ولا يمكن أن تكون هذه العلاقة الثلاثية خالية من المشاكل خاصة إذا فقد التوازن بين الرجلين كأن يكون أحدهما غنيا والآخر فقيرا أو أن يكون أحدهما ذا مركز اجتماعي أوسياسي متميز والآخر رجلا عاديا بسيطا.

لم تستطع الحضارة أن تنهي بلمسة ساحر جميع هذه التوترات في العلاقات الاجتماعية التي تستمر جذورها من العقد النفسية والفطرة البشرية البدائية، ولكنها هذبتها وشذبتها وانتزعت منها فجاجتها فأضفت عليها مظهر اللطف والسلاسة، وهنا تقول الانتقادات اللاذعة الموجهة من الحماة للكنة إلى نصائح أمومية حانية وتتحول سخرية الصهر من عمه أو انتقاد العم لصهره إلى مجموعة من النكات البريئة التي تشحن بسموم الغمز واللمز خاصة عندما تتوحد الحماة بابنتها وتضفي على الصهر النسيب صفات غير موجودة فيه كنوع من التدليل الزائد والذي يغيظ بشكل أو بآخر حفيظة الأب.

علاقة الأولاد ببعضهم:

تكون العلاقة بين الأولاد الذكور عادية ومنسجمة إذا لم يقع الأبوين في فخ تفضيل أحد الذكور على باقي أخوته في المعاملة، هذا الفخ الشائع كثيرا ما يقع فيه الأبوان أحدهما أو كلاهما عن غير قصد لأنه لا توجد مشاعر متساوية بين الأبوين من جهة وأولادهما من جهة أخرى، فالابن الذي يشبه أباه يكون مفضلا عند أبيه على بقية أخوته والابن الذي يشبه أمه تكون له حظوة خاصة عند أمه، كذلك يتمتع الابن البكر بمكانة خاصة عند الأبوين خاصة إذا كان ذكيا فاعلا يشق طريقه في الحياة بمنأى عن مساعدة والديه وكثيرا ما يلقبه العامة باسم ولي العهد، أما الابن الأصغر فله مكانة خاصة عند أبويه على اعتبار أنه آخر العنقود ويحظى بمزيد من العناية والرعاية، كل هذه الأمور تثير حسد وضغينة باقي الأخوة وقد سئل الرسول الأعظم محمد صلوات الله عليه ذات يوم من أحب أولادك إليك يارسول الله ؟ فقال: الصغير حتى يكبر والمريض حتى يشفى والمسافر حتى يعود، وهذا ما يدل على أن العدالة في معاملة الأولاد تعتبر متعذرة إن لم تكن ضربا من المستحيل، وليس أدل على هذه الظاهرة من حادثة قتل قابيل لأخيه هابيل ومن قصة سيدنا يوسف عليه السلام وأخوته الذين ألقوا به في الجب نتيجة لمحبة أبيه الزائدة له، وقصة كارمازوف أو الأخوة الأعداء، وعلى كل حال فقد تلجم أساليب التربية الحكيمة النوازع الفردية العدوانية بين أخوة ترعرعوا في بيت واحد وتحت مظلة واحدة وتجعل من علاقات هؤلاء الأخوة بعضهم ببعض علاقات مميزة وخالية من التناقضات، ولكن تبقى في راقات اللاشعور عند جميع الأخوة الذكور رغبة دفينة في إزاحة الأب الإله الأب الشمس الدافئة أحيانا والمحرقة أحيانا أخرى حتى يتمكنوا من شق طريق نموهم النفسي وبناء شخصياتهم المستقلة.

أما علاقة الأخوات بأخوتهم الذكور فلا تخلو أيضا من بعض الشواذ المرضية خاصة عندما تعتبر الأخت شقيقها نموذجا لايقاوم في مجالس الرجال، وعندما يتم تثبيت التعلق المرضي بالأخ الذكر، وهو تعلق قد يأخذ جذوره من الرغبة في غشيان المحارم إذ لاتجد الفتاة أي ند قابل للمقاومة مع شقيقها خاصة إذا كان وسيما وشجاعا شهما يتحلى بالكثير من صفات الرجولة، عندها قد ترفض الفتاة أي خطيب يتقدم للزواج منها على أساس أنه قد لايصل لمرتبة أخيها في الرجولة، وبذلك تبقى عانسا مشغوفة بحب أخيها، وفي هذا

مثال واضح نستنير به على هذه الظاهرة وهو حب الخنساء لأخيها صخر والذي قتل في إحدى المعارك فرثته أخته بأجمل قصائد الشعر الجاهلي وأروعها وصفا وشاعرية، ولاأظن أن الخنساء إلا أختا أصيبت بالتعلق المرضي بعشق الأخ وهذا التعلق المرضي بحب الأخ شبيه بالتعلق المرضي بحب الأب الذي ينجم عن توحد الفتاة بأمها وتثبيت مشاعرها تجاه أبيها.

وعندما كان الإنسان فطريا بدائيا لم تكن هناك أية مشكلة في مثل هذه العقد النفسية، لأنه لم تكن هناك شرائع سماوية ولا وضعية تحرم اتصال الأخت بأخيها والبنت بأبيها والأم بابنها، ولم تكن هناك محارم أصلا لتسبب تلك العقد، ولكن الحضارة التي نظمت المجتمع وضعت تلك القوانين وميزت بين المباح والممنوع، ولذلك فقد كان لابد من آلية تتيح للإنسان التغلب على حصره الذاتي في تجنب الممنوعات، ولم يكن هناك إلا راقات اللاشعور التي قامت بدور السجن والسجان لجميع الرغبات المحرمة مما أدى إلى نشوء العقد النفسية.

ورغم أن الحضارة تعتبر مسؤولة عن تلك العقد ومعاناة الإنسان إلا أنها هي أيضا التي ساهمت في تخفيف آلامها عن طريق التصعيد والتسامي الخلاق في سبيل مجتمع خال من الغرائز الفطرية والتصرفات الهمجية.

٨ ـ فلسفة الحرب

تعتبر الحروب بصورة عامة من جملة المنغصات الرئيسية للحياة البشرية وهي لاترتبط بالنواحي السلبية للحضارة بشكل مباشر، بل إن مفهوم الحضارة على العكس من ذلك تماما يتضمن القضاء على الغرائز الفجة والدوافع العدوانية ليجنب الإنسانية أهوال الحروب ونتائجها الضارة التي تنسحب على الخاسرين والرابحين على حد سواء. ولو نظرنا للموضوع من زاوية أخرى لوجدنا أن الحضارة كانت قد حرضت تاريخيا على بعض الحروب الدامية من حيث أنها خلقت فروقا حضارية بين شعوب الأرض شجعت المتحضرين فيها على استعباد المتخلفين تارة بدعوى الوصاية عليهم وتارة بدعوى هدايتهم إلى دين أوعقيدة وتارة أخرى بدعوى تعليمهم وتثقيفهم ونقل التقنية الحديثة إليهم، وقد وجدت الحروب منذ أن وجد الإنسان على سطح الأرض باعتبارها تعبيرا صادقا عن

صراع البقاء والغربال الحقيقي لضمان وجود واستمرار السلالات الوراثية الأقوى، فقانون البقاء للأفضل لا تحققها إلا الحروب لكي تلغي من الحياة السلالات الضعيفة والعاجزة عن التكيف، ومنذ أن كان عدد سكان العالم لا يتجاوز بضع مئات كانت هناك حروب صغيرة للاستيلاء على الطعام ومناطق الصيد ومصادر المياه والمغاور القابلة للسكن، وكانت الجماعات المهزومة الضعيفة ترحل لمناطق جديدة ذات موارد اقتصادية معقولة يمكن الدفاع عنها، ويعني الدفاع عنها بكل بساطة التجمع العددي الأكبر والأخذ بأسباب القوة، ولذلك فقد كانت الحرب تقريبا هي اللغة اليومية لصراع البقاء بين المعتدي والمعتدى عليه مهاجما كان أم مدافعا وقد اختزنت كل هذه التجارب الأليمة في الذاكرة البشرية بحيث أصبح الأمن هو الهاجس اليومي لبني البشر على اختلاف أجناسهم وثقافاتهم؛ معك شيء ثمين يرغب فيه الآخرون إذن يجب أن تكون قويا كي تحافظ عليه، أو إذا لم يكن لديك شيء وأنت بحاجة لكل شيء يجب أيضا أن تكون قويا كي تحصل عليه إما بالاغتصاب المباشر أم من تقديم خدماتك القتالية للآخرين الذين يحتاجونها، ومع تزايد عدد سكان العالم وتقلص المساحات الحرة من الأرض المشاع لم يعد هناك مكان لهجرة الضعفاء دون حروب مهلكة، وهكذا عزفت البشرية الأولى سيمفونية الدم ولا تزال تعزفها حتى الآن ولكن مع اختلاف كبير في معايير القوة. والسؤال الذي يجب أن يطرح الآن: هل الحرب ضرورة من ضرورات الحياة لتصفية الشعوب غير القادرة على الدفاع عن أنفسها؟ ولضمان استمرار الأقوى حسب قانون البقاء للأفضل؟ إن هذه المقولة الداروينية والتي استغلها النازيون لتمرير وتبرير نظريتهم العرقية لا تنطبق إلا على الكائنات الحية الغير عاقلة، لأن تلك الكائنات لا يمكن أن تقوم بحروب جماعية منظمة ضد الأنواع الأخرى، ولا تقتل إلا لحاجاتها البيولوجية، أما الإنسان العاقل فبممارسته حروبا جماعية منظمة فقد يقتل عشوائيا أفرادا يستحقون الحياة، ولكن ذنبهم هو أنهم كانوا في الطرف الخاسر من الحرب، كما أن القتل الإنساني لاتبرره الحاجة البيولوجية للطعام اليومي كما هي الحالة في الحيوان. إن تميز الإنسان بالعقل يجعل من حروبه بطشا عقلانيا وإبادة جائرة، بينما يبقى القتل الحيواني قتلا غريزيا مجبرا للمصلحة الفردية فقط . وهنا يأتي دور الحضارة في ترويض الإنسان البدائي الغريزي وجعله يحترم الحياة سواء في نفسه أم في الآخرين، وتعليمه بأن هناك دائما مكان للجميع على سطح الأرض، وأنه بعقله

وعلومه الحضارية يستطيع دائما إيجاد موارد جديدة للأرض تكفي للجميع، هذا هو دور الحضارة من الناحية المبدئية، ولكن كما سبق وذكرنا في بداية هذا الفصل فإن الحضارة كانت السبب الغير مباشر لاشتعال حروب عالمية مدمرة كان أحد مبرراتها مثلا إيجاد أسواق اقتصادية للمنتجات الصناعية للدول المتحضرة في الدول الزراعية التي تخلفت عن الانقلاب الصناعي، إن صراع تلك الدول على احتكار الأسواق العالمية كان السبب الرئيسي في اندلاع الحربين العالميتين الأولى والثانية على السواء، فهل كانت تلك ازدواجية غير متوقعة بين مفهوم الحضارة المادية والحضارة الفكرية؟ لا بالطبع فهي ازدواجية متوقعة ومتناقضة وقد ظهرت واضحة ومربكة أحيانا للمستعمرين عندما كانوا يواجهون بالتناقض بين ما أفرزته الثورة الفرنسية من مبادئ المساواة والحرية والعدل وحقوق الإنسان، وبين ما يفعله المستعمرون في الشعوب الخاضعة لسيطرتهم، فحضارتهم المادية تملي عليهم إيجاد من يشتري تلك المنتجات الحضارية في بلاد لا تصنعها ويجب أن تستمر في تخلفها حتى تبقى بحاجة إلى تلك المنتجات وحتى تستمر في ذلك يجب أن تمارس عليها رقابة مباشرة ولصيقة تستوجب خضوعها لنوع من الهيمنة السياسية المدعومة بالقوة العسكرية وهذا هو الاستعمار، بينما تملي عليها حضارتها الفكرية ما أفرزته الثورة الفرنسية من مبادئ مثالية غير قابلة للتطبيق إلا في البلاد الصناعية، ولذلك كان الأوربيون يعيشون في تناقض محير أثناء الحقبة الاستعمارية ولازالوا يعيشون ويكيلون بمكيالين أحدهما يخصهم وحلفاءهم والثاني ينطبق فقط على الدول والشعوب المستضعفة والمتخلفة.

إن آلية صراع البقاء التي غالبا ما تؤدي إلى حرب بين طرفين أوأكثر تفترض مكسبا ماديا أومعنويا يحاول كل من الطرفين المتصارعين حيازته دون الطرف الآخر، وتنتهي الحرب فعلا إذا استطاع أحدهما تصفية خصمه نهائيا أوحيازة الغنيمة المقصودة أواقتسامها بينهما بحلول وسط إذا ما أنهكتهما الحرب وعجزا عن حسمها كليا لصالح أحدهما.

ويجرنا الحديث عن صراع البقاء والبقاء للأقوى إلى البحث في معايير القوة من جديد منذ بدء الخليقة وحتى اليوم، ففي البدايات الأولى لظهور الإنسان كان معيار القوة هو ضخامة الجسم والعضلات وبعض الأسلحة البدائية كالعصي والحجارة مع بعض الذكاء الفطري، وقد تطورت هذه المعايير مع مرور الوقت واستخدام العقل البشري بشكل أفضل

لاختراع وسائل قتالية أكثر كفاءة وتطورا بحيث توفر على المقاتل الجهد وتوفر له مزيدا من الحماية والصمود، حتى وصلنا اليوم إلى أحدث الأسلحة فتكا وتدميرا بحيث أصبح الإنسان خائفا من إشعال أي فتيل لحرب لن يكون فيها منتصر أومهزوم دون خسارة ساحقة للجميع.

إذن فمعايير القوة اليوم تختلف كثيرا عن المعايير التاريخية فالعلم والمال هما المعياران الرئيسيان لأية قوة عسكرية معاصرة وبدون هذين المعيارين لايمكن لأي شعب من الشعوب أوأمة من الأمم أن تضمن استمرار وجودها في غابة الأقوياء دون أن تكون خاضعة لدولة أقوى أو مسلوبة الإرادة والقرار. إن استخدام العقل البشري في استنباط مفردات الحضارة الفكرية والمادية في سبيل المضي نحو حياة أفضل كان موازيا فعلا لاستخدامه في اختراع وسائل الحرب والأسلحة المتطورة لحماية تلك الحياة والدفاع عن تلك الحضارة، ولكن كيف يضمن الإنسان استخدام تلك الأسلحة فقط في الدفاع عن الذات وهو حق مشروع للجميع؟ وليس في العدوان على الغير وسلب ممتلكاته؟ ورغم أن معظم أسباب الحروب كانت ولا تزال اقتصادية بحتة، إلا أن الدوافع العدوانية في الإنسان تندرج في قائمة الغرائز الفطرية القوية التي تستيقظ بين الحين والحين لتفجر بعض الحروب الطاحنة. وغالبا ما تأخذ الأهداف المعلنة للحروب تسميات نبيلة كالحروب الدينية أو الدفاع المشروع عن طرق التجارة المهددة من قطاع الطرق أوقراصنة البحر، ولكن جميع تلك التسميات تغطي أهدافا اقتصادية غير معلنة.

في فلسفة الحرب لايوجد هناك معيار أخلاقي أونوازع إنسانية خيرة طالما أن تلك الفلسفة مبنية أصلا على مبدأ صراع البقاء، وهنا نجد أن التعايش السلمي أوالتجاور الإنساني لاوجود له إطلاقا إلا إذا كان مبنيا على تبادل المصالح، أي أن وجود الآخر يحقق مصلحة ما لجيرانه وإلا فإنه يتعرض لخطر الإزالة الفورية، فالصراع في هيئته الحقيقية ما هو إلا صراع وجود وليس صراع حدود صراع من أجل أفواه جائعة موجودة أصلا أوسوف توجد في المستقبل، صراع مفاده أكون أولا أكون، أكون لو حذفت الآخر ولا أكون لو تركت له الفرصة ليحذفني. إذن فكيف نفسر اليوم التعايش السلمي القائم حاليا بين دول العالم؟ إذا أخضعنا كل ما نراه حاليا من وئام وانسجام بين هذه الدول لمقولة صراع البقاء؟

إن التوازن السلمي القائم حاليا يفسر بأحد سببين: إما أن تكـــون الشـــعوب الضعيفـــة مصدر فائدة اقتصادية أواستراتيجية للدول الأقوى التي تمنحها بدورها الحمايـــة المطلوبـــة في غابة الأقوياء أوأن يكون ابتلاعها صعبا ومكلفا، فلا مجلس الأمـــن بصيغتـــه الحاليـــة ولاالروادع الأخلاقية أوالحضارية يمكن أن تحفظ الدول الصغيرة من الابتلاع اللامشـــروع لو لم تكن تلك الدول مصدر فوائد اقتصادية أومنضوية تحت حماية دول كـــبرى. وليـــس هناك دول في العالم لا تتمنى التوسع على حساب جيرانها فيما لو ضمنت قلـــة الخســـائر وعدم تدخل دول أخرى لصالح الدولة المستهدفة، ولكن التوازنات السياســـية والأحـــلاف العسكرية تحد من أطماع بعض الدول التوسعية وتجعل من أية مغـــامرة توســـعية غـــير محسوبة لعبة انتحارية مهلكة.

كانت الحرب العالمية الأولى والثانية المحصلة المنطقية للثورة الصناعية والفكرية فـــي أوروبا القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لأن تلك الثورة العلمية والصناعيـــة كـــانت قـــد أفرزت إنتاجا صناعيا بوفرة هائلة أدت إلى كساد اقتصادي مرعـــب أدى إلـــى إفلاســـات مدمرة، وكان لابد من أسواق تجارية ظامئة تستوعب مثل هذا الإنتاج المتسارع، ولم يكـــن هناك في السوق العالمية غير الدول الزراعية التي لم تقرب التصنيع بعد وهـــي الأســـواق المرشحة لتنقذ الدول الصناعية من ورطتها، ولكن تلك الأسواق كانت هدفا ومطمحا لكـــل الدول الصناعية، ومن هنا بدأ الصراع على العالم لتصريف منتجاته واستثمار المواد الخـــام التي تطفح بها أراضي دول العالم الثالث، إذن فالحروب العالمية لم تكن بهدف نشر أفكـــار نازية أوعنصرية ولامن أجل الديمقراطية المزعومة أوحقوق الإنسان، بل كـــانت تطـــاحن النمور على الضحايا وصراع الأقوياء على الضعفاء، وكانت محصلـــة هـــاتين الحربيـــن العالميتين تدمير شبه كامل لمراكز الإنتاج الصناعي في كل مساحة الأرض وخســـارة ٦٠ مليون آدمي من تلك الدول المتحاربة. إن التوازن الإستراتيجي الـــذي يحكـــم دول العـــالم اليوم مبني بصورة رئيسية على الخوف من ضراوة الحروب القادمة بحيـــث لايمكـــن أن تكون نتائجها لصالح أي طرف رابحا كان أم خاسرا خاصة وأن البعبـــع النـــووي يطـــل برأسه بين الحين والحين على شكل تجارب نووية هدفها استعراض العضلات للتذكير فقـــط ليس إلا، ولتقمع الأحلام التوسعية لأية دولة تحاول تحسين أحوالها على حساب غيرها.

إن إرادة القوة والسعي لامتلاكها في الدول الضعيفة لم يعد كافيا في وقتنا المعاصر لنمو

هذه الدول وتطورها حتى لو امتلكت كل الوسائل الإيجابية لهذا التطور، فالدول التي تتصدر موازين القوى تتصدى باستمرار لكل محاولات النمو الاقتصادي والعلمي المبكر في تلك الدول التي أصبحت من الأسواق التجارية للدول الصناعية الكبرى وكأنها من ممتلكاتها التاريخية، ولذلك فإننا نجد أن منع تصدير التكنولوجيا الصناعية المتطورة إلى دول العالم النامي هو أمر غير مستغرب بدعوى الدفاع عن الأسواق التصديرية للدول الصناعية بمعنى: إذا صنعتم أشياءكم بأنفسكم فأين أبيع أنا بضاعتي؟ وبكلمة أخرى فإن الاكتفاء الذاتي في الدول النامية يسبب كسادا اقتصاديا في الدول الصناعية.

وفي مخططات الدول الصناعية الكبرى البعيدة المدى ترك أمر الصناعات التحويلية الخفيفة والزراعة والسياحة وبيع المواد الخام الأساسية إلى الدول النامية، بينما تبقى الصناعات الثقيلة والإلكترونية الغالية الثمن والمعقدة حكرا حصريا على الدول الصناعية . إن الاقتصاد الزراعي يتطلب مساحات واسعة من الأراضي المروية التي تحتاج إلى كميات منتظمة من الماء العذب، كما تحتاج أيضا إلى وفرة اليد العاملة والآلات الزراعية ولكن مردودها يبقى متواضعا إذا ما قيس بالاقتصاد الصناعي، قد تكون الزراعة جدارا استناديا للدول النامية لتحقيق أمنها الغذائي، ولكنها لن تكون بأي حال من الأحوال مصدر تنمية فعالة في الأسواق العالمية. فلو رغبت دولة من هذه الدول ذات الاقتصاد الزراعي شراء طائرة بوينغ مدنية لإضافتها لأسطولها الجوي التجاري لاحتاجت لمبلغ ٧٥ مليون دولار أمريكي ، هذه الطائرة المجهزة بجميع وسائل الراحة والسلامة ينتجها المصنع المتخصص بمدة أسبوع واحد وبرصيد عمالي لا يتجاوز الخمسمائة عامل وعلى مساحة من الأرض لاتتعدى العشر هيكتارات من الأرض وحتى تؤمن الدولة المستهلكة مثل ذلك المبلغ وجب عليها أن تبيع مائة ألف طن من القمح تحتاج لإنتاجها ١٠٠ كيلومتر مربع من الأرض المروية بالماء العذب وقرابة ألف عامل زراعي مع معداتهم الحديثة وبمدة زمنية أقلها أربعة أشهر حيث يكون الفريق الصناعي الآخر قد أنتج ١٦طائرة من نفس الطراز، فأي إجحاف هذا بحق شعوب العالم الثالث إذا أنيطت بها مهمة الإنتاج الزراعي فقط لإطعام أباطرة الصناعة والمال، إن هذا التوزيع الجائر لوسائل الإنتاج سوف يخلق فجوة متنامية بين الدول الصناعية والدول الزراعية والسياحية الفقيرة، وهذا ما نلمسه حاليا على أرض الواقع حيث تزداد الدول الفقيرة فقرا وتتراكم ديونها بينما تزداد الدول الصناعية غنى وتجبرا.

إن نقل التقنية الصناعية إلى دول العالم الثالث يتطلب الإعداد المسبق للكـوادر الفنيـة المؤهلة عن طريق ابتعاث الشباب إلى الخارج وحثهم على التحصيل العلمي والتقني، ثـم شراء المصانع اللازمة لإنتاج السلعة المطلوبة وتحقيق الاكتفاء الذاتي كمرحلة أولى يعقبها بعد ذلك التصدير المنافس للأسواق العالمية.

ولا يمكن لهذا المخطط أن يتحقق بين يوم وليلة بل يحتاج لسنوات مضنية من العمل الدؤوب والصبر الجميل، كما يحتاج إلى ثروة بشرية كبيرة ترفد الكوادر الصناعية والمؤسسات العلمية بالعناصر المؤهلة للنهوض بالصناعة والتطور العلمي الموازي نحو مستقبل أفضل للجميع.

٨-١- أنواع الحروب :

الحرب بمفهومها المبسط هي نزاع بين شعبين أودولتين على أراض أوموارد اقتصادية محددة يريد كلا الطرفين امتلاكها أو السيطرة عليها حتى تمكنه من تفوق اقتصادي وعسكري واستراتيجي خاص. أوربما كان النزاع نابعا من اختلاف في وجهات النظر تجاه قضايا مشتركة عالقة بين الطرفين ومستعصية على التسوية السلمية، ورغم أن جميع أنواع الحروب تصب في حوض المصالح الاقتصادية، إلا أنها غالبا ما تتخذ أقنعة تجميلية متعددة فمنها الحرب من أجل السلام (أي لتقليم أظافر دولة معادية ذات نوازع توسعية)، ومنها الحروب الدينية ذات الأهداف النبيلة السامية، ومنها الحرب من أجل الديمقراطية وحقوق الإنسان، ومنها الحرب الوقائية أوالإجهاضية وهو الشعار الذي كانت ترفعه إسرائيل كلما عن على بالها تأديب جيرانها العرب والاستيلاء على مزيد من الأرض لمهاجرين جدد. ولكن مهما اختلفت تسميات الحروب وتنوعت أشكالها فإنها تبقى دائما وأبدا ظاهرة لا حضارية ومنغصا عاما للحياة البشرية.

وقد تكون الحروب أهلية داخلية بين جماعات تنتمي لنفس الأمة، أوخارجية موجهه بين شعبين أوأمتين مختلفتين، أوربما تقع بين عدد من الشعوب والأمم حيث تسمى آنذاك بالحروب العالمية.

٨-١- ١: الحروب الأهلية :

وهي حروب داخلية تقع بين أبناء الشعب الواحد أوالأمة الواحدة لاختلاف في وجهات النظر تجاه قضية وطنية معينة أوتجاه نظام الحكم السائد في البلاد، وغالبا ما

تكون هناك أقليات مسحوقة في البلاد لاتحظى باهتمام الحكومة، أوأن هناك فئات عرقيـــة أودينية مضطهدة متعايشة تحت ضغط الحاجة وقلة الحيلة وهـــي تقـدم التنـازلات تلـو التنازلات حتى يطفح بها الكيل فتنظم أنفسها وتحمل السلاح وتثور مطالبة بحقوقها القوميـة أوالدينية وغالبا ما تغذي دول خارجية بعض الحروب الأهلية إما بدافع العطف على تلـك الأقليات، أوبدافع العداوة للدولة المعنية.

وعندما تثور الحروب الأهلية فإن إخمادها يصبح أمرا صعبا إن لم يكـن متعـذرا، وذلـك لتعذر حسمها بمعركة واحدة وفي فترة زمنية محددة لصالح أحد الطرفيـن دون الآخـر لأنـها بطبيعتها حرب كر وفر بطيئة الإيقاع شحيحة التمويل سيئة التنظيم وقد تستمر لأجيال متعددة.

تدمر الحروب الأهلية البنى التحتية للأمة وتجهز على الاقتصاد الوطني فيعـم الفقـر وينتشر الفساد والرشوة وتزدهر تجارة السلاح والدعارة ويتجمد القضاء فتضيـع حقـوق الناس ويسيطر الظلم بدل العدل، وبدلا من أن يلجأ الناس إلى القضاء لتحصيـل حقوقـهم المتنازع عليها يلجأون لمرتزقة السلاح لانتزاع حقوقهم بالقوة المسلحة، ومن هنـا تصبـح الجريمة جزءا من الحرب الأهلية وخبزا يوميا متعارفا عليه. إن الآلام النفسية التي تسـببها الحروب الأهلية هي أعمق أثرا من تلك التي تسببها الحروب الخارجية من حيث أن هـذه الأخيرة تكون موجهة ضد عدو مشترك لكل أفراد الشعب يتعاونون على تحقيقـه ويكـون هناك للتضحية والاستشهاد معنى مشرف لايمكن أن يتواجد في الحروب الأهلية التي تفتقـر إلى أدب شعبي يمكن للأمة أن تعتز أوتفتخر به في أجيالها القادمة فهي ليست أكـثر مـن جرح غائر موجع ينز بصمت ذكريات أليمة وصديد مقرف ذو رائحة كريهة.

٨-١-٢ : الحروب الخارجية:

هي نزاع بين دولتين أو أكثر تضاربت مصالحها واستعصت الحلول عليـها بـالطرق الدبلوماسية فلجأت إلى لغة القوة لتحقق ما عجز عنه حوار العقـل والمنطـق، ورغـم أن أسبابها تتجذر في المصالح الاقتصادية إلا أنها غالبا ما تتخـذ مـبررات أوأقنعـة براقـة كالدفاع عن حقوق الإنسان أوالديمقراطية أوالحرب من أجل السلام، وربما تكـون نزاعـا على أرض حدودية أوموارد مائية أوطرق تجارة هامة وقد تدوم هـذه الحـروب بضـع ساعات أوتمتد لبضع سنوات، ولكنها غالبا ما تحسم لصالح أحـد الطرفيـن وهـو حتمـا الطرف الأقوى وليس الطرف الأحق، فالحق الذي لا تدعمه القـوة يتحـول إلـى بـاطل ويتلاشى وتندرج تحت اسم الأقوى تشكيلة واسعة من الصفات تتغـير بـاختلاف الزمـان

والمكان فهو إما الأكثر عددا أوأسلحة وإما الأذكى والأكثر تنظيمـــا أوالأغنـــى بـــالموارد الاقتصادية، ولكن في وقتنا المعاصر هو الطرف الأكثر علما لأن الحروب المعاصرة هـــي حروب علمية بحتة تستخدم التقنية العالية والأسلحة المتطورة، ولم تعد الحروب الخارجيـــة تقتصر على صدام مسلح بين جيشين على مساحة محددة من الأرض، بل أصبحت حروبـــا علمية تدار بين غرف العمليات العسكرية المجهزة بأعقد الأجـــهزة الإلكترونيـــة القاذفـــة للصواريخ المدمرة وهي تحسم حتما لصالح الطرف الأكثر علما وتطورا والأفتك ســـلاحا ومع قدوم السلاح النووي إلى ساحات الحرب في نهاية الحرب العالمية الثانية أصبح مـــن العسيرعلى أية دولة نووية استعمال سلاحها النووي دون أن تطالها شظايا ذاك السلاح مـــن قبل الطرف الآخر وتكون الخسائر فادحة للجميع دون تمييز، وقد أوجد هذا السلاح المدمـــر رادعا ذاتيا لكل الدول النووية التي لم تعد تجرؤ على إشعال فتيل الحرب أوحتـــى مجـــرد التهديد بها خوفا من فقدان السيطرة على أعصاب كبار الضباط الذيـــن يملكـــون مفـــاتيح الصواريخ النووية، ولكن العلم أوجد بالإضافة إلى السلاح النووي تشـــكيلة متنوعـــة مـــن أسلحة الدمار الشامل يمكن أن تقضي على الحياة برمتها على سطح كوكبنا المسالم كالقنبلـــة الهيدروجينية والنيترونية والأسلحة الكيميائية والجرثومية، فهل شكلت كل تلـــك الأســـلحة المدمرة رادعا كافيا لمنع اشتعال الحروب؟ نعم إلى حد ما أوعلى الأقـــل لـــم تعـــد تلـــك الحروب الحل الأمثل لمعالجة المشاكل الدولية التي أصبحت تعالج أولا وقبل كل شئ فـــي أروقة الأمم المتحدة ومجلس الأمن والوساطات الدولية قبل اللجوء إلـــى مبضـــع الجـــراح الذي لايمكن لأحد التنبؤ بنتائج عملياته الباترة.

تترك الحروب عادة آثارا نفسية مدمرة على الشعوب المتحاربة نظرا لما تخلفـــه مـــن خسائر مادية وبشرية كبيرة وجيوش جرارة من الأيتام والأرامل والنازحين الذين يفـــرون بحياتهم من مناطق الاشتباك أوالاجتياح فيفقدون بيوتهم وأموالهم وتنتشر السرقة والدعـــارة ويتفشى الفقر المدقع ويعم الفساد وتنهار القيم الأخلاقية. ويقال عادة عن الشعوب الخارجـــة من حروب طاحنة ولفترة طويلة بأنها شعوب ممزقة ومدمرة نفسيا، وتحتاج لوقت طويـــل كي تعيد بناءها النفسي والاقتصادي، فهل يمكن أن نقول بعد كل تلك الروادع بأن عصـــر الحروب قد ولى إلى غير رجعة ؟ طبعا لا طالما أن هناك أفواه جائعة تولـــد كـــل يـــوم وانفجارات سكانية تتوالى كل يوم وصراع محموم ينشب كل يـــوم علـــى مـــوارد الأرض الثابتة إن لم نقل المستنزفة والمتناقصة، فهل تكفي مساحات الأراضي الصالحة للزراعـــة

اليوم والمستصلحة في المستقبل لإطعام اثني عشر بليونا من الأفواه الآدمية عام ٢٠٥٠ ميلادية وهو الرقم المتوقع لعدد سكان العالم في ذلك التاريخ؟ وإذن فإن الصراع من أجل البقاء سيصبح أكثر شراسة، وستندلع أكثر من حرب إقليمية وعالمية ولن يشكل البعبع النووي وأسلحة الدمار الشامل أي رادع من أجل السلام ونحن نرى منذ اليوم ونستشعر إرهاصات تلك الحروب على شكل قواعد عسكرية تتوزع على امتداد البحر واليابسة ولاتخفي الدول العظمى نواياها وأغراضها من نشر تلك القواعد بأنها لحماية مصالحها الحيوية فقط وليست من أجل سواد عين زيد من الناس أوعمر. وهنا فإن الشعوب الحكيمة هي التي تبني قوتها الذاتية الرادعة بأنفسها لا بالاعتماد على الغير، وإنما بالاعتماد على الذات ولا من أجل الاعتداء اللا مشروع على الغير، وإنما للدفاع عن النفس في عصور قادمة لا يحترم فيها العالم إلا الأقوياء، أما تلك الدول الضعيفة المستهلكة والتي تستورد غذاءها ودواءها وكساءها وتعتمد على حماية غيرها لها فإنه لن يكون لها آنذاك أي وجود.

وفي مفهوم الصراع من أجل البقاء لا تصبح الحرب آنذاك موضوع خلاف على حدود أوعلى موارد اقتصادية معينة بل موضوع صراع على وجود بمعنى: أكون أولاأكون تعادل تماما تكون أنت أولا تكون.

٨-١-٣: حروب التحرير والخلاص من الاستعمار :

تعتبر حروب المقاومة ضد الاحتلال من الحروب المشرفة بوصفها دفاعا مشروعا عن النفس وحقا طبيعيا لكل الشعوب تقره القوانين والأعراف الدولية وتعترف به جميع المنظمات العالمية، وتكون عادة تلك الحروب على شكل معارك متفرقة في الزمان والمكان بين مجموعات صغيرة من المقاومين مسلحة تسليحا خفيفا وقوى الاحتلال ودورياتها ومراكز تواجدها، ويعتمد نجاح تلك المعارك على عنصر المفاجأة الهام جدا في مثل تلك المواجهات حيث يتكبد المحتل خسائر كبيرة في السلاح والعناصر البشرية، ولن تكون لديه الفرصة اللازمة للانتقام أوالرد حيث تكون المجموعة المهاجمة قد اختفت وتلاشت بعد تحقيق هدفها بالسرعة المطلوبة، متجنبة بذلك أية مواجهة مباشرة مع قوات العدو المدججة بالسلاح، وهنا يكون زمام المبادرة دائما في يد المقاومة التي تحتفظ لنفسها باختيار أهدافها الموجعة وأوقات عملياتها بحيث تحقق شروط نجاحها. ويعلمنا التاريخ

العسكري انتصار مجموعات صغيرة من المقاومة على جيوش جبارة انسحبت في النهاية من مناطق استنزافها المستمر بحيث حققت للشعوب المستضعفة النصر النهائي والاستقلال المنشود بأقل كلفة ممكنة، ونسوق على ذلك بعض الأمثلة التي عاصرها الجميع كالحرب الفيتنامية وحروب المقاومة الفرنسية ضد الاحتلال النازي وحرب التحرير الجزائرية والثورة السورية ضد المحتل الفرنسي والمقاومة الفلسطينية واللبنانية ضد المحتل الإسرائيلي وغيرها من الأمثلة والشواهد التاريخية.

في حروب المقاومة يكون الهدف الأسمى للتضحية والفداء وهو تحرير البلاد والعباد من سيطرة المحتل شعارا عاما لكل فئات الشعب، يتمغزل حوله الوجدان الوطني والقومي لأبناء الأمة الواحدة وتصاغ حوله جميع التوجهات الوطنية ومشاعر الانتماء، ويفرز أدبا وطنيا رائعا تختزنه الأجيال تلو الأجيال عبر ملاحم البطولات وقصص الأطفال والشعر الوطني، ولنا أن نلاحظ أن معظم الأناشيد الوطنية العالمية تتحدث عن مثل تلك البطولات التي يضفي عليها الخيال الأسطوري بعض اللمسات السحرية والفن الأدبي والموسيقي ليدمجها في مخزون التراث الشعبي وذلك بخلاف الحروب الأهلية التي يحاول الشعب أن ينساها أويتناساها لأنها تمثل جرح مهانة في تاريخه القومي.

٨-١-٤: الثورات الكبرى:

تختلف الثورة بمفهومها الاجتماعي عن الحرب الأهلية في أن هذه الأخيرة تعبر عن صراع بين فئات متساوية أو شبه متساوية من الشعب تضاربت مصالحها تجاه قضية معينة، وتعذر الوصول إلى حلول وسط ترضي الطرفين، بينما تعبر الثورة عن مصالح غالبية مسحوقة تجاه أقلية ظالمة أمسكت بأيديها كل أسباب القوة والثراء بحيث أصبح من المستحيل على الغالبية المضطهدة إصلاح الوضع دون التضحية بتلك الأقلية الظالمة ومصالحها الموروثة.

ويقدم لنا التاريخ أمثلة حية عن الثورات العالمية الكبرى كالثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ ميلادي عندما اقتحم الجياع الفرنسيون سجن الباستيل رمز الظلم والاضطهاد وأزاحوا طبقة النبلاء المتسلطة على رقاب الشعب آنذاك، ولم تكن الثورة الفرنسية تمردا عاديا على نظام سياسي معين بقدر ما كانت ثورة عامة على تحالف الكنيسة وطبقة النبلاء والمعتقدات الكنسية السائدة والأفكار الغيبية التي أطاحت بها خطوط فلسفة ديكارت وكانت وهيجل

وعصر التنوير، حيث عجزت الكنيسة في الدفاع عن أفكارها في أصل الكون ونظريات النشوء، فإذا أضفنا إلى أن طبقة النبلاء كانت تستفيد من بركة الكنيسة التي تجير الطاعة الدينية للفقراء إلى طاعة عمياء للطبقة الإقطاعية فهمنا لماذا يعتبر بعض المفكرين أن الثورة الفرنسية كانت ثورة ثقافية وليست مجرد تمرد شعبي واسع. وقد مهدت الحركة الإصلاحية الدينية لمارتن لوثر المفكر الألماني والداعية الديني الطريق لجعل الكنيسة موضع انتقاد شعبي بعد أن كانت مثل تلك الانتقادات تعتبر نوعا من التطاول المحرم والهرطقة الدينية، كذلك ساهم عصر التنوير عبر اكتشافاته العلمية والصناعية واستبدال الآلة مكان اليد العاملة المجردة في زيادة الإنتاج الصناعي، وبالتالي زيادة طبقة العمال التي تساوت همومها ومطالبها وتوحدت اتجاهاتها الاجتماعية والسياسية، كما أدى نمو ذلك الإنتاج إلى تموضع الثروات في أيدي الطبقة الوسطى من البرجوازيين والصناعيين والتجار الأمر الذي جعل منهم طبقة منافسة لطبقة النبلاء التي لم تسطع الاعتراف، بهم أوالتعاون معهم، كل هذه الأسباب ساهمت بصورة غير مباشرة في التمهيد للثورة الفرنسية التي اكتسبت بعضا من أهميتها في إفرازها لعدد من القيم الإنسانية منها حقوق الإنسان التي انتشرت في كل أوروبا ودول العالم. لقد كانت الثورة الفرنسية المحصلة الطبيعية لكل التناقضات الاجتماعية والاقتصادية والدينية التي كانت تعيشها أوروبا بشكل عام وفرنسا بشكل خاص من بداية القرن السابع عشر وحتى نهاية القرن الثامن عشر.

من الثورات الكبرى في التاريخ أيضا: الثورة البلشفية في روسيا وقد انبثقت عن فلسفة المفكر الفرنسي كارل ماركس وإنجلز وغيرهما حيث أفرزت عددا من المبادئ والأفكار الجديدة كالملكية الجماعية وعدالة توزيع الثروات وفكرة أن الأرض لمن يزرعها وليست لمن يملكها وشيوعية وسائل الإنتاج. وعندما اشتعل فتيل تلك الثورة حصدت الكثير من الضحايا الأبرياء وغير الأبرياء وخلفت الكثير من الأرامل والأيتام حتى سموها مشعلوها بالثورة الحمراء لأن فلسفتها الأساسية تنطوي على استخدام العنف والإرهاب للسيطرة على مقدرات الأمة، ولقطع دابر أية معارضة تذكر من أية جهة كانت، لكن العمال والفلاحين الذين اعتقدوا بأن الثورة الشيوعية كانت قد قامت لإنصافهم وأن عهدا جديدا مزهرا سيحمل إليهم رياح التغيير والعدالة ما لبثوا أن تيقنوا بأن أوضاعهم لن تتغير كثيرا، وأن صاحب العمل كان قد استبدل بمجموعة من الحزبيين المتعصبين بإدارات

التسيير الذاتي لا تهمهم مصالح العمال بقدر ما كانت تهمهم امتيازاتهم الطبقية، فهل كانت الثورة الشيوعية تعبيرا عن صراع محموم على السلطة بين طبقة الملاك وطبقة العمال رغم جميع الشعارات البراقة التي طرحتها ؟. وهل انتهت مثيلتها الثورة الفرنسية إلى صراع سياسي على السلطة بين طبقة النبلاء الإقطاعية وطبقة العمال والبرجوازيين (أي صغار التجار والصناعيين) رغم حقوق الإنسان المشهورة ؟

والواقع أن الثورة البلشفية اختنقت بعد سبعين عاما بتناقضاتها المهلكة بعد أن أسقطت من حسابها الدوافع الفطرية للإنسان في لذة التملك والمبادرات الفردية وقوة التنافس والتميز والتفرد، وظنوا أن بإمكانهم تحويله إلى حشرة نحل أونمل عاملة في مجتمع كبير منظم لا تتفوه بشكوى ولا تنبس ببنت شفة، كذلك وقعت الثورة الفرنسية بتناقضاتها عندما استطاعت أن تطبق حقوق الإنسان على الأوربيين ولكنها لم تسطع أن تطبقها على الدول المستعمرة التي كان نهب خيراتها وعطش أسواقها مصدر رزق الفرسان الجدد للثورة الفرنسية، ومن هنا وقع أدباء ومفكروا أوربا الحديثة بالحيرة والتناقض عند تعاملهم مع الشعوب المستضعفة هل يصنفونها في زمرة الإنسان وبالتالي يجب أن تأخذ حقوقها التي أقرتها لها الثورة الفرنسية أي إيقاف نهبها والاستعلاء عليها؟ أم أنها خارج إطار تلك الفئة من الناس التي لا تشملها حقوق الإنسان وبالتالي يجوز سحقها ونهبها تارة باسم الانتداب وتارة باسم الاستعمار وأخرى باسم الوصاية ؟

وقد يتساءل سائل ما : ما علاقة الحضارة بدراسة الثورات التاريخية الكبرى ؟ خاصة وأن أغلبيتها كانت مغموسة بحمامات دم مرعبة ومجازر أهلية ساخنة طالت كثيرا من الأبرياء وهذا أبعد ما يكون عن الحضارة ؟ أجل هذا صحيح ولكن إرهاصات الثورات الكبرى التي كانت تتراكم في وجدان الشعوب تحت ضغط الكبت الفكري وخنق الكلمة الحرة كانت تؤدي إلى انفجارات عنيفة مدمرة لترفد المسيرة الحضارية للإنسان بكل الأفكار الجديدة والجريئة التي ما كان يمكن قبولها وانتشارها بقوة الإقناع فقط لأنها كانت تناقض مصالح كثير من الجماعات المستفيدة من الأوضاع السابقة. ولأن التطور الحضاري للبشرية كان يتم بأحد طريقين: أولهما هو التطور التدريجي والتنامي البطيء للأفكار والمعلومات البشرية عن طريق التجربة وجدلية الخطأ والصواب، وثانيهما هو التطور الفجائي الذي يشبه الطفرات الداروينية وذلك بواسطة انفجارات الثورات الكبرى

التي تحمل معها ملامح تغييرات عميقة في المعرفة الإنسانية، ولذلك فقد كان من الطبيعي أن تدفع الشعوب التي تحمل على كاهلها عبء الثورة ثمن تلك الأفكار الجديدة وثمن الريادة الحضارية في المنظومة الإنسانية.

إن الفرق بين الثورات الكبرى والحروب الأهلية هو أن الأولى تحمل معها خبرات ثقافية كبيرة وفلسفة جديدة للحياة، بينما تنحصر مهمة الثانية في مسبباتها وهي تحقيق تسويات مادية أو فكرية بين جماعات متنازعة على أمور خاصة. وإذا كان الفضل يرجع للثورات الكبرى في التاريخ لإثراء الحضارة الإنسانية بمجموعة من الأفكار الإيجابية التي ساعدت على تطورها فإن الدعوات الدينية يجب أن تصنف ضمن الثورات الكبرى حتى وإن كان بعضها خاليا من العنف الدموي كالمسيحية على سبيل المثال. أما الدعوة الإسلامية التي بدأت سلمية عام ٦١٠ م لم تلبث أن تحولت إلى صدامات مسلحة عندما تنكرت الفئات ذات المصالح الاقتصادية في قريش إلى الدعوة الجديدة وجاهرت بعدائها لها وحاولت القضاء عليها.

إن الثورة الثقافية التي انبثقت عن الدعوة الإسلامية تعتبر بحق رافدا حضاريا هاما يضاف إلى الحضارة الإنسانية في زمن قياسي إذا ما قيس إلى الثورات التاريخية الأخرى فمن تعدد الآلهة وعبادة الأصنام إلى عبادة إله واحد ومن التفرقة العنصرية بين الأشراف والسادة والعبيد إلى المساواة التامة في الحقوق والواجبات ومن الاضطهاد المطلق للنساء ووأدهن أحياء إلى احترامهن وتكريمهن في زوجة أو أم أو ابنة، كل هذا يتم في زمن قياسي لا يتجاوز عشرة أعوام من عمر الدعوة يعتبر إنجازا هائلا خاصة إذا تصورنا حجم وقوة الفئات المعارضة للدعوة والمتضررة من انتشارها.

إن المبادئ الخيرة التي حملتها الديانات السماوية للإنسانية يجعل من هذه الديانات ثورات ثقافية كبرى، رغم أنها تمت عن طريق الأنبياء وليس عن طريق المصلحين الاجتماعيين، ورغم أن الإنسان فيما بعد استغل تلك الأديان وشوه محتواها الحضاري وتستر خلف مبادئها ليقوم بأعنف حروب عرفها التاريخ في سبيل تحقيق مصالحه الاقتصادية ألا وهي الحروب الدينية التي سنتعرض لها في الفقرة التالية.

٨-١-٥ : الحروب الدينية:

كانت معظم الحروب الكبرى في التاريخ تتخذ من الدين ستارا لها لتموه فيه مقاصدها

الاقتصادية وقليلة جدا هي تلك الحروب التي كانت تحركها دوافع دينية حقيقية. فهي إما للدفاع عن عقيدة دينية مهددة بالاضطهاد أوالزوال وإما لنشر عقيدة دينية أخرى كي يكثر أتباعها وتقوى شوكتها، فحروب الفتوحات الإسلامية كانت لنشر العقيدة الإسلامية في الأرض تنفيذا لأمر الله في الجهاد في سبيله حتى تعلو كلمته وتنتشر عدالته في الأرض وهذا أمر لاغبار عليه خاصة إذا تصورنا مساحة الظلم الذي كان سائدا في تلك الفترة على مناطق النفوذ الروماني والفارسي حسب نصوص التاريخ المكتوب بأيديهم آنذاك، فمجتمع الطبقات ذوات الامتيازات لم يكن يترك للفقراء والعبيد إلا السخرة المجحفة في زراعة الأرض مقابل اللقمة الجافة والطاعة العمياء، وهذا ما سهل انتشار عقيدة المساواة بسرعة مذهلة وأسرع في عملية الفتح على المسلمين لكن الهدف الاقتصادي لحروب الفتح جاء كتحصيل حاصل للعقيدة النقية والهدف النبيل، فبعد أن استتب الأمر لجيوش الفتح في البلاد الجديدة وكان لابد من بقاء بعض الفرق العسكرية في أرض الفتوحات لحفظ الأمن وإدارة البلاد، أرسل هؤلاء وراء زوجاتهم وأولادهم ليحضروا إليهم ويقيموا معهم في المناطق الجديدة التي كانت وافرة الماء خصبة التراب وطيبة الهواء، فأقاموا فيها وانصهروا في مجتمعاتها، كذلك لم يكن الهدف الاقتصادي خافيا تماما عن بعض المقاتلين الذين أحضروا معهم عائلاتهم في رحلة الفتح الأولى قاصدين الهجرة والاستيطان في البلاد التي يستقرون فيها هربا من أرض قليلة الموارد خفيفة الأمطار، وهكذا استقر الأمويون في الشام ونقلوا عاصمة الخلافة إليها والعباسيون في العراق والفاطميون في مصر، وحتى قبل الفتوحات الإسلامية لم تكن الهجرات القبلية من شبه الجزيرة العربية إلى تلك البلاد نادرة أومستغربة فقد هاجر الغساسنة إلى الشام والمناذرة إلى العراق وبنو هلال إلى تونس وشمال أفريقيا، واستنادا إلى ما تقدم نجد أن الحروب الدينية تندرج ضمن تلك الهجرات وتتميز عنها بنبل المقصد وألوهية الإرادة.

غير أن الحروب الدينية كما سجلها التاريخ الإنساني تمتد على فترات زمنية طويلة ومساحات جغرافية واسعة نظرا لأنها تتعامل مع المعتقدات الدينية للإنسان التي تعتبر في علم النفس نوعا من الأفكار الثابتة التي يصعب التخلي عنها [بيير داكو،١٩٨١ الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث، ترجمة وجيه أسعد]، فما أصعب من أن يكتشف الإنسان أنه عاش سحابة عمره مؤمنا بكذبة كبرى وكأنك تقول له، أن والديه لم يكونا أكثر

من مربيين التقطاه رضيعا من قارعة الطريق، لذلك كانت الدعوات الدينية الجديدة تلقى مقاومة عنيفة عند نشرها مهما كانت أفكارها منطقية ومقنعة، ولم يكن رفض عبدة الأصنام في قريش رفضا للوحدانية الإلهية التي جاء بها الإسلام بقدر ما كان رفضا للاعتراف بأنهم كانوا حمقى طوال حياتهم، ويبدو ذلك واضحا في بعض مقولاتهم إذ كانوا يرددون (كنا نتقرب بها إلى الله زلفى) أي أننا لا نعبدها لذواتها فنحن نعرف أنها لاتنفع ولا تضر، أوكانوا يقولون: (هكذا وجدنا آباءنا يعبدون ونحن على دين آبائنا قائمون) أي أنها عقيدة موروثة يصعب التخلي عنها، وهذا ما يفسر صعوبة الدعوات العقائدية الجديدة وطول الحروب التي تفرزها.

من الحروب الدينية أيضا الحرب الصليبية التي استمرت ثلاثة قرون من التاريخ بين المنطقة العربية وأوروبا، وكان الهدف المعلن لتلك الحملات المتتالية هو تحرير طرق الحج المسيحي إلى بيت المقدس من قطاع الطرق وعصابات النهب لقوافل الحجاج، ولو سبرنا قليلا في أرضية النوايا من خلال المسارات التي تعرجت فيها تلك الحروب لوجدنا فيها مقاصد أبعد كالتمنع مثلا عن دفع المكوس وضرائب المرور لأمراء المقاطعات الإسلامية الواقعة على طرق الحج كإمارة حلب وحمص ولبنان، ولو ذهبنا أبعد عمقا لوجدنا غاية أكبر أهمية من الحج وهي الاستيلاء على طرق التجارة مع الشرق الأقصى كطريق الحرير، والذي كان يدر على التجار المسلمين ثروات هائلة تستحق المحاولة في الاستيلاء عليها، هذا إذا استثنينا الأحقاد التاريخية الناشئة من التوسع الإسلامي السابق في أسبانيا وفرنسا ونصف القارة الآسيوية على حساب الإمبراطوريتين الرومانية والفارسية. وإذا كان الأمر كذلك فهل تعتبر الحروب العربية الإسرائيلية نوعا من الحروب الدينية؟ والجواب هنا لاينحصر في إحدى الكلمتين التقليديتين نعم أولا. لأن مسارات هذه الحروب والأطراف المتورطة بها وغاياتها المعلنة والخفية تجعل من الإجابة على ذلك السؤال أمرا مربكا ومحيرا. فإسرائيل تدعي أن ما يسمى حاليا بفلسطين هي أرض توراتية وعدهم الله بها في التوراة وسماها لهم بأرض الميعاد، وأنهم قد شردوا منها قرابة ألفين وخمسمائة عام في أنحاء الأرض يتعرضون للظلم والاضطهاد بسبب قلتهم وضعفهم وأنه قد آن الأوان لكي يتجمعوا في بلاد أسلافهم ويشكلوا دولة يهودية مستقلة ترعى مصالحهم، لذلك فهم لا يعتبرون اغتصاب فلسطين اغتصابا أواستعمارا استيطانيا كما يدعي العرب بل

يعتبرونه تحريرا للأرض التي طال اغتصابها ومن وجهة النظر هذه بغض النظر عن صحة تلك المقولة أم لا، فإن تلك الحروب تصنف ضمن الحروب الدينية، بينما يصنفها العرب ضمن الحروب الاستيطانية التي ترعاها الدول الاستعمارية لخدمة مصالحها البترولية في المنطقة وهي عارية تماما عن المضمون الديني الذي يدعيه اليهود، ولكن بعد أن طور اليهود الصراع إلى استفزازات دينية في المسجد الأقصى مال بعض العرب وبعض الدول الإسلامية إلى تصنيف هذا الصراع في جملة الحروب الدينية حتى أن بعضهم (العقيد معمر القذافي ــ رئيس الجماهيرية الليبية) قال إن هذه الهجمة الصهيونية ما هي إلا امتداد طبيعي للحروب الصليبية التاريخية، والواقع الذي يجب أن يذكر هو أن الحروب الصليبية التي انتهت برحيل الصليبيين عن الساحل السوري عادت إلى المنطقة بعد تفكك الدولة العثمانية وتقاسمت الدول الاستعمارية المناطق العربية كأسواق تجارية ومناطق نفوذ ومناهل خامات معدنية وبترولية، وعندما خرج الاستعمار البريطاني من فلسطين لم يترك وراءه دولة مستقلة تستطيع الدفاع عن نفسها، بل ترك دولة يهودية وسلحها تسليحا جيدا لتزاول مجازرها المشهورة ضد شعب أعزل لم يعط أية فرصة للدفاع عن نفسه. ولكن هل كان باستطاعة مؤسسي الحركة الصهيونية لإقامة الحلم الصهيوني في أرض الميعاد أن يحشدوا آلاف الآلاف من اليهود المهاجرين ليملأوا بهم أرض الميعاد لولا التحريض الديني وجعل هذه الحرب حربا دينية مقدسة؟

ويمكن إيجاز الموضوع بأن الصراع العربي الإسرائيلي هو صراع ديني بشكله الخارجي، إنما هو استعماري استيطاني بمضمونه وهو صراع حضارتين متنافستين من أعماق التاريخ وحتى الآن: حضارة شرقية وحضارة غربية ظلتا على امتداد التاريخ في مد وجزر لا ينتهي، وهذا يوقعنا بشكل حتمي في جدلية المسألة الشرقية التي تندرج ضمن إطارها جميع الحروب التاريخية التي ثارت بين الشرق والغرب وهي بفحواها حرب وجود لوجود وليست إطلاقا حرب خلاف على حدود، وأقول هذا لكل من يؤمن بإمكانية التعايش السلمي بين العرب وإسرائيل حتى لا يخدعوا أنفسهم وغيرهم ويسلكون طرقا لن تؤدي إلا إلى سراب. في الحروب الدينية غالبا ما كانت تحسم النتيجة لصالح الطرف الأعمق إيمانا، وعلى سبيل المثال كان المجاهد في الفتوحات الإسلامية يشتري جواده ودرعه وسيفه من ماله الخاص ويحمل مؤونته ويتوجه متطوعا إلى الجيش ليؤدي فريضة

الجهاد غير عابئ بمشقة السفر ولابضراوة المعارك وكل همه الفوز بـــإحدى الحســـنيين: الشهادة (أي الموت شهيدا) أوالنصر لايتقاضى راتبا عن ذلك ولا يأخذ أجرا، وكـــان فـــي أثناء المعركة يقاتل من الصباح حتى غروب الشمس وهو يتحمـــل ثقـــل درعـــه وســـيفه ورمحه، بينما كان يقاتل خصمه من أجل شـــرف الإمـــبراطور أوكرامـــة الإمبراطوريـــة ويتقاضى راتبا عن ذلك (وتلك غاية باهتة لاتستحق الموت من أجلها) لذلك كـــانت تصـــر إسرائيل على نشر الدوافع الدينية في حروبها مع العرب من أجل حشد طاقاتـــهم القتاليـــة وتجييرها لصالح الحركة الصهيونية. ولولا ذلك لما استطاعت جمع هذا الكم الـــهائل مـــن المهاجرين.

٨-١-٦ : الحرب الباردة :

أطلقت هذه التسمية على الحرب الغير معلنة والخالية من الصدام المسلح بين الفريقيـــن المتحاربين، وقد انتشرت بعد الحرب العالمية الثانية لتعبر عـــن الخـــلاف الناشـــب بيـــن المعسكر الشيوعي والمعسكر الرأسمالي حول أنظمتهما السياسية، فبينما يتهم الشـــيوعيون المعسكر الغربي باستغلال الطبقة الكادحة من عمال ومزارعين وتوجيه رأس المال لإيـــذاء الدول المستقلة المحايدة ومصادرة قرارها السياسي، بينمـــا ينعـــت المعســـكر الرأســـمالي خصمه الشيوعي بانتهاك حقوق الإنسان والتنكر للديمقراطية التي يعتبرها حقـــا مشـــروعا لكل الشعوب. ولو تعمقنا في تحليل ظواهر هذا الصـــراع لوجدنـــا أن دوافعـــه الحقيقيـــة تنحصر في تقاسم مناطق النفوذ في العالم والسيطرة على ثرواتـــه وقدراتـــه. ورغـــم أن مصطلح الحرب الباردة هو مصطلح جديد تاريخيا إلا أن مضمونه كان موجودا دائما علـــى مدى الأزمنة التاريخية كحالة من العداء الخفي بين مجموعتين بشريتين يتربص كل منـــهما بالآخر، ويجري بينهما سباق للتسلح أوبناء القوة تصاحبه حرب كلامية وإعلامية ونشـــاط تجسسي وسباق علمي وتقني ويمكن اعتبار الحرب الباردة كتنفيس مؤقت لمرجل الغليـــان العدائي بين طرفين يتوجسان من الصدام المباشر الـــذي ســـيكلف الطرفيـــن ثمنـــا غاليـــا لايقدران عليه، وقد تحدث بين الطرفين توترات عالية أوصدامـــات غـــير مباشـــرة بيـــن أنصارهما يحرصان تماما على عدم التورط فيها بصورة مباشرة كالحروب الإســـرائيلية- العربية وأزمة الصواريخ الكوبية التي كادت أن تصل إلى نقطـــة الصـــدام النـــووي بيـــن الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية، وقد عاش العالم كله ظـــروف وملابســـات

الحرب الباردة بين المعسكرين العملاقين من بداية الخمسينات من هذا القرن وحتى بداية التسعينات عندما انهار النظام الشيوعي على نفسه وتحررت الأقطار التي كانت تحت سيطرته وانفردت الولايات المتحدة الأمريكية بالسيطرة على العالم. ولم تكن الحرب الباردة بدون فوائد للإنسانية فلولا التنافس التقني في سباق التسلح وغزو الفضاء لما كان للإنسان أن يخطو أولى خطواته على سطح القمر، ولما كان الإعلام التلفزيوني والاتصال الهاتفي الدولي حاليا يستفيد من الأقمار الصناعية التي تجوب الفضاء والتي ما وضعت في الأساس إلا لأغراض تجسسية على المعسكرين. وغالبا ما تبدأ الحرب الباردة عندما تهدأ الحروب الفعلية لالتقاط الأنفاس والإعداد لجولة أخرى من الحروب طالما أن أيا من الطرفين لم يحقق بعد أهدافه المرجوة.

وإذا استعرضنا مجمل الحروب البشرية في التاريخ الإنساني وتعرفنا على حيثياتها وسير أحداثها وغاياتها النهائية لوجدنا أنها تندرج جميعها تحت عنوان الصراع من أجل البقاء وليس لمتعة القتل المجردة، وهي تصب كلها في الغايات الاقتصادية وإن لم تكن معلنة وأنها تنتهي دائما بالبقاء للأفضل والأصلح والأقوى ، أي الطرف الأقدر على مواجهة الحياة والتكيف معها فالأمة الضعيفة التي لم يهزمها ويبيدها زيد من الناس أزاحها من الوجود عمر من الناس وهي دائما مستهدفة لأنها ضعيفة ولا تستحق الحياة. لقد كان الصراع من أجل البقاء يزداد حدة وضراوة كلما ازداد عدد سكان العالم وقلت موارد الأرض، وأما التعايش السلمي والإنساني تحت سماء واحدة ومظلة العلاقات الودية المتبادلة فلم يكن إلامراحل هدوء مؤقت وهدنة تفرضها الظروف التاريخية والجغرافية لاتلبث أن تنقضي وتزول عند أول بادرة للقوة.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هل الإنسان عدواني بفطرته الغريزية ؟ بمعنى لو أنه امتلك القوة القادرة ولم تكن له مصلحة أو منفعة مباشرة في جاره المسالم الذي يساكنه نفس الأرض ويشاركه نفس الموارد ولا يشكل أي تهديد له أو خطر عليه فهل يتركه يعيش بسلام ويبادله المودة وحسن الجوار؟ تصعب الإجابة على هذا السؤال برد حاسم ولكن لم لانستقرئ التاريخ في أوضاع مماثلة لهذا المثال؟ وسوف نجد أن أوضاعا مماثلة كانت موجودة ولكن لفترات قصيرة جدا، لأن امتلاك القوة في وسط مسالم ومحيط ضعيف يفرض الحوار التالي في فلسفة الأقوياء: نحن نملك القوة التي تسحق جميع

الضعفاء من حولنا، ومع ذلك فهم يتمتعون برغد العيش وكثرة الموارد التي لايستحقونها لأنهم غير قادرين على الدفاع عنها، بينما نعيش نحن على مواردنا المحدودة فأين العدالة في ذلك؟ ومن هذا المنطق تبدأ الحروب ويطلعنا التاريخ على العديد من الأمم والممالك التي زالت من الوجود بسبب ضعفها وتهالكها على رغد العيش والملذات المؤقتة. نستنتج من هذا الحوار المستعرض أن العدوانية في الإنسان هي غريزة أساسية تأخذ أشكالا وصورا خارجية مختلفة وتتحقق دائما تحت شتى المبررات الأمنية الزائفة التي تقبع تحتها أنانية قوية وعدوانية شرسة.

إذن أين موقع معاهدات السلام في كل هذه الفلسفة ؟ معاهدات السلام والتعايش السلمي وحسن الجوار لم تكن إلا واحات للراحة والتقاط الأنفاس بين أطراف تعبت من الحروب وعجزت عن تحقيق أية مكاسب مادية أومعنوية بواسطة القوة العسكرية، وتخبرنا أحداث التاريخ بأن كل تلك المعاهدات ما لبثت أن انهارت ونقضت عندما أصبح أحد الطرفين مستعدا من جديد لإنهاء الوضع لصالحه عندما تتغير الظروف السياسية (الداخلية والخارجية).

٨-٢-الإرهاب :

أطلقت هذه التسمية بعيد الحرب العالمية الثانية على عمليات العنف المسلح ضد أفراد أومجموعات غير مسلحة ومسالمة بهدف إرهابها وابتزاز الهيئات أوالحكومات المسؤولة عنها، وتندرج تحت هذه التسمية جميع المجازرالوحشية التي ارتكبت ضد المدنيين أثناء الحروب التي ما انقطعت على امتداد التاريخ.

التسمية قد تكون حديثة نسبيا ولكن مدلولاتها كانت موجودة ومستمرة منذ بدء الحروب وحتى الآن، نسوق مثالا على ذلك في حروب التتار مع العرب المسلمين عندما اقتحم هولاكو بغداد عاصمة الخلافة العباسية ليدمر كل ما هو حضاري ويرهب السكان الآمنين، وقد تعمد هولاكو ذلك ليفر المذعورون من المدنيين أمام جيشه الجرار وينشروا الرعب في بلاد الشام ومصر حتى تستسلم البلاد بدون مقاومة تذكر، وهي خطة يتبعها عادة قواد الجيوش الغازية لإفراغ البلاد من سكانها وخفض الروح المعنوية لدى القوات المعادية فتفر من الحرب قبل وصول القوات المهاجمة، وهذا أيضا ما فعلته إسرائيل في مذبحة دير ياسين لإفراغ فلسطين من سكانها العرب، إن الإرهاب بمعناه الحقيقي هو

تحقيق نصر رخيص ضد المدنيين يكون له رد فعل سلبي على قوات الخصم، وهو بأفضل الأحوال عمل جبان وخسيس تدحضه الحضارة وتصنفه ضمن الحروب اللاأخلاقية، ويتحدث خبراء الحروب عن ثلاثة أنواع من الإرهاب: إرهاب الدولة وهذا ما تحدثنا فيه قبل قليل، وإرهاب العصابات والمنظمات السياسية المتطرفة، وإرهاب الأفراد. ويسود إرهاب المنظمات والأفراد حيث يسود الظلم الاجتماعي والقهر السياسي حيث يعجز المجتمع عن تحقيق أهدافه بواسطة الجيش المنظم فتقوم جماعات صغيرة وأفراد غير منظمين بعمليات انتقام مشتتة ضد أفراد العدو أوالحكومة التي تمسك بزمام الأمور بين يديها. ويجب أن نفرق بين الإرهاب ومقاومة الاحتلال التي تعتبر حقا مشروعا لجميع الشعوب الواقعة تحت الاحتلال، فالمقاومة التي تتألف من جماعات صغيرة ومدربة لها الحق كل الحق في ضرب جنود العدو ومباغتتهم في ثكناتهم ومهاجعهم سواء كانوا مسلحين أم عزل من السلاح فهم عناصر عسكرية معادية يجب قتالها، أما العناصر المدنية من أطفال ونساء ومسنين وهي العناصر غير القادرة على حمل السلاح فيجب أن تستثنى من الأهداف المطلوبة، ولنا أن نتساءل فيما إذا كان المدنيون من الشباب الذين يعتبرون رصيدا فعليا ورديفا للقوات المسلحة أهدافا مشروعة للمقاومة أم لا؟ خاصة وان منهم الكثيرين ممن انهوا خدمتهم العسكرية وصنفوا تحت الاحتياط بجاهزيتهم للسوق؟ هؤلاء يمكن أن يعتبروا أهدافا مشروعة واليوم تخلط إسرائيل ومن معها من الدول المتفلسفة بين الإرهاب والمقاومة المشروعة، بينما تمارس هي جميع أنواع الإرهاب ضد المدنيين الفلسطينيين واللبنانيين.

إن خطف الطائرات المدنية والإساءة إلى المدنيين العاجزين هو إرهاب واضح لاخلاف عليه مهما اختلقت له المبررات والأعذار وقد سمعت تعليقا لأحد المقاومين الفلسطينيين عندما وجهت له تهمة الإرهاب في قضية خطف طائرة مدنية إذ قال: إن جميع المدنيين الراشدين في إسرائيل هم أهداف مشروعة لأن من يهاجر إلى بلد يعلم أنها ليست له وهو يعلم مسبقا أن هجرته هذه يترتب عليها طرد عائلة من منزلها واغتصاب أرض لا يملكها هو إنسان مدان ويشارك جيشه المعتدي باعتدائه وبالتالي فهو هدف مشروع / وهذا يقتصر فقط على الاحتلال الاستيطاني كما هي الحال في فلسطين حاليا والجزائر سابقا / ولكن ألا يمكن أن يكون هذا الإنسان مغررا به كما سبق وذكرنا؟ ألم

تحشد الدعاية الصهيونية كل المبررات والحجج الدينية لإقناع يهود العالم بأن أرض يهوذا تستصرخ أبناءها البررة للعودة إلى الأرض الموعودة وتخليصها من العرب الأنجاس؟ لقد سمعنا الكثير من هذه الدعايات المغرضة في أوروبا وروسيا وأمريكا. ولكن الإرهاب هو الإرهاب ولا يمكن تسمية قتل الأطفال والنساء والمسنين إلا إرهابا بكل معنى الكلمة ولكن الذي يغيظ في سلوك الغرب المتحامل على العرب بسبب الأحقاد التاريخية التي أفرزتها الفتوحات الإسلامية والحروب الصليبية أنه لا يسمي الأشياء بمسمياتها، فعندما دخل أحد الحاخامات اليهود على الحرم الإبراهيمي في الخليل وأطلق النار على المصلين في رمضان لم يتجرأ الرئيس الأمريكي أن يعتبر هذا العمل عملا إرهابيا، بل قال بكل بساطة بأن هذا العمل فردي ويأتي من رجل مختل عقليا، وكأنه نصب من نفسه محاميا تطوعيا عن إسرائيل دون أن يطلب منه أحد ذلك. ويحق لنا أن نتساءل هنا ألا يعتبر طرد العائلات الفلسطينية من منازلها في وضح النهار عملا إرهابيا؟ ألا تعتبر المجازر الإسرائيلية ضد أطفال الانتفاضة وبجنود مدججين بالسلاح من أخمص القدم وحتى قمة الرأس عملا إرهابيا؟ ألا يعتبر إحراق المسجد الأقصى وهو معلم ديني وأثري عملا جبانا وإرهابيا ؟ إذا لم الكيل بمكيالين ؟ ولم الانحياز اللامسؤول ؟ ألا يترتب على ذلك السلوك أعمال انتقامية مماثلة، ولماذا يكون المدني اليهودي أغلى وأثمن من المدني العربي؟ إن فلسفة الغرب في سياساتهم الموجهة ضد العرب كان قد عبر عنها الجنرال غورو قائد الحملة الفرنسية على سوريا عندما وقف أمام ضريح صلاح الدين الأيوبي في دمشق وقال بالحرف الواحد: لقد انتصر الصليب على الهلال يا صلاح الدين ومع تزايد النزعة العلمانية في أوروبا وانحسار التعصب الديني للمسيحية عبر الرئيس الأمريكي أيزنهاور عن توجهات الغرب في الأرض العربية عندما قال في مشروعه المسمى باسمه [إن هناك فراغا في الشرق الأوسط يجب ملؤه] والفراغ الذي يعنيه ليس فراغا سكانيا بقدر ما هو فراغ حضاري، وقد وجدت الدول الغربية أن إسرائيل ولكون أفرادها المهاجرين ينحدرون من الأرومة الغربية ويحملون حضارتها هم المؤهلون لملء هذا الفراغ لصالح الغرب وذلك على نهج ما حصل في الهجرة الأوروبية للقارة الأمريكية الفارغة سكانيا وحضاريا وكما حصل في ملء قارة أستراليا وجنوب أفريقيا وروديسيا سابقا، ولكن الفراغ الحضاري الذي يدعيه الأوروبيون في منطقة الشرق الأوسط هو غير ذاك الذي كان

موجودا في أمريكا وغيرها من مناطق العالم الفارغة، فلا الهنود الحمر في أمريكا ولاالهنود الأستراليون ولا الزنوج في جنوب أفريقيا كانوا صناع حضارة تاريخية وإن من يصنع حضارة امتدت على مساحة ستمائة عام زمنيا ونصف الكرة الأرضية مكانيا لايمكن أن يكون فراغه الحضاري إلا فراغا مؤقتا يستطيع إعادة ملئه باستعداداته الفكرية وإرثه الحضاري ولا نقول لمثل هؤلاء المدعين إلا أنهم أخطأوا في الحساب.

إن الإرهاب بوصفه أحد مفرزات العدوانية البدائية الفجة التي لم تهذبها التربية الحضارية هو عمل لاأخلاقي تستنكره الحضارة وتدينه جميع الشرائع السماوية والقوانين الأرضية وحقوق الإنسان، ونحن عندما نتصدى لظاهرة الإرهاب التي شاعت في هذه الظروف من الظلم الإنساني نحاول أن نتلمس الطريق الصحيح في قائمة التعريفات المضللة التي تحاول إلصاق التهم بديننا وأمتنا من منطلق الإسقاط النفسي للغرائز الفجة التي يتصف بها أعداؤنا علينا حتى يبرروا لأنفسهم إبادتنا ونحن بدورنا نقول لهم أنظروا إلى أنفسكم ومحصوا في مجازركم التي قمتم بها في فييتنام و قنبلة هيروشيما وناغازاكي في اليابان ومجازر البريطانيين في الهند والفرنسيين في فييتنام والجزائر والروس في أفغانستان والإيطاليين في ليبيا والحبشة، بينما يقول لنا ربنا في كتابه العزيز (ولا تزر وازرة وزر أخرى) (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق) فأي إرهاب بعد ذلك تدعون، وهل كنتم تتوقعون ردا على إرهابكم إلا المقاومة والانتقام؟

وحيث أن الحضارة بمفهومها الإنساني هي احترام الحياة وتقديسها بجميع أشكالها والنظر إلى الإنسان كموضوع إيجابي مجاور يجب التعايش معه والاستفادة من عقله وعمله فقد قامت بتربية شاقة وعسيرة لهذا الإنسان لتخلصه من معظم غرائزه العدوانية التي تعزله عن الإنسان الآخر فالتعصب الأعمى للدين والعنصرية القومية والطائفية والاستعلاء على الآخرين كمقولة شعب الله المختار كل هذه السلبيات هي مواضيع لاحضارية يجب أن نلغيها من الوجود لنساعد أنفسنا حاليا وأطفالنا مستقبلا ليتعايشوا مع الإنسان الآخر في عالم سيكون أكثر ازدحاما وأشد صراعا وعدوانية. وإذن فما فائدة الحضارة إذا فشلت في ترويض الإنسان من مراحله البدائية الفجة وأخلاقه الشرسة لتجعل منه إنسانا متحضرا يقبل الغير ويتحاور معه ولايفسد خلاف الرأي للود قضية بينهما؟ تلك هي الحضارة وتلك أهدافها، ومع ما نشهده اليوم من صراعات قومية وطائفية ودينية على

مساحة العالم وظلم وعدوانية خطرة للمستضعفين في الأرض هل يمكن أن نقول بأن الحضارة قد فشلت في مهمتها أوتراجعت عن تقدمها؟ طبعا لا لأن درجة التحضر ليست متساوية في كل أقطار الأرض وأن نسبة من التخلف ما زالت موجودة في كثير من بقاع العالم حيث تسود الأنانية المرضية والتعصب الفكري وأن كل من لا يوافقني في الرأي هو خصم لي يجب أن أقتله هذا مع استبعاد الأهداف الاقتصادية للصراع من أجل البقاء، وهي الغايات التي تقبع تحت كل المسميات النبيلة التي تدعيها أطراف الحروب المشتعلة، ثم إن الحضارة ليست قطارا آليا لا يتقدم إلا إلى الأمام لأن الانتكاسات الحضارية واردة دائما خاصة عندما تتغلب الغرائز الفطرية على مقومات التربية والثقافة أوتهدد المصالح الوطنية لمجتمع ما، وأذكر على سبيل المثال مقولة لجون فوستر دالاس وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٥٤ كرد على إنشاء مجموعة دول عدم الانحياز: (كل من ليس معنا فهو ضدنا بالضرورة) وهذه النظرة الضيقة للأمور تعتبر محيرة خاصة عندما تصدر عن وزير خارجية أكثر الدول تحضرا، لكن ذلك لا يعني أن المستر دالاس لم يكن متحضرا، ولكن يمكن اعتبار مقولته كأنها تراجع حضاري مؤقت يرتبط بالتخوف من تهديد مصالح بلاده في دول العالم الثالث ومناطق النفوذ العالمية.

لقد نجحت الحضارة فعلا في ترويض الإنسان وتهذيب تصرفاته الفجة والتقليل من نسبة عدوانيته الغريزية أو تصعيدها أو التنفيس، عنها ولكنها لا تستطيع أن تزيلها تماما وهي بذلك يمكن أن تظهر واضحة بين الحين والحين عندما يتعرض الإنسان للخطر أويقع تحت ضغط الحاجة الماسة لموضوع حيوي.

٨-٣- الجريمة:

إذا كانت الحروب بمعناها الشامل والمعروف هي قتال بين أمتين أوشعبين اختلفا بالرأي وتباينت مصالحهما تجاه قضية معينة استعصت على الحل السلمي بلغة الحوار فإن الجريمة الفردية أيضا هي خلاف بين شخصين اختلفت مصالحهما وتطور الخلاف بينهما، لدرجة الصدام المسلح حيث فشلت كل الوسائل الأخرى ومن ضمنها التحكيم القضائي في حل الأمر بينهما وغالبا ما تبدأ الجريمة عندما ينحاز القضاء نتيجة لخلل ما لصالح أحد الطرفين دون الآخر فالظلم هو أحد دوافع الجريمة الرئيسيين.

وترتبط الجريمة في المجتمع بمعايير التربية المنزلية والمدرسية الأولى حيث تتشكل

شخصية الطفل فإذا فشلت تلك المؤسسات الاجتماعية في ترويض الطفل والتخفيف من عدوانيته الفطرية وجعله كائنا مقبولا اجتماعيا أومحكوما بروادع أخلاقية وضميرية ثابتة تحول ذلك الطفل إلى مشروع مجرم أوسارق وإذا نجحت في ترويضه وتأهيله اجتماعيا كان مشروع رجل سوي وناجح إذ إن التربية تساوي في مهمتها هنا مهمة الحضارة في تربية وترويض الشعوب، والمجرم بمفهومه الاجتماعي هو إنسان غير سوي نفسيا تغلبت غرائزه الحيوانية فيه على معايير التربية وأوجدت في أناه الشخصية ضميرا مهزوزا وفي وراقات اللاشعور لديه دوافع عدوانية مرضية تصعب السيطرة عليها، وهذا التعريف للمجرم هو تعريف عام يستثني بعض الحالات الشاذة التي تكون الجريمة فيها مدفوعة بدوافع سوية لشخصيات سوية كجرائم القتل بسبب الغيرة أوالتعرض للنصب والاختلاس أوالاعتداء على الشرف.

٨-٣-١-فلسفة الجريمة :

تنطلق الرغبة في قتل الآخر من دافعين رئيسيين تغذيهما روح عدوانية قوية، أولهما هو الانتقام لجريمة سابقة وقعت على المنتقم إما بقتل أحد أقربائه من الدرجة الأولى أوالاعتداء على عرضه وشرفه، وثانيهما هو دافع اقتصادي كأن يعيق المقتول سبل وصول القاتل إلى أهدافه المشروعة كالاعتداء على وسائل رزقه في الحياة أوابتزازه بهدف الاختلاس والسرقة، وعادة ما يلجأ الإنسان العاقل والمتحضر إلى الوسائل القانونية والمشروعة في إبعاد الأذى عن نفسه وأفراد عائلته خاصة إذا كان قد تلقى تربية مناسبة تروض دوافعه العدوانية الفطرية وتستبدلها بوسائل حضارية في الدفاع عن النفس، أما إذا كان الوضع غير ذلك فإن أي استفزاز خارجي يمكن أن يدفعه لسلوك فطري غير محسوب يؤدي إلى جريمة محققة، والفرق بين المجرم والإنسان السوي هو أن الأول لم يستطع التأقلم مع أنظمة وقوانين المجتمع الذي يعيش فيه والذي أخذ على عاتقه مسؤولية حمايته من عبث العابثين وتوفير الأمن والأمان له ورعاية مصالحه وسبل رزقه، فإذا سارع لأخذ حقه بيده ولم يستطع أن يصبر على طول المدة الزمنية التي يستغرقها إحقاق الحق عن طريق القضاء وقام بعمل فردي يعيد إليه حقوقه تورط في جريمة يعاقب عليها القانون، وبدلا من أن يكون مدعيا صاحب حق ينقلب الحال عليه ويصبح مدعى عليه يتوجب عقابه وإسقاطه من نسيج المجتمع. ولكن غالبا ما يفشل القضاء لظروف متنوعة

في إحقاق الحق إما لعدم كفاية الأدلة أولعدم نزاهة القاضي عندئذ قد يتورط المظلــوم فـــي محاولة لاسترداد حقه بيده وفرض عدالته الخاصة وهنا تحصل الجريمـــة، إذن يجـــب أن لانستغرب انتشار الجرائم حيث يفتقد العدل ويعجز القضاء عن القيام بمهماته الموكلة إليـــه. وكما أن الحروب بصفة عامة هي ذات أهداف وأسباب اقتصادية فـــإن الجريمـــة أيضـــا لاتخرج عن هذا الإطار إلا فيما ندر هذا إذا أخذنا مفهوم الاقتصاد بمعناه الشـــامل وليـــس فقط بمعناه المادي المحدود أي إذا اعتبرنا المفهوم الاقتصادي شاملا لكل ما يندرج تحتـــه من تضارب للمصالح، وحيث أن القوانين الوضعية والسماوية هـــي منجـــزات حضاريـــة جاءت لتنقل المجتمع من حالة الفوضى وشريعة الغاب حيث يأكل القوي الضعيـــف إلـــى حالة النظام والحضارة حيث يتعايش الجميع في محبة ووئام، ويدرك كل منهم حدوده فـــي الحقوق والواجبات، نستطيع أن نتفهم لماذا تعتبر الجريمة معيارا غير حضـــاري ولمـــاذا تنتشر الجرائم حيث تفتقد العدالة ويسود الظلم.

كذلك يلعب الاكتظاظ السكاني وانتشار الفقر والجهل فـــي بعـــض المجتمعـــات دورا حاسما في انتشار الجريمة حيث يحتدم صراع البقاء ويزداد ضراوة، فالفقر وهو نوع مـــن نقص الموارد والجهل وهو نوع من نقص التربية والحضارة يعتبران وسطا مثاليا لتـــأجج صراع البقاء وانتشار الجريمة حيث يزداد التطلع الطبقي وينمو الحقـــد والحســـد وتكـــثر الإحباطات الساحقة وتترعرع المرارة والتكالب على المادة بأي ثمن كان. وعندمـــا يفكـــر الإنسان بإزاحة الإنسان الآخر من طريقه إما للاستيلاء على مقتنياته أولحمايـــة مصالحـــه الخاصة من ذلك الآخر، فإن صراعا نفسيا يحتدم فـــي داخلـــه بيـــن روادع الأنـــا العليـــا أوالضمير وبين غرائزه العدوانية الفطرية وحيث تضعف الروادع الداخلية التـــي تعهدتـــها تربية محابية أوخاطئة تنتصر الغرائز وتقع الجريمة خاصة إذا تأكد المجـــرم مـــن عـــدم انكشاف أمره وتعرضه للعقاب، ولكن هل هناك جرائم لم يعاقب عليها فاعلوها؟ وبمعنـــى آخر هل كانت هناك جرائم كاملة ؟ والجواب هو: نعم بدليل أن ملفات مراكز الشرطة فـــي العالم تطفح بقضايا قيدت ضد مجهول ولم يكتشف فاعلها. وهل صحيح أن المجـــرم بحـــد ذاته هو ضحية لسلبيات المجتمع ؟وهل يستحق العقاب من هذا المنطلق أم يستحق العـــلاج كإنسان غير سوي؟

٨-٣-٢ الجريمة والعقاب :

أقرت الشرائع البشرية الأولى بوجوب القصاص من المجرم (العيـن بـالعين والسـن بالسن والبادئ أظلم – شريعة حمورابي – الألف الثالث قبل الميلاد) كما أوجبت الشـرائع السماوية كلها عدالة القصاص من المعتدي ضد المعتدى عليه، ولكن بعض الدول المتقدمـة ألغت في نهاية الخمسينات عقوبة الإعدام من قوانينها بدعوى أن إزهاق روح إنسان عـن سابق تصميم وإصرار يعتبر عملا غير حضاري، ورغم أننا لا ننكر أن المجرم قد يكـون ضحية ظروفه الاجتماعية السيئة وتربيته الخاطئة، ولكننا لانملك وليس لنا الحق أن نملـك مهمة تبرير جريمته وإيجاد أعذاره الخاصة، أوليس المغدور أيضا هو مواطن صالح فـي المجتمع وثق بنا وأوكل إلينا مهمة حمايته وتوفير الأمن له ولعائلته؟ فبأي حق نبرر لقاتلـه فعلته لنتركه على قيد الحياة؟ يقول المدافعون عن إلغاء عقوبة الإعـدام بدعـوى احـترام الحياة التي تعتبر بحق معجزة إلهية: أن الحياة هي هبة الله إلى الإنسان وليس من حق أحـد أن ينتزعها منه إلا الله نفسه، فإذا أباح المجرم لنفسه إزهاق هذه الحياة تحت وطأة ظروفـه الاجتماعية القاسية وتربيته الخاطئة التي لا ذنب له فيها، فكيف نبيح لأنفسنا إزهاق روحـه ونحن بكامل وعينا واتزاننا ولا نخضع لنفس ظروفه القاسية ودوافعه المرضية، أما كـان من الأولى أن نحجر عليه في السجن ونضعه تحت برامج تأهيلية وعلاجية لكـي نصنـع منه إنسانا صالحا في المجتمع؟

لكن المدافعين عن وجوب عقوبة الإعدام للقتلة والمجرمين لهم أيضا حججـهم القويـة ومبرراتهم المنطقية، فالمجرم الذي يعتدي على حياة الآخريـن كلمـا تفجـرت نوازعـه العدوانية وتطاولت مطامعه الخاصة أوفقد السيطرة على أعصابه هو بكل بسـاطة إنسـان شاذ وفاسد ويجب التخلص منه مثله في ذلك مثل أي عضو في جسم الإنسان يصيبه تلـف يوقفه عن العمل ويتوجب بتره حتى لايسبب الأذى لباقي أعضاء الجسم والعمل الجراحـي الذي يتدخل لحماية المريض من الموت هو نفس العمل الذي تؤديه عقوبـة الإعـدام فـي المجرمين، بالإضافة إلى أن تلك العقوبة ستكون رادعا للآخرين ولـولا ذلـك لانتشـرت الجريمة بين الناس طالما أن كل من يزهق روحا لسبب أولآخر يوضع في السجن لمدة قـد تطول أوتقصر حسب سلوكه في السجن لتتعهده نخبة من المصلحين الاجتماعيين بالعنايـة والرعاية كطفل مدلل. وهذا يفسر لماذا تراجعت بعض الدول التي كـانت سـباقة لإلغـاء

عقوبة الإعدام عن قراراتها بعد أن لاحظت ارتفاع نسبة الجريمة في مجتمعاتها وتكونت لديها القناعة بأن من فسدت تربيته في طفولته وتصلبت شخصيته وتكونت عقده النفسية يصعب إعادة تأهيله وتربيته مرة أخرى وهو بالغ راشد وأنه لايمكن لأي مبرر مهما كان أن يجيز إزهاق روح إنسان إلا في حالات الدفاع المشروع عن النفس.

إن التأمل في تناقضات الجريمة والعقاب وتناقضات الحرب والسلام تطرح أمامنا ملابسات عجيبة يصعب تفسيرها فالمقاتل الحربي الذي يرتكب المجازر الوحشية أثناء الحرب والذي يدعونه حاليا مجرم حرب لا يطبق عليه العقاب إلا إذا هزمت دولته وسيق في عداد الأسرى والمطلوبين وفيما عدا ذلك فإنه يعود من حربه منتصرا ويدخل عاصمة بلاده محفوفا بأكاليل الغار والزهور متقلدا أوسمة الشجاعة والتقدير بينما يعلق القاتل العادي على أرجوحة المشنقة مسربلا بالخزي والعار وكلاهما قاتل فما الذي أجاز القتل لهذا وحرمه على ذاك؟ وهذا ما يدعو المجتمعات المتحضرة حاليا إلى مراجعة القوانين الدولية وتحديد مصطلحاتها وتسمياتها من هو مجرم الحرب وما هو الإرهاب ومن هو البطل وما هي المقاومة المشروعة للدفاع عن النفس؟ كل هذا في خضم اختلاط المفاهيم وتشويه الحقائق والمسميات.

٨-٣-٣ : أنواع الجريمة :

يمكن أن تصنف الجرائم وفقا لأهدافها ودوافعها أوحسب طرق تنفيذها فهناك جرائم السرقة التي تكون غايتها الأساسية الاستيلاء على ممتلكات الغير بالقوة، وغالبا ما تقع مثل هذه الجرائم كتحصيل حاصل أوكنتيجة للسطو المسلح ودفاع الآخر عن ممتلكاته، وهناك جرائم الانتقام والأخذ بالثأر وهذه معروفة جيدا في أوساط الفلاحين والقبائل البدوية حيث يأخذ الابن أوالأخ بثأر أبيه أوأخيه وذلك بقتل القاتل شخصيا أوالانتقام من أحد أفراد أسرته إن كان متواريا عن الأنظار، وغالبا ما تحصل أخطاء فادحة في تحديد هوية المجرم لأن المنتقم ينصب من نفسه شرطيا وقاضيا وجلادا في نفس الوقت ويحدد هوية القاتل بناء على مرئياته الخاصة دون الأخذ بالأدلة القاطعة والحجج الواضحة ودون أن يترك للضحية فرصة الدفاع عن النفس، وغالبا ما يقع ضحايا أبرياء في أتون هذه الجرائم التي قد تتحول إلى حروب عائلية أوقبلية تستمر لعدة سنوات في سلسلة القتل والانتقام. أما الجرائم الجنسية فتحصل عادة للدفاع عن العرض والشرف أو انتقاما له أو لخلاف على

خطبة فتاة أولإسكات مغتصبة حتى لاتشي بهوية مغتصبها. وجميع هذه الجرائم تكون عادة فردية أوارتجالية تقتصر على فاعلها الأول. أما الجرائم السياسية فغالبا ما تكون منظمة ومخطط لها بحيث يكون نجاحها مضمونا، وتدعمها جهات أومؤسسات رسمية أوغير رسمية لإزاحة شخصية سياسية معينة من السلطة أولتنافس على مركز وظيفي هام أولاعتقادات إيديولوجية متضاربة. ويجدر بنا الإشارة هنا إلى العصابات المنظمة التي تحترف القتل كوسيلة رئيسية لجمع الثروة كعصابات المافيا التي أرهبت الولايات المتحدة الأمريكية زهاء قرن من الزمن وكانت تتدخل حتى في الانتخابات البرلمانية في إيطاليا وتتاجر بالمخدرات وتدير نوادي القمار الليلية وتفرض الأتاوات على التجار والمؤسسات الصناعية الخاصة وتزيف النقود وغير ذلك من أعمال الإجرام الضارة بالمجتمع.

ويمكننا أن نلخص فلسفة الجريمة بأنها عمل عدواني مرفوض اجتماعيا، ويرتكز على الغرائز العدوانية التي لم تستطع التربية ترويضها وعلى مشاعر الكراهية الناتجة عن الحقد والحسد، وكل تلك المشاعر كانت هدفا لفعاليات الحضارة بهدف تخفيفها أوترويضها فهل نجحت الحضارة بمهمتها حتى الآن؟ وهل أفلحت القوانين الوضعية والسماوية والفلسفات والمذاهب الإصلاحية في الارتقاء بالإنسان من رتب الهمجية الدنيا إلى رتبة الإنسان الكامل المتحضر؟

لقد صبت جميع تلك المحاولات في بوتقة هذه المهمة الشاقة والعسيرة، إلا أن النتائج المحصودة كانت خليطا من البشر يتفاوت في نسبة تحضره وتخلفه، فمن الإنسان البدائي الذي لازال منعزلا في غاباته وجباله إلى الإنسان المثالي الذي يتسم بالحب والمودة والحنان على الأطفال والحيوانات الإنسان الذي يفعل الخير لا خوفا من قانون يطاله بالعقاب بل لإيمانه الكامل بأن الخير يجب أن يعمل لأنه الصواب، هذا الإنسان الذي صقلته وهذبته مقاييس الحضارة عبر أجيال متعاقبة يمكن اعتباره الثمرة اليانعة التي تستحقها البشرية المعاصرة رغم ما فيها من بقايا تخلف أخذ بالتناقص من أجل مصلحة البشرية جمعاء. كانت أول جريمة في التاريخ هي قتل قابيل لأخيه هابيل في خلاف على الزواج من توأم أخيه هابيل ومات هابيل الطيب المسالم وبقي قابيل الشرير العاصي لينجب البشرية الحالية فهل يعتبر هذا الرمز تفسيرا للروح العدوانية المتأصلة في كل إنسان؟ وهل ما زال قابيل فينا رغم كل هذه التجارب الحضارية المتراكمة؟.

الخاتمة

في خاتمة هذا الكتاب أحب أن أنوه أن موضوع الحضارة وأثرها على الإنسان سلبا أم إيجابا كان يشغل حيزا من اهتمامي الشخصي، ورغم أني لست متخصصا في علوم التاريخ والاجتماع أوالفلسفة، إلا أن قراءاتي الخاصة والمتشوقة عن هذه المواضيع خلال عشرين عاما من العمل الجيولوجي في الحقول كانت قد أثرت معلوماتي العلمية عن الأرض وثرواتها الدفينة التي استثمرها الإنسان بواسطة العقل المتطلع لحياة أفضل، والذي أفرز كما هائلا من الإنجازات الحضارية المادية والفكرية مكنته من اختراق أبعاد الفضاء والغوص في أعماق الأرض ليستثمر ويستنزف على حد سواء خاماتها المعدنية ويترك فيها آثارا سيئة من التلوث المزعج، وقد خيل لي ذات يوم وأنا أشرف على عملية حفر سبري فوق خام الفضة وأنابيب الحفارة تغوص في أحشاء الأرض إلى أبعاد لم يكن الإنسان السلف يحلم بها أبدا خيل لي بأن هذه التقنيات الحديثة والحضارة المزهوة بنفسها ليست إيجابية تماما وأن ما تتركه من آثار سلبية على التطور الطبيعي للأجناس النباتية والحيوانية والاستنزاف المستمر لخامات الأرض سيكون الثمن المنطقي الذي ستدفعه الأجيال القادمة لتلك الحضارة.

وقد أثارت تلك التجربة الفريدة مشاعري فكتبت قصيدة في هذا الموضوع لا أرى مانعا في إدراجها في هذا الكتاب المتواضع لعلها تبرر لي تجاوزي على حقول ليست من ضمن تخصصي راجيا من أساتذتي في علم التاريخ والاجتماع والفلسفة أن يغفروا لي جرأتي في البحث في مجالاتهم العلمية مدفوعا بقناعتي بأن العلم يشكل وحدة تامة لايجوز فصلها بحدود جغرافية صارمة، كما أن الشهادة الجامعية رغم كونها وثيقة علم تأهيلية لاتعبر دائما عن ثقافة شاملة ولاتحبس حاملها ضمن إطارها الضيق فالعلم متاح للجميع والقراءة مسموحة لكل من يريد.

ثقب في سفينة الحب

١-) دعني أستنشق أنسام الأرض الوارفة الخضراء

من دون سموم ينفثها مصنعك اللاهث بسمائي

من دون دخان وغبار ذري يسبح بهوائي

فالأرض لنا إرث الأسلاف وطوف نجاة الأبناء

وسفينة حب تحملنا لشواطئ أمن ورجاء

تثقبُ موضعك ولا تدري أنك تغرقنا بغباء

❋ ❋ ❋

٢-) دعني أرتشف عصير النبع وماء النهر المعطاء

من ثدي الأرض بلا خوف من سم يحرق أحشائي

دعني أتحمم برذاذ الشلال لأغسل أعبائي

والشمس أصابع فنان نفذت من سحب دكناء

ترسم ألوانا ضاحكة في قوس القزح الوضاء

❋ ❋ ❋

٣-) أبعد أحماضك عن حقلي ونفاياتك عن مائي

فزيوتك تعبث في زرعي ودخانك يخنق أبنائي

يامن أظهرت لنا وجها لحضارة علم وبناء

وسترت الآخر بقناع الأخلاق الزائف وطلاء

تقطفُ ثمرات حضارتك المزهوة فوق الأحياء

وشعوبُ الأرض تسددها ثمنا لوباء ودواء

❋ ❋ ❋

٤-) قد جفَّ الضرع' وغارَ الماء' فأين حدائق آبائي
و تحول حقلي ليبابٍ و مروجي الخضرِ لصحراءِ
إني أحترق' فأنقذني، أختنق' بصيفي وشتائي
حاصرني القحط وأتلفني إعصار الريح الهوجاءِ
والبحر تلوث والأسماك' تئن أنين الخوساءِ
تتمادى عبثاً في الدنيا وتحاول منها إقصائي
فأعد لي أرضي طاهرة الأنفاس كنفح العذراءِ
وأعد لي مائي شفافاً كالضوءِ يمور بأجوائي
ما الأرض' لوحدك تسكنها والإرث' لكل الأبناءِ

❋ ❋ ❋

وهكذا نجد الأرض التي أورثها الله لعباده من بني آدم تشبه إلى حدٍ بعيد سفينة نوحٍ التي تبحر بنا في الفضاء الكوني يتيمةً وحيدةً لا ملاذ لها ولا ميناء فهل نثقبها بحماقة بعضنا من المتحضرين أومدعي الحضارة، وهل ندمرها بالإشعاع الذري والتلوث الكيميائي والجرثومي، وهل نقضي على الحياة فيها التي تعتبرها الحضارة معجزةً إلهيةً رائعة لا يمكن أن تتكرر إلا بأمر الله ؟ إنهم يتهمون دول العالم الثالث دائماً بالإرهاب والتلوث وهم يعلمون تمام العلم بأنَّ هذه الدول لاتملك عدداً كبيراً من المصانع الملوثة ولاتقنية الأفران الذرية المسربة للإشعاع ولامختبراتٍ للأدوية وتطوير الجراثيم يمكن أن تؤذي أهل الأرض بأوبئةٍ محصنة لا دواء يفلح في علاجها أواستئصالها، ودعونا نذكرهم فقط من أين أتى وباء الإيدز والسرطان وجنون البقر وشلل الأطفال ؟ ويشهد الله والتاريخ الطبي أننا استوردنا هذه الأمراض من بلادهم مثلما نستورد أي شئ آخر وكل شئ فهل نتهم الحضارة فقط بسلبياتها ونضعها في قفص الاتهام ككبش فداء بينما نسقط عنهم جريمة سوء استخدامها ؟

إنَّ المسؤول الأول عن معاناة الإنسان هو التزايد السكاني المطرد حسب متوالية هندسيةٍ مرعبة مع محدودية الموارد الأرضية، وقد تولت الحضارة طوال التاريخ البشري

مهمة التخفيف من تلك المعاناة وذلك بإيجاد موارد جديدة أوتطوير موارد مستهلكة لخلـــق فرص عملٍ جديدة لبشرٍ يتكاثرون من دون حدود، كذلك نظمـــت الحضـــارة بمكتســـباتها الفكرية القيمة شؤون الإنسان والمجتمعات بتحقيق عدالة نســـبية بينـــهم هـــي رغـــم كـــل السلبيات أفضل من لاشيء رغم الحروب الطاحنة المتكررة التي لم تأبه أبداً لكل النـــداءات الحضارية بوجوب إخمادها من أجل مصلحة الجميع على السواء لأنـــها وبكـــل بســـاطة تندرج تحت قانون الصراع من أجل البقاء الذي تزداد شراسته حدة كلما ازداد عدد ســـكان العالم وتكاثرت الأفواه الجائعة إلى الغذاء.

فالحروب بجميع أشكالها وصورها ما هدأت يوماً على مدى التاريخ إلا ليتـــم الإعـــداد لها مرةً ثانيةً، وطالما أنّ هناك إنسانٌ يفكر ويعيش ويتكاثر ويخطـــط لضمـــان اســـتمرار حياته بشكلٍ أكثر سعادةً وأوفر أمناً له ولأحفاده من بعده وأنّه طالما كان هناك إنسانُ آخـــر يشاطره نفس الأرض والسماء ويشاركه نفس الموارد ولا يقل عنه تفكـــيراً وذكـــاءً، فـــإنّ خطر التلاشي والزوال قائمُ دائماً وأبداً وبركان التحدي لايـــهدأ وهـــاجس الأمـــن لايكـــف ولايستريح، هذا الإنسان الآخر موجودُ دائماً هناك في مكانٍ ما يعمـــل ويفكـــر بصمـــت، وطالما لاأستطيع سبر أغواره ونواياه فإنّ من الخير لي أنْ أكون مستعداً له وقوياً، وعندمـــا يستشعر الإنسان مدى قوته الذاتية فإنّ مشروع إزالة الآخر مصدر الخطـــر يصبـــح وارداً في أولويات التفكير البدائي، ولكن التفكير الحضاري ينظر للموضوع من زاويـــة مختلفـــةٍ تماماً: فهذا الإنسان الآخر طالما يشبهني وله مثل عائلتي وله نفس تطلعـــاتي فإنـــه يمكـــن الاستفادة من قوته الذاتية وخبراته في الحياة ليصبح رديفاً لي في مواجهة صعوبات الحيـــاة وذلك بمدّ جسور الصداقة والمحبة والمصلحة المشتركة فيمـــا بيننـــا. إنّ فكـــرة التعـــايش السلمي ليست فكرةً وليدةً للحضارة فالإنسان البدائي حاول التعاون مع الآخر في مواجهـــة صعوبات الصيد وتأمين الموارد ولكن الحضارة عززت هذه الفكرة على حســـاب غرائـــز الأنانية والعدوانية الفطرية فليس كل ما يخيف يمكن أن يكون مخيفاً وطالما أنّ الحضـــارة هي بالأساس صنيعة العقل والذكاء بدليل أنّ الحيوانات لم تستطع صنع أية حضـــارة فـــإنّ من العقل والذكاء قلب معادلة التفكير الأناني والعدواني إلى معادلةٍ أكثر نفعـــاً للجماعـــات المتجاورة والمتعايشة تجلب الأمن والرفاه للجميع دون استثناء.

صحيحُ أنّ الحضارة لم تكن مسؤولةً أبداً عن اندلاع الحروب بل على العكس من ذلـــك

تماماً، فقد كانت غايتها الأساسية هي كبح الغرائز العدوانية للإنسان وتنمية أناه العليا وضميره الرادع الذي يلزمه بالتعايش السلمي مع جيرانه، ولكن هل يمكننا تبرئة ساحة الحضارة من تهمة تطويرها لوسائل وأدوات الحروب بحيث أصبحت أشد فتكاً وأعم بلاءً؟ وهل كانت قنبلة هيروشيما غير منتجٍ من منتجات الحضارة ؟ وهل كانت لتقتل نصف مليون ياباني وتصيب بالإشعاع القاتل نصف مليون آخر لو اقتصرت تلك الحرب على الأسلحة التقليدية ؟

أليست الحضارة التي ابتكرت القوانين وسنّت الشرائع وأفرزت حقوق الإنسان والديمقراطية هي التي أوجدت تقنية الذرة والحرب الكيميائية والجرثومية ؟ نعم هي نفسها. ولكنّ الحضارة هي فكرةُ مجردة وليست مخلوقاً مستقلاً ذو إرادةٍ حرة حتى نضعها في قفص الاتهام ونمارس عليها دور المدعي العام والقاضي والجلاد. إذنْ يمكننا صياغة محاكمتنا بأسلوبٍ آخر طالما أننا نبحث عن كبش فداء نسقط عليه سلبياتنا: أليس الإنسان العاقل صانع الحضارة هو الذي أوجد قوانينه وسنّ شرائعه وهذبّ غرائزه الحيوانية وسما بمثله العليا هو نفسه ذلك الإنسان الذي اخترع القنبلة النووية والأسلحة الكيميائية البيولوجية؟ أليس الإنسان الذي استنبط الأدوية ليخفف من آلام البشرية هو نفس المخلوق الذي أوجد القنابل الجرثومية والانشطارية والنابالم الحارقة ؟ أليس هو نفسه الإنسان الحامل لمعنى الحضارة ؟ وهو الذي يجب محاكمته ؟

هل يثبت هذا التناقض الصارخ أنّ الإنسان مبنيُ من مزيجٍ متساوٍ من الخير والشر من الماء والوحل من نفحة الرحمن ومن روح الشيطان؟ وأي كائنٍ غريبٍ هذا الذي يهدم ما يبنيه في عصورٍ طويلة ؟ يحبُ ويكره، يعطفُ وينتقم، يزرعُ ويحرق، يغيثُ ويشمت، يبكي ويضحك ؟ وأيّة روحٍ ملائكيةٍ تسكنهُ عندما يصبحُ شاعراً رقيقاً وموسيقياً كبيراً أوفناناً كبيراً وعالماً خيراً ينشر الخير والثقافة ويمنح الآخرين عصارة علمه وفنه تحت مقولة (عش ودع غيرك يعيش)؟ وأيُ شيطانٍ رجيمٍ يسكنه عندما يتحول إلى وحشٍ كاسر؟ يقتل وينهب، يحرق ويهدم ويدمر ويتآمر حيث تختفي الرحمة من قلبه تحت مقولة:

(لا أستطيع العيش بأمان وهناك إنسانُ آخر يعيش ويتربص بي الدوائر).

ونستطيع أنْ نفسر مثل هذا التناقض بأنّ عدوانية الإنسان إذا ظلتْ متمردةً وممتنعةً على وسائل التربية وضوابط الأنا العليا وسلطة الضمير فإنها تسقط آلياً على الآخرين،

ويؤكد علماء النفس بأنّ إسقاط الدوافع الشريرة والعقد النفسية المقلقة على الآخر هو أمرٌ معروفٌ ومثبتٌ علمياً، ومنذ أنْ يبدأ الإسقاط إلى الخارج يتحرك القلق ويتلاشى الأمان من النفس البشرية لأنّ ما يحس به الإنسان من دوافع عدوانية ونوايا شريرة يتوهم بأنه موجودٌ لدى الآخر، لذلك فهو يتصور دائماً أنّ أحداً ما سوف ينقضُّ عليه ويفاجئه بالعدوان، ولذلك فإنّه يبقى دائماً متوثباً متحفزاً قلقاً متجهماً، وهذا ما حدث بالفعل مع إسرائيل المريضة بهاجس الأمن والتي ترغب رغم ما تملكه من قوة عسكرية مدمرة أن تضمن لها دول العالم قاطبةً أمنها المزعوم الذي يهزه كل يوم طفلُ أعزل من السلاح اللهم إلا إذا اعتبرنا الحجر نوعاً من الأسلحة. هذا الكابوس المرضي إن دلّ على شيء فإنما يدل على عقدِ الإثمية المتضخمة فيها وعقدِ العدوانية المسقطة على الغير وهي في الواقع ليست بحاجةٍ إلى من يضمن لها أمنها بقدر ما هي بحاجةٍ إلى أطباء نفسيين يعالجون عقدها المستعصية، والفرق الواضح بين الإنسان العدواني والسوي هو أنّ الأول يفترض سوء النية بالآخرين ما لم يثبت العكس، بينما يفترض الثاني حسن النية بالآخرين ما لم يثبت العكس.

هذه المحاكمة العقلية والتحليل النفسي لتناقضات الإنسان هي التي تفسر المعادلة الصعبة بين حضارته وتخلفه، إنه نفس الإنسان بجميع تناقضات سلوكه وتفكيره. ولكن هل يوجد هناك إنسانٌ مسالمٌ بطبيعته أي بدون مؤثراتٍ خارجية؟

أثير هذا السؤال في إحدى الأمسيات الثقافية التي ضمتني مع بعض أصدقائي وهذا جرنا إلى السؤال الرديف: هل هناك إنسانٌ عدوانيٌ وشرير بطبيعته دون مؤثراتٍ خارجية وقد اختصرت لهم الجواب في سؤالٍ أكثر وضوحاً: لو أُعطي إنسانٌ مسالم قدراً من القوة القادرة والرادعة فمن يضمن لي عدم تحوله إلى عدوانيٍ بغيض ؟ ولو جرد عدوانيٌ شرير من قوته الداعمة فهل كان سيستمر في عدوانيته المزعجة ؟ بالطبع لا، إذن هل نستطيع القول بأن القوة هي محرضة العدوان؟

ولكنّ القوة هي صنيعة الحضارة المادية إذا استثنينا من ذلك قوة العضلات ودرجة الذكاء فكيف تصبح الحضارة سبباً غير مباشرٍ للعدوان؟ وهكذا نسقط دائماً في جدلية البيضة والدجاجة وهذه بكل بساطة هي جدلية الحياة بأكملها.

إنّ ما ينطبق على الأفراد في الحوار السابق ينطبق أيضاً على الأمم والشعوب،

وهناك أمثلةُ حيةُ وواضحة عن شعوبٍ مسالمة وأخرى عدوانية، شعوبُ تصنع الحضارات وتحميها وأخرى تدمرها وتفنيها، شعوبُ مسالمةُ ودودة وأخرى توسعيةُ لدودة منعزلةُ ومكروهة، شعوبُ تعتبر أنَّ الأرض ما خلقت إلا لها وحدها (كفكرة شعب الله المختار اليهودية) وأنَّ أفرادها هم أنصاف آلهة وممثليها على سطح الأرض، فهل يمكن لهذه الشعوب العدوانية أن تعيش بمفردها إذا نجحت في إبادة الشعوب المسالمة وإذن فنحو من ستوجه عدوانيتها؟ وهنا لابد من أن أنوه عن تعليق قرأته في إحدى الصحف الغربية عن انهيار الاتحاد السوفيتي وانفراد الولايات المتحدة الأمريكية بمقدرات العالم: نحو من بعد ذلك سنوجه غضبنا المصطنع لنحمي تناغمنا الرأسمالي وروابط العالم الثالث بنا؟ (وبعبارة أوضح نحو من سيوجهون عدوانيتهم الخارجية التي يجب أن تصب على رأس أحدٍ ما ليحافظوا على تكتلهم واستقطاب بعض دول العالم الثالث المذعورة من الشيوعية؟).

ومن المعروف في علم النفس أنَّه إذا تعذر توجيه العدوانية الذاتية نحو الخارج انقلبت إلى الداخل على شكل مازوخيةٍ مرضية ودوافع للهدم الداخلي وبواعث للانتحار.

من هذا الإنسان المتناقض انبثقت أولى كلمات الحضارة وفيه أيضاً ستنتهي آخر مفرداتها، عندما تتناقص قوى الخير على حساب قوى الشر المتزايدة ويصبح الصراع من أجل البقاء صراعاً محموماً لاهدنة فيه تلتقط فيها الأنفاس أويعاد فيها بناء القوة، وعندئذٍ فقط سيدرك الإنسان أنه كان الجاني الأوحد على نفسه ومستقبله.

ولكن لماذا ينتصر الشر دائماً على الخير؟ والجواب هو أنَّ المعركة بينهما ليست متكافئة، فوسائل الشر القتالية هي وسائل غير شريفة تتألف من الغدر والكذب والخداع، بينما لايبيح الخير لنفسه مثل تلك الوسائل حتى ولو كانت موجهةً ضد الشر فرجال الشرطة مثلاً لا يستطيعون القبض على المجرم أواللص إلا إذا توفرت ضده الأدلة الكافية لاحتجازه، مما يعطيه فرصةً للهرب أو إزالة تلك الأدلة، بينما يستطيع المجرم أن يقتل الشرطي أوالقاضي لمجرد الرغبة بذلك دون أن يحسب حساباً لأي شيء آخر، وإذا ما نفذَّ جريمته دون أن يترك وراءه أي أثرٍ يدينه فإنه غالباً ما يفلت بفعلته تلك دون أن ينال العقاب.

إنَّ الشر المستحكم في الأرض في هذا الوقت المعاصر سواء على المستوى الفردي

أوالدولي ينشر عبر المعمورة طواغيت أوأشباه طواغيت تحارب بعضها البعض من أجل السيطرة على مقدرات العالم وإخضاع الدول الضعيفة أوالمستضعفة لإرادتها، فقوى الشر لاتستطيع التعايش السلمي فيما بينها حتى من أجل مصالحها الذاتية ولا تقبل بقسمة الغنائم ولا بأنصاف الحلول وذلك بسبب تركيبتها الأنانية، والحضارة التي بدأت من أجل إسعاد الإنسان وتنظيم حياته ستكون أول ضحيةٍ له على مذبح الأطماع المادية وحب السيطرة والاستعلاء وعقد التفوق والعنجهية.

تم الكتاب بعون الله

الأحد ٩/١١/١٩٩٧

إحسان البني

قائمة المراجع

١ – كارل يونغ ١٩٨٧ : الإنسان ورموزه ، سيكولوجيا العقل الباطن ، ترجمة عبد الكريم ناصيف ، دار المنارات للنشر/ دمشق

٢ – روبرت لافون : ١٩٩١ : الموسوعة الفرنسية (quid)

٣ – د. محمد سعيد الحفار ، الأورام والبيئة ص. ٢٥٠/ دار الفكر المعاصر / بيروت

٤ – (UNEP) منظمة الأمم المتحدة لفعاليات الشعوب / التقرير السنوي لعام ١٩٨٥ / الكيماويات الشديدة السُّمية

٥ – مجلة العلوم والتكنولوجيا / الرياض / العدد الرابع / شوال ١٤٠٨ هـ

٦ – إنطوان سعادة / نشوء الأمم / دار طلاس للدراسات والنشر والترجمة / دمشق

٧ – ريمون بولان : الأخلاق والسياسة / دار طلاس للدراسات والنشر والترجمة / دمشق

٨ – سمير عبده : الحب والزواج (تحليل مائة حالة نفسية) / دار الكتاب العربي ١٩٨٩

٩ – د. محمد عبد الرحمن الشرنوبي / الإنسان والبيئة / مكتبة الأنجلو مصرية / ١٩٧٦

١٠ – جيمس فريزر : أساطير في أصل النار / ترجمة : يوسف شلب الشام

١١ – محمد علي العجيلي : الأخلاق عند فرويد / دراسة تحليلية ونقدية /١٩٨٩

١٢ – ج. ف. هيجل : العقل في التاريخ ترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام / ١٩٨٣

١٣ – فريدريك نيتشة : أصل الأخلاق وفصلها / ترجمة حسن قبيسي ١٩٨١

١٤ – ب.م. هولت : صانعو أوروبا الحديثة / ترجمة موفق شقير ١٩٨٠ / وزارة الثقافة السورية دمشق

١٥ – د. علي عبد المعطي محمد : فلسفة الفن (رؤية جديدة) ١٩٨٥ / دار النهضة العربية بيروت

١٦ – د. زينب محمود الخضيري : فلسفة التاريخ عند بن خلدون / ١٩٨٥ / دار التنوير للطباعة والنشر

١٧ – جان ألنشتاين : الصراع على العالم من ١٩٥٠–١٩٨٨ / ترجمة موسى الزعبي/ ١٩٩١ / بيروت

١٨ –فريدريك نيتشة : هكذا تكلم زرا دشت / ترجمة فليكس فارس / دار القلم / بيروت

١٩ – د. زكريا إبراهيم : مشكلة الفن ، سلسلة مشكلات فلسفية رقم ٣ / مكتبة مصر ١٩٧٧

٢٠ – بيير داكو : الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث/ القسم الأول : ترجمة وجيه أسعد/ ١٩٨١

٢١ - وليد حيدر : جنوح الأحداث / بحث اجتماعي ميداني / ١٩٨٧ / وزارة الثقافة السورية / دمشق
٢٢ - ألبرت اشفيتسر : فلسفة الحضارة ، ترجمة د. عبد الرحمن بدوي / دار الأندلس دمشق ١٩٨٣
٢٣ - مالك بن نبي : شروط النهضة / سلسلة مشكلات الحضارة / عن الفرنسية ترجمه : عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين ١٩٧٩/ دار الفكر / دمشق
٢٤ - هويمارفون ديتفورت : تاريخ النشوء / ترجمة : محمود كبيبو ١٩٩٠ / دار الحوار للنشر اللاذقية سوريا
٢٥ - ف. توفماسيان : المشكلات الفلسفية للعمل والتكنيك ، ١٩٨١ / ترجمة د. مصطفى عبد الكريم / دار الفارابي بيروت
٢٦ - سيغموند فرويد: عُسر الحضارة، نقله للعربية د. عادل العوا ١٩٧٥ / وزارة الثقافة السورية دمشق

المحتوى

من منشورات دار علاء الدين

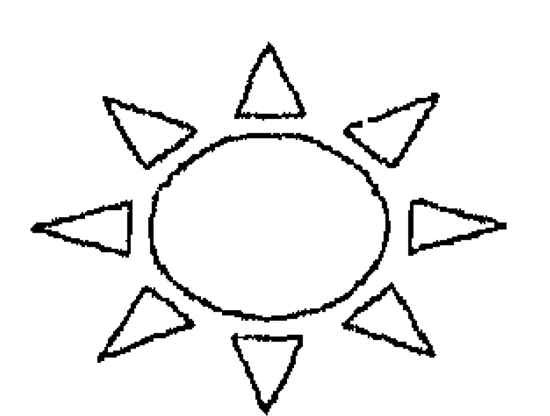
- مغامرة العقل الأولى
..............................فراس السواح
- الحدث التوراتي
..............................فراس السواح
- آرام دمشق وإسرائيل
..............................فراس السواح
- الأسطورة والمعنى
..............................فراس السواح
- بدايات الحضارة
..............................عبد الحكيم الذنون
- تاريخ القانون في العراق
..............................عبد الحكيم الذنون
- شريعة حمورابي
..............................ت. أسامة سراس
- الشركس في فجر التاريخ
..............................برزج سمكوغ
- المصادر التاريخية العربية في الأندلس
..............................ك. بويكا
- صرح ومهد الحضارة السورية
..............................مفيد عرنوق
- الأيديولوجية اليهودية
..............................مفيد عرنوق
- شريعة سدوم وعمورة
..............................محفوظ أيوب
- الديانة الزرادشتية
..............................نوري إسماعيل
- لغز عشتار
..............................فراس السواح
- دين الإنسان
..............................فراس السواح
- جلجامش
..............................فراس السواح
- التاو
..............................فراس السواح
- التشريعات البابلية
..............................عبد الحكيم الذنون
- الديانة الفرعونية
..............................واليس بدج
- طقوس الجنس المقدس
..............................إنانا ودوموزي
- السكان القدماء لبلاد الرافدين
..............................جان كلود مارغرون
- أساطير في أصل النار
..............................جيمسر فريزر
- سلسلة الأساطير السورية
..............................مفيد عرنوق
- الفكر الإغريقي
..............................محمد الخطيب
- معجم الأساطير
..............................ماكس شابيرو
- الجنس في العالم القديم
..............................بول فريشاور

- موسوعة تاريخ القفقاس والشركس
………………محمد جمال صادق أبه زاو
- دراسات حول الأكراد
…………………………………ب. ليرخ
- الأسطورة في بلاد الرافدين
…………………عبد الحميد محمد
- أهم الغزوات في صفحات الإسلام الخالدة
……………عبد أحمد عبد الكريم السعدي
- في الثقافة السياسية
…………………………………حسن حنفي
- البيئة وحمايتها
…………………………………نسيم يازجي
- الأعمال الكاملة
…………………………………ندرة اليازجي
- الجوانب الجغرافية في حماية الطبيعة
……………………………د. أمين طربوش
- كيف نعتني بالطفل وأدبه
……………………………اسماعيل الملحم
- الكويت في عيون امرأة دمشقية
…………………………………جهينة الحموي
- تعلم كيف تمارس علم النفس
…………………………………سمير عبده
- العراق صفحات من التاريخ السياسي
……………………د. كاظم الموسوي
- ذاكراه في القلب
……………………………آنا غاغارين
- ماالأدب المقارن
…………………………د. غسان السيد
- الاقتباس والجنس في التوراة
………………………………خالص مسور
- من هم الموحدون الدروز
………………………………جميل أبو ترابي
- البلدان النامية
……………………………إزس. بورتيانيكوف
المراحل التاريخية والسياسية لتطور النظام
الإداري في سوريا…………د. دنحو داوود
- الحسين بن منصور الحلاج
………………………………سمير السعيدي
- الإعلام والتوعية المرورية
……………………………د. شاكر مخلف
- التربية السليمة للطفل
…………………………………موريس لين
- الرواية التونسية حتى عام ١٩٨٥
……………………………ك.ك. لومونوف
- الواقعية في الأدبين العربي والسوفيتي
…………………………د. ماجد علاء الدين
- المنمنمات الإيرانية
……………………………ريما علاء الدين
- الضابطة العدلية
……………………………………تركي موان
- الصحافة السورية بين النظرية والتطبيق
…………………………د. عدنان أبو فخر
- تعلم الطفل في الأسرة والمدرسة
……………………………اسماعيل الملحم
- الأمثال الشعبية الفلسطينية
……………………………فوزي حمد قديح

- جميع طلبات الشراء ترسل على انعنوان التالي:

دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة
دمشق/ سورية – ص.ب : ٣٠٥٩٨
هاتف : ٥٦١٧٠٧١
فاكس : ٥٦١٣٢٤١
تلكس : ٤١٢٥٤٥

- الاسعار سارية اعتبارا من ١ / ١ / ١٩٩٩ وحتى اشعار آخر.
- يتفق على نسبة الحسم مع إدارة التوزيع.
- تضاف أجور شحن 20% للبلاد العربية و 30% للبلاد الأجنبية .
- ترسل جميع الرسائل والطرود والحـوالات باسـم د. ماجد علاء الدين على العنوان المبين أعلاه.



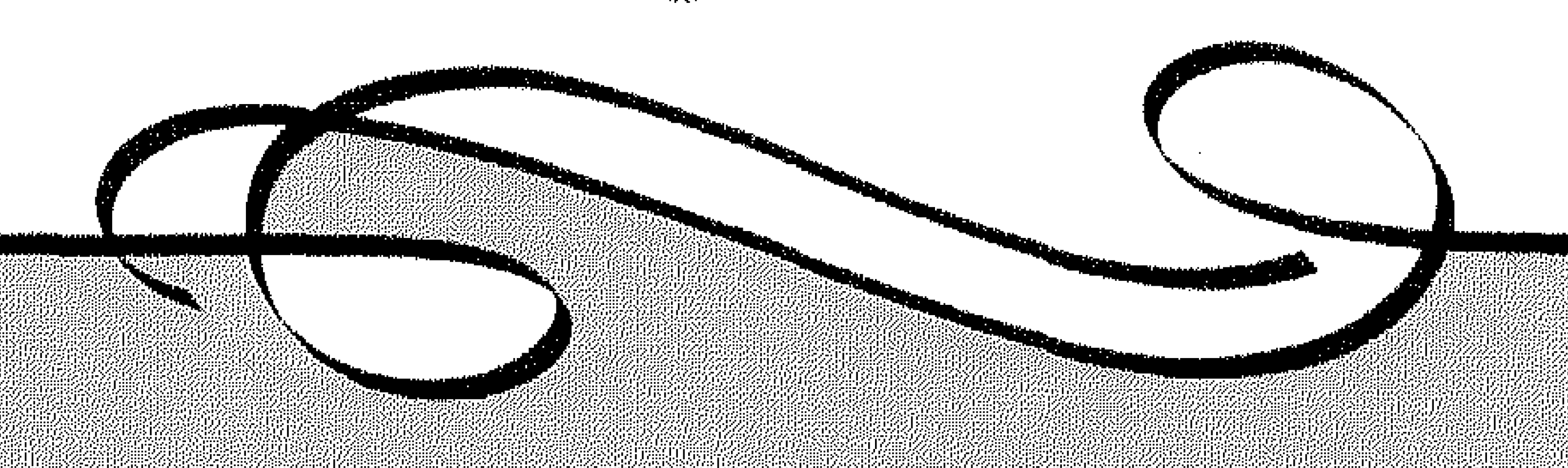
هذا الكتاب

إن الحضارة الإنسانية ذات حدين فهي انعكاس ايجابي عندما تتجلى كعطاء وفنٍ ومنفعة للبشرية ، وهي انعكاس سلبي عندما تسعى لتدمير الإنسان ، وهذا كله خاضع للأسلوب الذي يستخدمه البشر لمعطيات الحضارة .

والكتاب يسعى لإيضاح هذه الفكرة بأسلوب سهل ومبسَّط ، فيورد أمثلة حيَّة من واقعنا المعاش ، ويقدم نماذج للواقعة الحضارية ، ويبين المفارقة في استعمالها من قبل الإنسان.

الكتاب موضوعه إنساني وعام يهمُّ كل قارئ أن يطَّلع عليه، ويستفيد من توجيهاته إلى كل ما هو نافع وجميل .

الناشر



يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة

دمشق ص.ب ٣٠٥٩٨

هاتف : ٢٣١٧١٥٨ - ٥٦١٧٠٧١

فاكس:٢٣١٧١٥٩ - ٥٦١٣٢٤١